آخر
روايات الكاتبة
الحائزة على نوبل
2009
دوريس ليسنغ
الصدع
رواية

الصدع

الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتاب العرب

البريد الالكتروني: E-mail **unecriv@net.sy**
aru@net.sy

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت
http://www.awu-sy

الإخـــراج الفـــني : وفـــاء الـــساطي
تـصميم الغـلاف : مـــنير الرفاعـــي

ترجمة: محمد إبراهيم العبد الله

الصدع

رواية للكاتبة البريطانية دوريس ليسنغ

الحائزة على جائزة نوبل للأدب عام 2009
نشرت هذه الرواية بلغتها الأصلية عام 2007
دار النشر فورث إستيت

منشورات اتحاد الكتاب العرب
دمشق

سلسلة الترجمة (2)
2012

الصـــدع

رواية دوريس ليسنغ

"لقد غيرت دوريس ليسنغ الطريقة التي
نفكر فيها بهذا العالم"

(بليك موريسون)

الـصدع

تعد دوريس ليسنغ إحدى أهم الكتاب المشهورين والبارزين في العقود الأخيرة. زميلة الشرف وزميلة الأدب ، مُنحت جائزة ديفيد كوهين التذكارية للأدب البريطاني، والأمير الأسباني لجائزة أستوريس وبركس كاتالونيا ، وجائزة القلم الذهبي لـ تي إس دوبونت لخدمتها البارزة للأدب طوال حياتها ، كما حصدت جوائز عالمية أخرى . وهي تعيش اليوم في شمال لندن .

الـصدع

أشـارت مقالـة علمـية نشرت مؤخراً بأن الأنثى قد تكـون المرتكـز البـشري الأسـاسـي والأولـي، وبـأن الذكـور جـاؤوا في وقـت لاحـق ، كـنوع مـن فكـرة كونـية لاحقـة . فأنـا لا أسـتطيع الاعـتقاد بأنهـا مـشكلة حلـت علينـا مجانـاً . كانـت الفكـرة كحـنطة في طاحـونة نـشيطة ، لهذا كنت أتساءل إذا كـان الـرجال هـم الـصنف الأحـدث ، والاختلاف الأصـغر. فهم تنقصهم صلابة النساء، اللواتي أبدين بأنهن وهبن انسجاماً طبيعياً بأساليب العالم . أعتقد بـأن معظـم الناس يتفقون على هذا ، حتى وإن كان إيـضاحاً يـصعب تمريـره. الـرجال بالمقارنـة غـير مستقرين وعصبيون . فهل تختبر الطبيعة شيئاً ما؟

الـتفكير بهـذه القـضية برمتها يحدث تأملاً ويسرع الخيال الـذي يفـضي إلى ولادة القـصص . هنا إحدى الحكايـات الـتي ربمـا حـدثت حينما ولدت الصدوع صبياً صغيراً للمرة الأولى .

مقدمة المترجم

تعد دوريس ليسنغ واحدة من أشهر الكتاب الإنجليز في النصف الثاني من القرن العشرين ، ولدت دوريس ليسنغ عام 1919 في مدينة كرمنشاه في بلاد فارس حيث كان والدها موظفاً لدى أحد البنوك ، وكانت وقتئذ بلاد فارس جزءاً من الإمبراطورية البريطانية ، وهي بهذا تنتمي في مولدها إلى المستوطنين البيض ، ولم ترجع إلى لندن حتى عام 1949 بعد انهيار الإمبراطورية .

دوريس ليسنغ تحدثت في معظم رواياتها عن تجربة الحياة الاستعمارية المرئية من الداخل ، تضيئها الواقعية الأخلاقية التي تربعت على عرش الحياة الانجليزية لفترة طويلة كمادة قصصية . التحق والدها بجحافل الجيش الانجليزي أثناء الحرب العالمية الأولى وفقد ساقه في هذه الحرب ، وقد تزوج ممرضته التي كانت تشرف عليه في المستشفى (وهذا نموذج لرومانسية الحرب) . وقد صورت دوريس ليسنغ أبويها كثيراً في قصصها.

في عام 1925 أمضت عائلة تايلر إجازتها في بريطانيا وقد تأثرت العائلة بمعرض أقيم في مدينة لندن عن روديسيا وعن مروجها وأرضها الخصبة باعتبارها جزءاً من الإمبراطورية البريطانية ، فاشتروا مزرعة هناك لزراعة التبغ والذرة أملاً منهم بأن تكون هذه المزرعة مصدر إثراء لهم لكن حياتهم أصبحت مريرة ومعزولة هناك، وشعر السيد تايلر بالهزيمة هناك، وأصيب بمرض الوسواس، كما عانت أمها السيدة تايلر من مرض عضال ، لكنها لم تستسلم فاستجمعت قواها وأخذت على عاتقها مسؤولية العائلة .

كبرت ليسنغ في هذه المزرعة ، لكنها تقول في روايتها " مارثا كويست " التي تعد سيرة ذاتية لها بأن كلمة مزرعة كانت تعني لها شيئاً

مختلفاً عما رأته عنها " المزرعة كانت تعني الحقول الخضراء الصغيرة في انجلترا ، وليس مروجاً بأشجار متناثرة "

درست دوريس ليسنغ في مدرسة الدير في ساليسباري ، وأمضت هناك سنوات مريرة، فكل ما كتبته لاحقاً يحمل ندب هذه التجربة المريرة الصعبة .

تزوجت دوريس ليسنغ مرتين أثناء الحرب العالمية الثانية ، وحينما تركت زوجها الأول، كان عليها أن تترك طفليها. وحينما تركت الزوج الثاني أبقت على طفلها من هذا الزوج وجاءت به إلى بريطانيا، وهذا الزوج الثاني كان ألمانياً يسمى ليسنغ، وهو شخصية قيادية في الحزب الشيوعي الذي انتسبت إليه دوريس لاحقاً، وكان لهذا الحزب نشاط واسع في المستعمرة أثناء سنوات التحالف العسكري بين انكلترا وروسيا. بعد الحرب ذهب هذا الرجل إلى ألمانيا الشرقية، ثم رجع إلى أفريقيا كسفير لبلاده في أوغندا، الوظيفة التي قتله بها عيدي أمين.

وصلت دوريس ليسنغ إلى لندن عام 1949، تحمل معها مخطوطاً يتحدث عن العلاقات العنصرية في أفريقيا وتفاعلاتها مع المخاوف والهواجس الجنسية. وقد نشر هذا المخطوط عام 1951 بعنوان " العشب يغني "، وقد أعيدت طباعة هذا الكتاب سبع مرات. بعد ذلك نشرت ليسنغ روايتها الشهيرة "المفكرة الذهبية "، وهي أجزاء متعددة حملت عناوين مختلفة " المذكرة الصفراء، المذكرة الزرقاء، .....وقد نالت عليها جائزة نوبل عام 2009.

في عام 1952 نشرت روايتها " مارثا كويست ". بعد " المذكرة الذهبية "، و "المدينة ذات الأبواب الأربعة " كتبت ليسنغ " مختصرات النزول إلى جهنم " التي تدور حول رجل فقد قدرته على التعايش مع الواقع، ووجد عالماً من الأوهام أصبح مفضلاً لديه. ثم كتبت روايتها " الصيف قبل العتمة " التي تدور حول زوجة مسؤولة وأم تستكشف مناطق الحرية والمغامرة في لندن في ستينيات القرن العشرين، كما كتبت بعد ذلك رواية " مذكرات رجل على قيد الحياة " 1975 وهي شكل مقلوب ومرتجع

لروبنسون كروزو وقصص ديفو بشكل عام. كما كتبت بعد ذلك قصصاً من الخيال العلمي.

أما روايتها " الصدع " التي أقدمها اليوم للقارئ العربي فإنها تتناول المرحلة التي سبقت ما يسمى بالجنس البشري. الأسطورة التي تدور حولها الرواية جمعها مؤرخ روماني وهي عبارة عن مدونات قديمة، وهي بحد ذاتها تجميع لشهادات شفهية قديمة من شواطئ مختلفة، فالصدع هي قصة أجدادنا القدماء، الجنس الأنثوي النصف مائي وذي الحركة البطيئة.

تقول دوريس ليسنغ بأن مقالة علمية كانت الملهمة لها في كتابة هذه الرواية، حيث تؤكد بأن أصل البشرية هو الأنثى. وكانت هذه المقالة قد التقت مع مشاعرها بأن الرجال هم الجنس البشري الذي أتى لاحقاً. فهم الأحدث وأصحاب التنوع الأقل. فالرجال تعوزهم صلابة المرأة التي مُنحت الانسجام الطبيعي مع كل ما هو قائم في هذا العالم....أما الرجال فيعوزهم الاستقرار وهم عصبيون.

" الصدع " هي استكشاف لكل ما هو بدائي ، فالعالم الأنثوي برمته تسكنه مخلوقات أشبه ما تكون بخنزير البحر البطيء الكسول، وتظهر الفوضى عندهم ما إن يبدؤون بإنجاب الأولاد لأسباب مجهولة.

الكاتب والناقد المعروف هارولد بلوم اتهم دوريس ليسنغ بأنها تقود حملة ضد الرجال، لكن ظلت ليسنغ على الدوام ترفض مهمة الروائية التي تدعو إلى تساوي الجنسين، لأنها لا تبدي أية حماسة عاطفية تجاه النساء أو الرجال، كما أنها لا تخاف من الوقوع في الخطأ السياسي. فهناك على سبيل المثال بعض المتحمسين للأديان التوحيدية الكبرى، التي تبدو فيها الأولوية للذكر إحدى مكوناتها الأساسية وهم يأخذون وجهة نظر بلوم عن " الصدع " كنوع من الدعاية لتساوي الجنسين. لكن هذه رواية حقيقية تبدو كأنها ولاء سياسي تتجاوز مقولة النساء أولاً. فهي تقول بأن الوحشية والدفاع عن النفس صفة تستحوذ النساء والرجال على حد سواء.

هذه الرواية (الصدع) لا تختلف كثيراً عن سابقاتها، فهي تتناول مسعى النساء والرجال للعيش المشترك مع بعضهما البعض. والجدير بالذكر أن ليسنغ أرادت من هذا العنوان " الصدع " الإشارة إلى البروز الصخري الذي يعيشون فيه، كما أرادت الإشارة أيضاً إلى الأعضاء التناسلية للأنثى. فالصدوع ظلت لا تنجب سوى الإناث، إلى أن أنجبت إحداهن وبدون سابق إنذار ما يعتقد أنه وحش له تورم في مقدمته وله بروز (في إشارة للأعضاء التناسلية للذكر). لكن يترك هذا الوليد ليموت على الصخرة.

الشيء المحير هو ولادة مزيد من الأطفال، التي لا تنجو من الموت المؤكد إلا من تحمله النسور إلى الوادي المجاور وتحنو عليه ظبية تعيش هناك. كانت النساء يحتفظن ببعض الأطفال ويمثلن بهم، لكن أنقذ العديد منهم. تطور المجتمعان مع مرور الزمن، المجتمع الأول هو مجتمع الوادي الذي عرف بفوضويته ومغامرته، والثاني مجتمع الكهوف الساحلية الذي عرف بهدوئه وحلمه.

تتناول الرواية في الجزء الأخير منها التقارب البطيء للمجتمعين، فتطورهما يحتاج إلى بعضهما البعض. وتكتشف النساء بأنهن لم يعدن قادرات على إنجاب الأطفال لوحدهن. وأن غضبهن المتزايد من الرجال يعكس نقصهن. فالرجال يريدون التقدم بغية الاستكشاف وهم بهذا يخاطرون بحياة أطفالهم في حملات تبدو إلى حد كبير هروباً من المسؤولية الأبوية.

هناك أيضاً مشكلة في الرواية، وهي خلوها من الناس، لهذا لا نجد فيها شخصيات.إنما ليس هناك قاعدة تقول بوجوب أن تحتوي الرواية على شخصيات. لكن معظم الروائيين الذين يريدون تحويل الأسطورة التي من نسج خيالهم إلى رواية يمكنهم البدء باللعب على سيكولوجيا الشخصيات الرئيسية، لأن هذا بكل ببساطة هو العمل الذي تقوم عليه الرواية، وهو الشيء الذي يسهّل الوصول إلى عمق الشخصية. فالمخلوقات المجاورة التي تسكن الصدع (الصخور) نشاهدها في حالة ارتحال، لكن يستحيل

فهمها في أية حال من الأحوال، فهي بعيدة كل البعد عنا، وليس لديها أي فكرة عن الفردية أو الحب.

دوريس ليسنغ في إيقاعها القصصي كالسرد الشفهي مثلاً تريد أن يحدث الشيء الكثير والقليل جداً. فالأجيال تأتي وتذهب. والأفراد تضيء حتى تصبح مرئية ومن ثم تخبو. فهناك اغتصاب وجريمة، وهناك ريح مدمرة، وهناك حملات، لكن يمضي الوقت، والأحياء يتعثرون في تقدمهم إلى الأمام. فالرواية تبقى لا شيء إن لم تكن شاهداً على أهمية التجربة الفردية. كأن ليسنغ تحاول أن تجعل من الأشياء تصعب عليها بقدر ما تستطيع.

أخيراً، نشاهد أن دوريس ليسنغ تحاول شد المادة البحثية على صعيد الشكل. ويشعر أحدنا في النهاية بأنه يترك بإحساس شديد من الطموح والضعف الإنساني. وعلى الرغم من غياب الإغاظة للشخصية وغياب الحبكة، تكتب دوريس ليسنغ عن الرغبة الإنسانية في التغيير، سواء أخذ شكله التطوري أو شكله الثوري، وتكتب أيضاً عن أشياء لكي تبقى كما هي. في النهاية تنقل لنا ليسنغ إيمانها الراسخ بزوال أي حالة يجد الناس أنفسهم فيها، وتنقل لنا بالمقابل الطبيعة غير المتبدلة للعلاقات الإنسانية.

المترجم

الصـدع

هذا ما شاهدته اليوم.

حينما تأتي العربات من المزرعة في نهاية الصيف، محملة بالخمرة والزيتون والفواكه، يحلّ جوٌّ من الفرح في المنزل، وكنت أشاركُ فيه. أرقب من نوافذي، كما يرقب عبيد المنزل وصول الثيران وهي تلف الطريق، أستمع لصرير العربة. أصبحت الثيران اليوم بعيون متوحشة وقلقة، بسبب الطريق الصاخب المزدحم المتجه غرباً. بياضها أصبح محمرّاً، تماماً كسترة العبد ماركوس وشعره الذي امتلأ بالغبار. ركضت البنات المراقبات إلى العربة، ليس هذا بسبب المنتج اللذيذ الذي سيضعنه في المخازن وحسب، وإنما بسبب ماركوس الذي أصبح في السنوات الأخيرة شاباً وسيماً أيضاً. كانت حنجرته مليئة بالغبار لدرجة يصعب عليه رد تحياتهن، وهرع إلى المضخة، خطف الإبريق الذي هناك، شرب – وشرب - صب الماء على رأسه، حيث برز من هذه الإراقة كتلة من الضفائر السوداء – ورمى بالإبريق بسرعة على البلاطة المحيطة، حيث تهشم. أما، لولا، التي جاء والدي بأمها في رحلة قام بها إلى صقلية، فقد كانت فتاة سريعة الانفعال ومثيرة، اندفعت إلى ماركوس توبخه وتتهمه بأعلى صوتها. رد عليها بالصياح مدافعاً عن نفسه. كان بقية الخدم ينزلون جرار الخمرة والزيت ومحصول العنب، الأسود والذهبي، وكان مشهداً نشطاً صاخباً. بدأت الثيران بخفض رؤوسها، والآن أخذت لولا الإبريق الثاني وملأته بالماء، بجو من الضجر الذي تعتز به، وهرعت به إلى الثيران لتملأ أجوافهم، التي كادت تخور. فقد كانت مسؤولية ماركوس أن يتأكد بأن الثيران شربت ماءها حال وصولها. طأطأت الثيران رؤوسها وشربت، في حين التفتت لولا ثانية إلى ماركوس وهي

توبخه وعلائم الغضب على وجهها. كان ماركوس ابن العبد الذي في المنزل، وقد عرف هذان الاثنان بعضهما طوال حياتهما. عمل ماركوس أحياناً في منزل بلدتنا، وذهبت هي أحياناً لقضاء الصيف في ذلك العقار. عُرفت "لولا" بمزاجها المتقلب، ولو لم يقسُ الحر على ماركوس أو كان مغبراً بعد رحلته الطويلة والمملة، لسخر منها وضايقها من نوبة ضجرها.

لكن لم يعد هذان الاثنان طفلين: يكفي أن تشاهدهما سوية، لتعرف بأن نزقها، وتجهمه، لم يكن من ذلك المساء الحار فقط.

ذهب إلى الثيران، متجنباً القرون النطاحة الكبيرة عندها، وبدأ في ملاطفتها. فقد حررها من عقالها، واقتادها إلى ظل شجرة تين كبيرة، حيث انفلت عقالها من الغصن. وما أظهره ماركوس من عطف على الثيران لسبب ما أزعج "لولا" كثيراً. فقد وقفت ترقبه، في حين حملت البنات الأخريات خلفها المنتج من العربة، وكان خداها قرمزيين وعيناها توبخان وتتهمان الصبي. لم يعبأ بها. ومر من خلفها إلى الشرفة وكأنها غير موجودة، حيث سحب رداء آخر من صرّته،وخلع رداءه المغبر، واستحم ثانية بالماء دون أن يجفف نفسه – فالحرارة يمكن أن تقوم بهذا بلحظة – وارتدى واحداً جديداً.

بدت "لولا" أكثر هدوءاً. فقد وقفت ويدها على جدار الشرفة، وهي الآن نادمة، أو جاهزة لتكون كذلك. مرة أخرى لم يعبأ بها، لكنه وقف في نهاية الشرفة، يحدق بالثيران، عُهْدَته. قالت، " ماركوس...." بصوتها الاعتيادي. استهجن هذا، وتنكر لها. فقد وضعت الآن ما تبقى من الجرار والفاكهة في الداخل. كان الاثنان لوحدهما على الشرفة. قالت "لولا" مرة أخرى " ماركوس "، لكن هذه المرة قالتها بتملق. التفت لينظر إليها، بالنسبة لي، لم أرغب أن تنال منه تلك النظرة. نظرة احتقار وغضب – وبعيدة عن الرضا الذي كانت تأمله. ذهب إلى البوابة لكي يغلقها، وانصرف عن البوابة وعنها. مساكن العبيد كانت جميعها في نهاية الحديقة. فقد حمل صرته وانطلق ماشياً – بسرعة إلى المكان الذي سيقيم فيه تلك الليلة. قالت بنبرة المعتذر " ماركوس "، وبدت مستعدة للبكاء،

وأوشك هو على الدخول إلى مساكن الرجال، هرعت مسرعة لتلحق به، لكنه اختفى وراء الباب.

لم أعد بحاجة إلى مراقبة بعد الآن، فقد عرفتُ بأنها ستجد عذراً للتسكع في الساحة – ربما لتلاطف الثيران وتداعبها، تقدم لها التين، أو تتظاهر بتقديم ما تحتاجه من رعاية. فهي تنتظره.

وعرفتُ بأنه سينطلق إلى الشوارع مع صِبيان آخرين، للهو المسائي – فهو لم يكن هنا في أغلب الأحيان في هذا المنزل في روما نفسها. لكنني عرفت أيضاً بأن هذين الاثنين سيمضيان هذه الليلة سوية، بغض النظر عما يفضله.

هذا المشهد الصغير بدا لي كأنه يلخص حقيقة الصلة بين الرجال والنساء.

بالنظر إلى الشيء على أنه مصدر إيحاء، عند مراقبة حياة المنزل، كنتُ مضطراً للدخول إلى الغرفة التي حُفظت فيها رزمة كبيرة من المادة التي يمكن أن أشتغل بها. فهي عندي منذ سنوات. وقال من سبقني بأنهم سيحاولون أن يجعلوا منها شيئاً ما.

ما هي هذه المادة؟ هي كتلة من مادة تراكمت عبر العصور، نشأت كتاريخ شفهي، بعضه متشابه لكنه دوّن في وقت لاحق، الهدف من هذا هو التعامل مع التدوين السابق لنا، نحن شعوب كوكبنا.

كانت كتلة ثقيلة ومتعبة، هزمت العديد من المؤرخين المتفائلين، وليس هذا بسبب صعوبتها وحسب، وإنما بسبب طبيعتها أيضاً. وكل من يعمل عليها يجب أن يعرف بأنها إذا وصلت مرحلة النضوج بحيث يمكن أن تعطى اسماً وتصبح معروفة كمنتج ثقافي، ستهاجم، ويعترض عليها، وقد توصف بأنها مزورة.

أنا لست ممن يستمتع بتنازع العلماء. وأياً كان نوع الرجل المناقش فأنا لا أهتم في هذا الجدال ـ فهناك نقاش سابق حول السماح لهذه الحكاية أن تخرج من هذه الرفوف المتربة التي حُفظت عليها.

" الصدع " – أنا لم أختر هذا العنوان – فقد نُظر إليه في أوقات مختلفة على أنه عنوان تحريضي، ووضع مع وثائق "سرية للغاية ".

فكما قلت التاريخ الذي أرويه يرتكز على وثائق قديمة، ويرتكز أيضاً على مدونات شفهية سابقة. بعض الأحداث التي أُبلغ عنها تجدها غير سائغة، وقد تزعج أناساً بعينهم. اختبرتُ مقاطع مختارة من هذا التاريخ على شقيقتي مارسيلا، وقد أصيبت بالصدمة. فلم تصدق بأن الإناث المحترمات يمكن أن يكن غير لطيفات مع الصبيان الصغار الأعزاء. فشقيقتي مستعدة دائماً لأن تعزو لنفسها مزايا الأنثى الأكثر حساسية – وهي ميزة عامة على ما أعتقد. لكن كما أذكر، أي شخص راقب صراخها، وهي فاقدة لصوابها، والدم يجري في الحَلَبَة[1] يصعب عليه الاقتناع بالحساسية الزائدة للإناث. فالأناس الذين لا يريدون الإساءة لأحاسيسهم، يمكنهم أن يبدؤوا قراءة القصة اعتباراً من الصفحة 24.

فما سأقدمه هنا، ليس هو أقدم جزء في التاريخ الذي عندنا. لكنه غني بالمعلومات، ولهذا السبب وضعته أولاً.

أجل، أعرف بأنك تقول هذا دائماً، لكن الشيء الذي لا تفهمه، هو أن ما أقوله الآن لا يمكن أن يكون صحيحاً لأنني أخبرك عنه بحسب ما أشاهده الآن، لكنه كان مختلفاً برمته وقتها. حتى الكلمات التي استخدمها هي جديدة، ولا أعرف من أين جئت بها، ويبدو أن معظم الكلمات التي نتلفظ بها هي من هذا الكلام الجديد. أقول أنا، وأقولها ثانية أنا، أنا من أقوم بهذا وأنا من أفكر به، لكن وقتها لم نقل أنا، بل نحن نفكر بأننا نحن.

أقول فكروا، لكن هل فكرنا؟ ربما بدأ نمط جديد من التفكير كأي شيء آخر حينما بدأت تتوالد الوحوش. المعذرة، أنتم من يقول الحقيقة، وأنتم تريدون الحقيقة، هكذا رأيناكم جميعاً في البداية. وحوشاً. وحوشاً مشوهة، غريبة كسيحة.

---

[1] الحلبة : الجزء الأوسط من مدرج روماني خاص بالمتصارعين – المترجم

متى كان هذا؟ لا أعرف. كان هذا منذ زمن بعيد، هذا كل ما أعرفه.

الكهوف قديمة. شاهدتموها. فهي كهوف قديمة. عالية في الصخور، أعلى من كل الأمواج، حتى الأمواج الكبيرة، وحتى الأكبر. في البحار العاصفة يمكن أن تقف على الجروف، وتنظر وتفكر بأن الماء هو كل شيء، وفي كل مكان، لكن بعدئذ تتوقف العاصفة، وينحسر البحر إلى مكانه. نحن لا نخشى البحر. نحن شعوب البحر والبحر أوجدنا. كهوفنا دافئة وأرضها رملية جافة، والنيران خارج كل كهف تلتهم أعشاب البحر، والطحالب الجافة، والخشب من الجروف، وهذه النيران لا تخمد أبداً. ولم تخمد منذ أن كانت عندنا لأول مرة. فقد مر زمن لم تكن فيه النار موجودة.هذا في مدوناتنا. فقصتنا معروفة. وقد أبلغت للأطفال الجدد وعليهم التأكد بأنهم يتذكرون كل كلمة فيها، كما أبلغت لهم.

ما أقوله الآن ليس جزءاً من هذا النوع من التدوين. فحينما نقلت القصة إلى الصغار – كان لها اسم، يطلق عليه الذكريات– وانتشرت بادئ الأمر فيما بيننا، سيقول أحدنا، "لا، هي ليست كذلك"، أو يقول آخر، "نعم، كانت بهذا الشكل، "وفي الوقت الذي يقبل بها الجميع، يمكن أن نتأكد بأنه لا يوجد في القصة ما هو غير صحيح.

أتريدون أن تعرفوا شيئاً عني؟ إذا، حسناً. اسمي "ميري". ستجدون دائماً شخصاً اسمه "ميري". ولدتُ في عائلة تعمل في رقابة الصدوع، كما هو حال أمي وحال أمها – هذه الكلمات جديدة. فلو ولدت كل واحدة، سيكبر هذا المولود بالعجل، وتصبح كل منا أماً، ولا حاجة لأن تقول أمي. فعائلة رقباء الصدوع هي العائلة الأكثر أهمية. علينا أن نرقب الصدع. حينما يصبح القمر في حجمه الأكبر ونوره الأشد نصعد إلى الأعلى فوق **الصدع** حيث تنمو هناك الأزهار الحمراء، نقطفها، لهذا تجد مزيداً من اللون الأحمر، وندع الماء يتدفق من الينبوع هناك، ويدفع الماء الزهور في الصدع، من الأعلى إلى الأسفل، وكلنا عندنا مجرى لدمائنا.

هذا كل شيء عن كل هؤلاء الذين لن يلدوا. حسناً، فكر بالطريقة التي تناسبك، فأشعة القمر تجعل الدم يتدفق، ولا يجعل الأحمر ينساب في الصدع. لكن نعرف أننا إذا لم نقطف الأزهار الحمراء – فهي صغيرة وطرية تشبه البثور على الطحالب، وإن سحقتها ستنزف حمرة – إذا لم نفعل ذلك، فلن يكون لدينا دورة طمث•.

الصدع هو تلك الصخرة هناك، وهي ليست مدخلاً للكهف، وهي غير ظاهرة للعيان، وأهم شيء في حياتنا. كانت هكذا دوماً. نحن الصدع، والصدع هو نحن، وكنا نتأكد دائماً بأنه لا يزال خالياً من الشتول التي تتحول إلى أشجار، وخالياً من الأدغال. إنه اجتثاث نظيف بين الصخرة، وتحته تجد ثقباً عميقاً. وحينما تلامس الشمس قمة ذلك الجبل في كل عام، يصبح الجو بارداً، ونقتل واحداً منا، ونلقي بالجثة في الثقب من قمة الصدع. تقول إنك عددت العظام، لكنني لم أشاهد كيف عددتها، وقد تحولت بعض العظام إلى غبار اليوم. وتقول إذا رُميت الجثة والعظام في كل عام، فليس من الصعب حساب الزمن الذي ينفذ فيه هذا العمل. حسناً ، إذا كنت ما تفكر به هو مهم.....

لا ، لا أستطيع القول كيف بدأ. وهذا ليس في قصتنا.

النساء من كبار السن لا بد أن يعرفن شيئاً.

لم نطلق عليهم تلك التسمية قبل أن تتوالد الوحوش. لماذا؟ كان لدينا إناث فقط، أليس كذلك، صدوع فقط، أما بالنسبة لكبيرات السن، فلا نعتقد أنها كذلك. فالناس يولودون ويعيشون لبعض الوقت، إن لم يغرقوا وهم يسبحون، أو يتعرضوا لحادث أو يتم اختيارهم ليرمى بهم في الصدع. وحينما كانوا قد وضعوا على الصخرة القاتلة.

كلا، لا أعرف كم كان عددنا حينها، وأياً كان عددنا. كانت هناك هذه الكهوف، بعدد أصابع اليدين والرجلين، كانت كبيرة وتعيدنا بطريق طويلة إلى الجروف. وكل كهف فيه نفس النوعية من

• الجريان : قد تكون الكلمة هنا كناية عن الحيض (الطمث) عند النساء

الناس، عائلة من رقباء الصدع، صيادو السمك، وصناع الشباك، مقددوا جلد السمك، وجامعو الطحالب. هذا ما أُطلق علينا. اسمي كان رقيب الصدوع. كلا، ما المشكلة إذا حمل العديد من الناس الاسم ذاته؟ يمكن أن تعرف الشخص بالنظر إليه، أليس كذلك؟

واسمي "ميري" هو إحدى الكلمات الجديدة.

نحن لم نفكر بمثل ذلك، لا، لم نفكر، فكل شخص لا بد أن يحمل اسماً منفصلاً عن الأسماء الأخرى. أفكر أحياناً بأننا عشنا في نوع من الحلم، من النوم، فكل شيء بطيء وسهل، لا شيء يحدث سوى القمر لأنه متلألئ وكبير والأزهار الحمراء تغسل الصدع.

طبعاً، ولدت الصغار. ولدوا فقط، هذا كل شيء، ولم يحرك أحد ساكناً في خلقهم. أعتقد بأننا كنا نفكر بأن القمر خلقهم، أو السمكة الكبيرة، لكن يصعب أن نتذكر ما كنا نعتقد به، فقد كان حلماً. والكيفية التي فكرنا بها لم تكن جزءاً من قصتنا، فقط ما حدث.

قد تغضب حينما أطلق عليهم اسم وحوش، لكن فقط انظر إلى نفسك. انظر إلى نفسك – وانظر إلي. تابع، انظر. فأنا لا ارتدي حزام الزهرة الحمراء ومنه يمكن أن تشاهد كيف أنا. الآن انظر إلى الصدع، تشبهنا تماماً، الصدع والصدوع. فلا عجب أنكم تغطون أنفسكم هناك، أما نحن لا يتوجب علينا ذلك. نحن سعداء بالنظر إليه، كإحدى هذه الأصداف التي يمكن أن نلتقطها من صخرة بعد العاصفة. جميل – لقد علمتنا هذه الكلمة وأحببتُ أن استخدمها. أنا جميلة، تماماً كما الصدع بزهراته الحمراء الجميلة.لكنكم جميعاً **أورام**[1] **وكتل** وشيء يشبه الأنبوب ويشبه أحياناً نافور البحر•. أتستغرب أنه حينما وُلد الصبيان الأوائل من أمثالك وضعوا طعاماً للنسور؟

---

(1) أورام وكتل وانبوب : أشياء مرتبطة بالذكور - المترجم

• نافور البحر : حيوان بحري له فتحتان واحدة للشهيق والأخرى للزفير ، وهذه كناية عن الرجال - المترجم

اعتدنا دائماً على أن نلقي الصغار المشوهين هناك، على تلك الصخرة، الصخرة المنحدرة خلف الصدع نفسه.من إحدى جوانب الصدع ارتفعت الصخرة القاتلة، أجل، هذا ما كنا نسميها. لم نحتفظ بالصغار المصابين، ولم نحتفظ بالتوائم أيضاً. وكنا حريصين على الحد من أعدادنا لأنها كانت الطريقة الأفضل. لماذا هذه الطريقة؟ لأنها كانت هكذا دائماً، ولم نفكر بتغيير الأشياء مطلقاً. فليس لدينا الكثير من الولادات، فربما كانت هناك حالة أو حالتان في الكهف الواحد خلال فترة طويلة، وأحياناً يخلو الكهف من أي مولود. طبعاً نُسعد بقدوم الرضيع، لكن لو أبقينا كل الصغار، سيضيق بنا المكان. أجل، أعرف أنك ستقول علينا أن نبحث عن شاطئ فيه متسع كبير، لكن نحن لا نتزحزح من هنا، وكيف لنا أن نترك الصدع؟ فهذا مكاننا، وهو لنا دائماً.

حينما نلقي بصغارنا المشوهين تأتي النسور لأجلهم. فنحن لا نقتل الصغار، بل تقتلهم النسور. فالنسر يستمر بالمراقبة على تلك القمة - أتستطيع مشاهدته؟ فتلك النقطة الصغيرة هناك، هو نسر كبير عملاق بحجم شخص. فقد ألقينا بكل الوحوش المولودة حديثاً، وراقبنا النسور وهي تحملهما إلى أعشاشها. مضى ذلك الوقت،ونعتقد أنه مضى، لأن كبيرات السن (هكذا أسميتهم) انزعجن لعدم وجود ما يكفي من الكهوف، أعداد كبيرة من الوحوش تتوالد ،وهي تفوق عدد الصغار من أمثالنا، نحن الإناث.

ذكور، إناث، كلمات جديدة، أناس جدد.

ومضى الوقت، وبدلاً من انتظار الولادة بالبهجة، كنا خائفين، وحينما شاهدت إحدانا بأن الوليد كان وحشاً، خجلت وكرهتها الأخريات. طبعاً لم يكرهنها إلى الأبد، لكن كانت شيئاً مخيفاً، اللحظة التي ظهر فيها الوحش لحظة الولادة. فقد كان قليل منا يصطاد السمك ويجمع طعاماً بحرياً. اشتكت كبيرات السن لأنهن لم يحصلن على ما يكفيهن من الطعام. أجل، كنا نطعمهن دائماً ونقدم لهن ألذ

القطع ليأكلنها. لا أعرف السبب، فقط فعلنا هذا. وفجأة كان هناك نصف العدد في كهف صيادي السمك، وبعض الآخرين من هم ليسوا من صيادي السمك بل عليهم أن يصبحوا صيادين.

أوافق، أنه شيء غريب بأننا لم نفكر أبداً بالاستفهام عما يحدث على الجانب الآخر من تلال النسور. تتحدثون دائماً كما لو أننا أغبياء، لكن لو كنا بمثل هذا الغباء كيف لنا أن نعيش لفترة طويلة، بسلامة وبصحة جيدة، لفترة أطول بكثير من فترتكم، أنتم الوحوش. ترجع قصتنا إلى عهود غابرة، أنتم من أخبرنا بهذا، لكن قصتكم أقصر بكثير. لكن لماذا طفنا وبحثنا عن أشياء جديدة، **أو** تساءلنا عن النسور؟ ما السبب؟ لدينا كل ما نريده في هذا الجزء من الجزيرة – فقد قلتم كلمتكم عنها، إنها جزيرة كبيرة. حسناً، مرحى لكم، لكن ما الشيء الذي ينقصنا؟ نحن نعيش في جزء من الجزيرة نرقب الشمس وهي تسقط في البحر في كل مساء، ونرقب القمر وهو يخبو مع مجيء النهار.

بعد ولادة الوحش الأول بوقت طويل، شاهدنا أحد الوحوش على ذلك الجزء من شاطئ البحر القريب من تلال النسور. واحد منكم ربط خصره بإحدى الملابس المصنوعة من جلد السمك التي نلبسها زمن الزهرة الحمراء. ويمكن أن نشاهد تحت الجلد شيئاً بارزاً متورماً وكنا نعتقد بأنه قبيح جداً. كان هذا هو الوحش الذي ولدناه وربيناه. كيف حدث هذا؟ قالت كبيرات السن علينا أن نتربص بذلك الوحش ونقتله في المرة القادمة إن ظهر على الشاطئ. ثم وقع خلاف بين كبيرات السن، وقالت بعضهن علينا أن نصعد إلى التلال التي تعيش عليها النسور ونلقي وحشاً ليموت، ونرقب لنرى إلى أين ستأخذه النسور. نفذ بعضنا هذا. كن خائفات جداً، هذا في القصة التي أعدت لتعليم الصغار. لم نعتد على التجوال ولم نصل بكل تأكيد إلى تلال النسور. فلم يزرها أحد من قبل. أجل، أعرف أنها ليست أكثر من سير مريح.

شاهدن النسر يحمل الوحش بمخالبه فوق التلال حيث توجد الأعشاش، لكن بدلاً من أن يسقط الوليد في العش، مضى النسر ونزل به

إلى الوادي حيث توجد الأكواخ. لم نشاهد كوخاً من قبل أو أي ملجأ لأننا كنا دائماً في كهوفنا. بدت الأكواخ وكأنها نوع من الحيوانات الغريبة، وكادت تخيفنا وترجعنا إلى البيت. أنزل النسر الرضيع، وأخذته بعض الوحوش، وأعطت النسر كتلة كبيرة من الطعام. نعرف الآن أنه سمكة. أُخذ الصغير إلى الكوخ. كل ما شاهدنه أخاف الرقباء، وهرعن إلى البيت وأخبرن كبيرات السن عما شاهدنه. كانت قصة مخيفة ومرعبة. عاشت الوحوش على تلال النسور، أناس ناضجون، وليسوا صدوعا مثلنا. كانوا قادرين على العيش برغم تشوههم وقبحهم. هذا ما كنا نفكر به وقتها. كل منا كان خائفاً، ومصدوماً، لا يعرف بماذا يفكر أو ماذا يفعل.

ولد بعد ذلك وحش آخر، وطلبت كبيرات السن أن نلقي به في البحر من فوق ذلك الجرف. أخذت مجموعة منا الوليد إلى قمة الجرف. لم يردن قتله، فهن يعرفن أنه سيكبر ويعيش، وإن قذف في الأمواج فإنها ستقتله. نحن نسبح ونعوم جميعاً ونسعد في البحر، لكن صغارنا يجب أن يتعلموا. كانوا يبكون وينتحبون، وكان الوليد يصرخ، لأنهم ابتعدوا عن كبيرات السن ولم يعد بإمكانهم أن يسمعونهم، واختلفوا حول الشيء الذي يفعلونه. فقد كرهوا الوحوش، وهم الآن خائفون أيضاً، منذ أن عرفوا الوحوش التي تعيش على التلال.... انظروا، طلبتم مني أن أخبركم ما الذي حدث، فلماذا تغضبون حين أخبركم؟ كيف ستعرفون إذا أنجب بعضنا نحن الشقوق في مجتمعكم، وقد تفكرون بأننا كنا وحوشاً لأننا نختلف عنهم. أجل، أعرف بأنكم لا تستطيعون الإنجاب، وهذا يقتصر علينا نحن الصدوع، وأنتم تحتقروننا، أجل، لكن لن يكون هناك وحوش بدوننا، لن تجد وحشاً واحداً. هل فكرتم بهذا؟ كل الناس من صنعنا نحن الصدوع، صدوعاً ووحوشاً. فإذا لم يكن هناك صدوع ماذا سيحدث – هل فكرتم بهذا؟

وقفوا على الجرف ومعهم الوحش الصغير، وحينما ظهر أحد النسور الكبيرة يطوف محلقاً فوقهم، صرخ فيهم، أخافهم حقاً. فالنسور كبيرة

جداً لدرجة يستطيع كل منها حمل شخص بالغ - ليس لمسافة بعيدة، لكنها تستطيع أن ترفع أحدنا إلى الجرف، ربما يستطيع أحدها أن يمسك الصغير ويحلق به ويرميه في البحر. أو تستطيع هذه الأجنحة الكبيرة أن تقذف الصغار الواحد تلو الأخر على الأمواج التي ترتطم وتقفز على الصخور الحادة، لكن ما حدث لم يكن هذا. انخفض النسر في تحليقه وأخذ الصغير بمخالبه وانطلق راجعاً إلى تلال النسور.

لا تعرف الصدوع ما ستفعلنه، وخفن أن يخبرن كبيرات السن بما حدث. فلا أتذكر أن أحدنا تحدث عن خوفه قبل ذلك.

ثم بدأ شيء جديد، حينما ولد وحش، تظاهرت الشابات بأنهن سترمين به في الأمواج، لكنهن ذهبن بعيداً بحيث يختفين عن الأنظار، وعرفن بأن بكاء الصغير يمكن أن يأتي بالنسر. ثم وضعن الصغير على الجرف وراقبن النسر حتى انقض عليه وأخذه. وقتها ولد من الوحوش بقدر ما ولد من الصدوع، فمنها ما تشبهنا ومنها ما تشبهكم.

فهل فكرتم يوماً كم هو غريب أن يكون لكم حلمتان بهذه الأماكن المستوية في صدركم؟ لا يمكن أن تسموها أثداء، أليس كذلك؟ لم لكم هاتان الحلمتان مع أنهما لا تصلحان لأي شيء؟ فأنتم لا تستطيعون أن ترضعوا صغيراً منهما، فلا فائدة منهما.

أجل، أنا متأكد بأنكم فكرتم بهذا، لأنكم تشاهدون الأشياء دائماً وتستفهمون عنها. حسناً، ما هو ردكم إذاً؟

ثانياً، قالت واحدة من كبيرات السن علينا أن نحتفظ بأحد الوحوش، بواحد منها، ونتركه حتى يكبر لنشاهد إن كان يصلح لأي شيء.

لم يكن هذا سهلاً لأننا تحت رقابة النسور طيلة الوقت، وعلينا أن نبعد الوحش الصغير عن أنظارهم.

لا أريد أن أفكر حقيقة بما حدث لذلك الصغير. فكل ما سمعته أنه جزء من القصة التي تناقلها الرواة مرات كثيرة، وما أخبرك عنه الآن هو بعض ما نسميه القصة.

كان هناك شعور سيء عن ذلك الجزء من قصتنا. فهناك خلافات وشجارات سيئة. لم يكن في القصة هذا النوع من الشجار من قبل. لم ترد بعض كبيرات السن أن يخبرن عن أول مولود من الوحوش وكيف تمت معاملته. وقال آخرون ما الفائدة من القصة إذا تركت أجزاء منها؟ وأعتقد أنه تُرك كثير منها. فما نعرفه جميعاً أنه ما من أحد يريد أن يطعم الوحش، فهو لم يطعم ما فيه الكفاية، وكان جائعاً ويبكي دائماً. هذا يعني بأن النسور كانت تحوم دائماً في المكان تحاول مشاهدة المكان الذي أودعنا فيه الصغير. قُدّم له الطعام ، لكن من يطعمه كان يضايقه ويعذبه في إطعامه. فهو أول وحش صغير أمضى وقتاً سيئاً.

ثم قالت إحدى الإناث يجب أن يتوقف هذا ، إما أن نقرر عيشه والاعتناء به أو لا ، لكن ما يجري الآن من شأنه أن يقتل الصغير. ماذا فعلنا به؟ فالشيء الذي تملكونه جميعاً في مقدمتكم من كتل وأنبوب[1] أرادت كل واحدة أن تلعب به. صرخ الوحش الصغير، وصرخ، وانتفخت الكتل عنده ومرضت وامتلأت بالبول والماء ذي الرائحة الكريهة، ثم قالت إحدى كبيرات السن بأن الوحوش تشبهنا ، باستثناء الشيء الذي أمامكم، وصدوركم المستوية. فالوحش يشبه أحد صغارنا. اقطعوا الشيء الذي أمامكم وانظروا ما سيحدث – حسناً، قطعوه وتوفي على أثرها. كان يصرخ وينوح طيلة الوقت، وحينما ولد وحش آخر وتم الاحتفاظ به، ومعاملته بشكل أفضل، لكنني لا أريد أن أخبركم بكل شيء عن الكيفية التي تعاملوا فيها مع الوحوش الصغيرة. وأعتقد أن بعضنا أصبح خجلاً من هذا. فنحن لسنا مخلوقات شريرة. وليس هناك أية مدونة تتحدث عن أي منا قام بأشياء شريرة – إلى أن ولدت الوحوش. فالوحش الذي كنا نحاول تربيته تاه خارج الكهف الذي حفظ فيه، وانقض عليه النسر المراقب وأخذه حالاً إلى قمة التل إلى النسور الأخرى. كيف عاشت هذه الصغار، ليس لدينا فكرة.

---

(1) كتل وأنبوب : إشارة إلى الأعضاء التناسلية للذكور.

الوحوش التي ولدت على عجل كانت قليلة، وأرادت بعض كبيرات السن الاحتفاظ بوحش آخر لكي يلعبن معه، وقد رفض بعضهن هذا. لكن تمضي القصة بأن يُلقى بعض الصغار على الصخرة القاتلة في الوقت ذاته، وبدلاً من وجود نسر واحد، أو اثنين، جاء من النسور بقدر ما كان هناك من الوحوش الصغيرة، وكنا نرقب الصغار وهي تُحمل ويُصعد بها إلى التلال. كيف عاشت هذه الصغار؟ فالصغار بحاجة إلى حليب. وهناك حكاية تقول بأن إحدى صدوعنا الشابة أسفت للصغار الجائعين، وصعدت بنفسها إلى التلال ووجدت الصغار الجدد يزحفون ويبكون، وأطعمتهم بقدر ما تستطيع. فهناك دائماً حليب في صدورنا. وصدورنا مفيدة. ليست كصدوركم.

ومكثت هناك مع الوحوش، لكن لا أحد يدري ما حدث حقيقة. فنحن نريد أن نصدقها، لأننا كما أعتقد خجلون من بقية القصة، لكن هناك سؤال، كيف عاشت هذه الصغار في غياب إطعامهم.

هناك حكاية تقول بأن اثنتين منا جلستا قرب البحر، ترقبان الأمواج، ونزلتا أحيانا إلىً البحر بقصد السباحة، ثم شاهدتا سمكتين من نوع يسمى سمك الصدر، لأن شكله يدل على ذلك. هلام منتفخ كبير، له أنابيب بارزة، كما الوحوش، وقد غرز أحدهم أنبوبه في الآخر، وكان هناك بيض صغير مبعثر في الماء.

حدث هذا حينما خطرت على بالنا الفكرة لأول مرة، بان أنابيب الوحوش كانت لصنع البيض، وإذا كان الأمر كذلك، لماذا ولأي سبب؟

هذه الحكاية، على ما أعتقد من وحي الخيال، لكن كما أعتقد حدث شيء من هذا القبيل.

بدأت كبيرات السن يتحدثن عنه، لأننا نحن من أخبرهن به. بـ (نحن) أقصد الشابات اللواتي وجدن شيئاً مثيراً في هذه الأنابيب وهذا البيض. بعض اليافعات صعدن التل، وما إن شاهدتهم الوحوش حتى أمسكوا بهن وأدخلوا أنابيبهم بهن، بهذه الطريقة أصبحنا ذكوراً وإناثاً، وتعلمنا أن نقول أنا ونحن – لكن بعد هذا كان هناك قصص عديدة،

وليس قصة واحدة. أجل، وأعرف بأن ما أخبرك به لن يضيف شيئاً، لكن قلت لك إن هناك قصصاً كثيرة، لكن من يعرف أي منها الصحيحة؟ وبعد هذا بوقت قصير نحن " الصدوع " فقدنا القدرة على الإنجاب بدونها، أعني بدون الوحوش.

***

هذا التفسير الذي جاءت به "ميري" تأخر عن المستند الذي بحوزتنا. تأخر كثيراً - عصوراً. كلمة عصور لا يمكن الاعتماد عليها : تعني عدم وجود معرفة حقيقية. هي حكاية رقيقة، أبلغت مرات كثيرة وحتى الندم على القسوة وظف فيها بشكل جيد. لا، إنها حقيقية، ومفيدة بالقدر الذي تمضي فيه، لكن أهمل الكثير فيها. وهذا في الوثيقة الأولى، أو في الجزء الأول الذي قد يكون المحاولة الأولى في " القصة ". إنه المادة الأولية الناقصة، التي أخبرها شخص في حالة صدمة. قبل ولادة " الوحوش " الأولى، لم يحدث شيء - ولا في كل العصور – لهذا المجتمع البشري الأول. فقد نُظر إلى الوحش الأول على أنه ولادة خاطئة غير موفقة. لكن جاء بعد ذلك الثاني والثالث.... وأدركن بعد ذلك بأن الولادة ستستمر ولن تتوقف. وكانت العجائز في حالة من الرعب والاهتياج والصراخ يعاقبن الشابات اللواتي جئن بالوحوش وقمن برعايتها – حسناً، ما جاءت به "ميري" من تفسير لن يقدم لنا قراءة مبهجة، لكنني لا أستطيع أن أقدم نفسي لإعادة إنتاج هذا الجزء الآخر هنا. فهو غير مبهج أيضاً. أنا وحش ولا أستطيع تمييز إحساس الأطفال الذين عذبوا الصبيان الصغار الأوائل منذ زمن بعيد. فالقسوة التي جاءت بها العجائز تتراجع الآن. وقد ولّى أيضاً زمن رمي المولود الجديد ليلقى حتفه، ومن ثم الإبقاء على القليل منهم وتمزيقهم - حسناً، استمر لزمن أطول من التفسير الذي أشرت إليه آنفاً. استمر لزمن أطول بكثير.

شيء يشبه الحرب تنامى بين النسور والإناث الأوائل، اللواتي لم يستطعن كسبها. فهن ليس فقط لم يعتدن على القتال أو على العدوان، بل لم يعتدن أيضاً على النشاط الجسدي. كن يتمددن على صخورهن

ويسبحن. تلك هي الحياة التي أمضينها لعصور طويلة. وهنا ظهرت فجأة هذه الطيور الغاضبة العملاقة التي راقبت كل حركة يقمن بها، وحاولوا انتزاع الوحوش منهن بمجرد ولادتهم. وقد قتل بعض الإناث الشابات لملازمتهن الوحوش – كُنسن إلى البحر ومنعن بعدها من الصعود لأن النسور كانت تحوم فوقهن وتدفعهن إلى الأسفل حتى يغرقن. هذه الحرب لم تدم طويلاً لكنها أوجدت أول عدو للإناث. فقد كرهن النسور، وحاولن لبعض الوقت إيذاءها بقذفها بالحجارة، أو ضربها بالعصا. وليس نتيجة الخوف وحده، ولكن بدأت الأشكال الأولية من الهجوم والدفاع في هذا المجتمع النائم (الكلمة التي قالتها "ميري") من البشر الأوائل والإناث الأوائل. وكان هذا كافياً بحد ذاته لخلع العجائز، اللواتي حكمنهن بلا عدل. وخفن منهن كما يخفن من النسور، وتجمعت الشابات وهددن بإيذاء الكبيرات. بعد هذا كله هن اللواتي ولدن الوحوش، وعليهن إطعامها، إن قررن الإبقاء على هذا أو ذاك، أو قررن التخلص منها جميعاً. فهن من أنيط بهن هذه المهمة المقيتة. تمددت العجائز على الصخور يصرخن أو يشتكين، ويتأففن من أي شيء ومن كل شيء.

لم يوقظ مجيء الوحوش الإناث الأوائل من حلمهن الطويل فحسب، بل قضى عليه تقريباً. فعليهن التوقف عن قتال بعضهن بعضاً، لأنه لم تكره كل أم شابة الوحوش لدرجة تصفيتهم. فهناك خضخضة وتمرغ وثورة عواطف، جاءت نوعاً من الحرب الأهلية.

أشعر وأنا أكتب هذا بشيء من هذه العواطف التي نسيها الزمن. وأرى بأن "ميري" في تفسيرها هذا تقول " نحن " و" أنا " تضع نفسها مع الصدوع الأوائل، تماماً كما وضعت نفسي مع الذكور الأوائل. فقراءة الجزء الذي يحكي قصة الوحوش الصغيرة شيء يبعث على المرض. وأن تقرأ الآن كيف أمرت كبيرات السن الشابات بقطع " أنابيب وكتل " الصغار الذين قتلوا، وكيف هللن لذلك – شيء يبعث على الألم حتى الآن. سأستثنيك، فلن أعيد إنتاج هذا الجزء. بعد هذا كله، قررت الإناث عدم إدخاله في قصتهن الرسمية، القصة التي نقلنها لرواتهم. لماذا إذاً عندنا هذا

الجزء؟ نستنتج من هذا وجود رأي أقلية، لا يصادق على الحقيقة لأنها خفيّة – الحقيقة الممرضة والمقرفة. شخص ما أو مجموعة أشخاص حفظوا هذا الجزء، وشخص ما أو العديد من الأشخاص لقنوا هذه الكلمات للراوي. مر زمن طويل ولا تزال هذه الحكاية الصغيرة الممرضة عن اسمنا تُنقل في تاريخنا الشفهي، "من الفم إلى الأذن"، وتنقل من جيل إلى جيل، ولم تدخل في القصة الرئيسية. وماذا بعد؟

بعد ذلك ظهرت فكرة تدوين كل القصص المحفوظة شفهياً بلغة قديمة فكت رموزها في وقت متأخر. وكتب الملحق الضار المشاغب للقصة الرسمية دائماً بشكل منفصل، ولهذا السبب كان المحللون الأوائل يعتقدون بأنها قصص مخادعة، شيء كتبه الرجال بقصد الإساءة إلى الجنس الأنثوي برمته. لكن هناك شيء دام ونازف جداً بشأن تفسير القسوة التي لا يمكن أن تكون ملفقة. فهناك تفاصيل لا أعتقد أنه من السهل تلفيقها.

ومن هو هذا المؤرخ؟ فأنا كاتبة وباحثة، ومعروفة باهتمامي بالأشياء غير الاعتيادية، والخارجة عن المألوف. فاسمي في هذا الكتاب هو "ترانزيت". أما اسمي الحقيقي فسأبقيه غامضاً. فهذه الرزمة أو الحزمة من اللفائف التي تحتوي على قصة الصدوع والوحوش لا تزال في الرفوف الخلفية للمكتبات، أو ملقاة على رفوف العلماء منذ زمن طويل. فقد قرأ هذه القصة الكثير من الناس الطيبين وحركت مشاعر كل من قرأها. وهناك نسخ جاءت خصيصاً لمن يشاهد كل شيء على أنه مجرد خلاعة.

فالتاريخ المخزي المحفوظ على رُقم قديمة هو أخطر معلومة تبقى حبيسة الأدراج.

هذا مكان للتوضيح. فكل هذا الحبس، وهذا الهدوء، وهذا الإخفاء للحقيقة حدث حينما اتفق على أن العداوات جميعها قد انتهت وأصبحنا شيئاً واحداً – جنساً واحداً، أو شعباً واحداً. بهذا التاريخ الحزين الذي تزخر به ذاكرتنا، وحفظ الرواة الرسميون جزءاً كبيراً منه، تم الاتفاق على - هذه الصياغة التي تشير دائماً إلى تهدئة الخلاف - وضع

كل ما يُجمع من مادة تحريضية في مكان آمن بحيث لا يستطيع أحد الدخول إليه باستثناء الحُماة المؤتمنين عليه.

أنا واحد منهم كنت وما زلت. وهذا هو الجزء التالي من التوضيح. لماذا أنا في هذا الموضع لأخبرك عن هذه المادة؟ لأنني حفظتها وحرستها ورعيتها لفترة طويلة.

أنا من أسس لوثائقي هنا، تماماً من بداية قصتي. وما سأقدمه قد يكون – يجب أن يكون – تأملياً، لكنه يرتكز بقوة على الحقيقة. فقد صححت في البداية أجزاء كانت حبيسة الأدراج لكي أعطي نكهة للمادة التي سأعمل بها. قد تقول بأن التفسير غير متماسك. لكننا نتكلم عن أحداث خلت منذ زمن بعيد، ويصعب أن نحدد زمانها. وهذا له جانب مثير. إنها مدونة استفهام من أحدنا ـ نحن الذكور(أو الوحوش، إذا استخدمنا النكتة الحالية القائمة) – الأنثى أو الصدع. وهذا كاف بحد ذاته ليجعل أحدنا يتوقف ويتساءل. والمتسائل بدون شك في موضع القوة، وهذا يضع الحدث في وقت متأخر من تاريخنا الطويل. لكنه حُفظ بالطرق التي تستخدمها الإناث، باستظهار التاريخ، وتفسير ما حفظ في ذكريات الراوي، ونُقل إلى الأجيال اللاحقة من الرواة. لهذا نحن نتحدث عن أحداث قديمة جداً، حينما ننظر إلى ما حُفظ مؤخراً، لكنها تبقى حكاية قديمة جداً، فيها القليل مما نعلمه لأطفالنا على أنه حقيقة التي تقول بأننا نحن الذكور كنا الأوائل في القصة، وجئنا بالإناث بطريقة نوعية. فنحن الأقدم، وهنّ من خلْقِنا. شيء مثير حقاً حينما تنظر إلى البنية التشريحية للذكور والإناث. فكيف يوضحون لنا في قصتنا الرسمية بأن الذكور ليس لديهم جهاز للولادة والتغذية؟ فهذا لم يوضح لنا. لدينا خرافات جذابة وغامضة، ابتدعت في نفس الوقت الذي حدث فيه الحبس العظيم للوثائق – وما يخيفني أنها مدمرة أحياناً.

لكنك لا تستطيع أن تدمر ما حُفظ في أذهان الناس. فالأسلوب الذي استخدمته الإناث، من تكرار حذر، كلمة، كلمة، وتسليمه فيما بعد إلى الجيل التالي، وكل كلمة قورنت ودققت بأسلوب الخطوط المتوازية

للرواة، هي طريقة حفظ فاعلة للتاريخ. لطالما استمرت عملية التدقيق والمقارنة. ستفاجأ بكتلة المادة التي عندنا - أنا اسميهم ساخراً بالسجون. أجل، أخشى أن تكون هي نكتة الحقيقة المحرمة التي استخدمها سجانونا الرسميون. فقد جاء معظمها من الرواة الإناث، مع أنها جاءت أيضاً حينما بدأنا باستخدام العملية ذاتها من رواتنا. مع ذلك، أخذوا رسمياً العملية منا. شيء مضحك. من السخافة المطلقة لنسختنا الرسمية التي أصبحت عبئاً علينا، نحن المؤرخين.

ما من أحد أخذ على عاتقه مهمة دراسة المادة كمدونة حقيقية، ومن ثم حاول أن يوجد لنا تاريخاً متماسكاً. فالخرافات والأساطير هي من وظيفة الإغريق وربما قدّمت لنا كأسطورة، لكن لم يضطلع أي إغريقي بهذه المهمة. ربما لأنها ليست أسطورة، ولكنها نوع من الحقيقة المؤكدة. فتاريخنا لا يوغل كثيراً في القدم، أليس كذلك؟فقد بدأ التاريخ بأسطورة إينياس، ومن لهيب طروادة المحترقة الذي أنار الزمن الغابر لنا، تماماً كما فعل الإغريق ".

وربما كان هناك شعور بأن تفسير بداياتنا الذي جعل الإناث أولاً وأسس دعامة لهذا شيء غير مقبول. في روما الآن يصر المسيحيون على أن ولادة أول أنثى كانت من جسم الذكر. مادة مشكوك فيها. ابتدع هذا بعض الذكور – عكس الحقيقة تماماً.

فقد وجدتُ من الممتع دائماً بأن تعبد الإناث كالآلهة، بينما بقين في الحياة العادية في الدرجة الثانية وينظر إليهن كتابعات. وربما نزعة الشك لدي جعلتني قادرة على القيام بمهمة إبلاغ الحكاية التي تتحدث عن نشأتنا الحقيقية التي تحتوي كما سنرى على عناصر الأسطورة. فالنسور مثلاً اضطهدت الإناث الأوائل، اللائي أنقذن الذكور الأوائل. حسناً نحن في روما لا يمكننا أن ننتقد النزعة التي تجعل أحد الأوثان من النسور– حتى وإن كانت نسورنا أصغر بكثير من النسور العملاقة للصدوع وللوحوش.

" نحن النسور، النسر، أطفال النسر. النسور حملتنا على أجنحتها، تحملنا على أنفاسها. فهي أجنحة الريح، والنسر العملاق يرقبنا، فهو يعرفنا، هو والدنا، ويكره أعداءنا، ويقاتل الصدوع لأجلنا".

ملاحظة المؤرخين : هذه هي الأغنية الراقصة للرجال الأوائل، يمكن أن تُسمع الآن، منشؤها تمّ نسيانه منذ زمن بعيد، غنوها في أماكن بعيدة. يظل معشر النسور أقوى عشيرة وهم الحكام. وحتى الآن من يقتل نسراً لا بد أن يعاقب : وذات مرة قتلوا على الفور.

إليكم أنشودة الحرب للرجال الأوائل

اقتل الصدوع

اقتلهم، اقتلهم

هم أعداؤنا

اقتلهم جميعاً

على السيراميك كأي شي قديم عندنا توجد صور تظهر تشويهاً للجهاز التناسلي ليس فقط للذكور من قبل الإناث، بل للإناث من قبل الذكور. وهذه ليست جرار وأواني متطورة ترجع إلى عهد له استحقاقاته الفنية، فهي غير متقنة وغير صقيلة. أما وصف التعذيب فقد ظل حبيساً ومعظم الناس لا يعرفون شيئاً عن وجوده. فأحد الحكام من ذوي النظرة المتفائلة أمر بتدمير كل صور التعذيب أو الإغلاق عليها : يعتقد بأننا نحن البشر لن نكون شداداً إذا لم توضع الأفكار في رؤوسنا أولاً. أتساءل من هو. أو ربما كانت هي. منذ زمن بعيد. عثر على كنز من الفخاريات في كهف يعتقد بأنه كان البيت الأول للإنسان البدائي.

وهكذا، سأنتهي من التوضيح وآتي إلى محاولتي في التاريخ : اتفقت مرة الصدوع والوحوش، من ذكور وإناث. أواجه مشكلة فوراً، فقد كتبت هناك " ذكور وإناث ". فالذكور يوضعون دائماً في البداية في

ممارساتنا، هم أولاً في مجتمعنا على الرغم من تأثير بعض السيدات العظيمات في منازل النبلاء. من هنا أشك أن تكون هذه الأفضلية قد جاءت بدعة لاحقة.

***

التـــــاريـــخ

جُمعت من مدونات شفوية قديمة، وكُتبت بعد عهود من جمعها.

تمددن على الصخور ترشهن الموجات كما الفقمات، كما الفقمات المريضة، لأنهن شاحبات والفقمات غالباً ما تكون سوداء. في البداية كنا نعتقد بأنهن فقمات. فقمات مغنية؟ لم نسمع بوجود فقمات تغني، وإن قال بعضهم بأنهم سمعوا بهذا. ثم عرفنا بأنها الصدوع. وكان ثلاثة منا صبياناً. وقد عرفنا كرهنا للصدوع، ولو أننا لا نتذكر أي شيء من أيامنا الأولى، حينما وضعنا على الصخرة القاتلة، أو حينما حملتنا النسور إلى الجبال. فما كنا نشاهده يبعث على الدهشة، بغض النظر عما قيل لنا. الأكثر من هذا أننا شعرنا بالاشمئزاز. هذه الأشياء العملاقة الشاحبة المتدحرجة على الأمواج، بصدوعها المقرفة التي تشاهد لأول مرة، وحينما نظرنا من صدع إحدى هذه المخلوقات المترهلة البطيئة برز شيء صغير بلونه القاني. كان صدعاً صغيراً كما شاهدناه. لم نفكر إلا في وقت لاحق بأنها قد تكون نافورة البحر - واحداً منا. هرعنا راجعين ونحن نمر بالصدع الكبير الذي في الجروف، بشكله المحمر ونشأته المتجعدة. ركضنا وتقيأنا ورجعنا نصعد الجبل ثم نزلنا إلى مكاننا.

هذا هو أقدم وصف لدينا عن مشاهدتنا نحن "الوحوش" لـ "الصدوع". فليس هناك طريقة لإثباته، لكن يمكن القول بأنها ذكرى لشيء جميل في ماضي المتحدث. وتحمل شكل الحكاية اللطيفة المتكررة منذ زمن طويل. ولا يوجد هنا ما يشبه الجزء الملتهب الدامي

(الذي لم أنسخه بسبب قسوة نكهته الحاقدة) الذي سمعناه أولاً من الصدوع.

***

أن تصنع تاريخاً من مادة كهذه، ليس بالأمر السهل، لكن علي أن أقول مبرراً بأن رواة الوحوش والصدوع لا يختلفون كثيراً. هناك اختلاف في الأسلوب فقط، وكان يعتقد أنه في وقت ما تم تدوين الأحداث على اختلافها. لكن بشكل عام عاشت الصدوع والوحوش (أو نوافير البحر) القصة ذاتها. والآن مرة أخرى سأبدأ قصتي.

***

عاشت الصدوع على شاطئ بحر دافئ في جزيرة كبيرة جداً، لكن لم تبتعد كثيراً عن موطنها الشاطئ. جاءت من البحر، فهي مخلوقات بحرية، تأكل السمك والعشب البحري وبعض الفواكه التي تنمو على الشاطئ. استخدمت كهوفاً طويلة بأرضيات رملية، لكن يمكن أن تنام في الخارج على الصخور بنفس السهولة التي تنام فيها تحت أسطح الكهف. كم عاشت هناك؟ ونأتي حالاً على الصعوبة الرئيسية - فهي في الواقع المشكلة الرئيسية للمؤرخ. فالصدوع لا تعرف متى خرجت زاحفة من الأمواج لأول مرة لتستنشق الهواء على الصخور، وكانت غير مبالية. لم تفكر بالتساؤل أو بطرح الأسئلة. واجهت الاستفسار – لكن جاء هذا متأخراً جداً – " كم عمركم، كشعب؟ سؤال عليل وعقيم : " ماذا تقصد؟ " عقولها غير جاهزة للأسئلة، واهتمامها بارد. كانت تعتقد – لكن لم يكن اعتقاداً يدافع عنه أو يقاتل من أجله - بأن السمك جاء بها من القمر. متى كان ذلك؟ نظرات طويلة ومرتبكة وبطيئة. فقست من بيض القمر. فالقمر يضع البيض في البحر، ويفقد جزءاً منه نفسه، لهذا السبب تجده أحيانا كبيراً ومتلألئاً وأحياناً باهتاً وضحلاً. أما فيما يتعلق بمقدرتها على الولادة فهي لم تناقش هذا أبداً. هكذا كانت الأشياء

دائماً. لا شيء تبدل أو يمكن أن يتبدل أو سيتبدل – لكن كان هذا شعوراً أكثر من كونه شيئاً تم تضخيمه أو يمكن أن يضخم، أو حتى يذكر. فقد عاشت في حاضر سرمدي. إلى متى؟ لا فائدة من السؤال. حينما ولد الوحش الأول نظرت إليه على أنه أحد الأطفال المشوهين الذين يولدون أحياناً، ثم تبعه " وحش " آخر وكانا بنفس الشكل المروع والمقلق. وضعا على الصخرة القاتلة، ولم يطعما للسمك، ربما لشعورها الخرافي بأن الوحوش قد تنتشر أو ترجع زاحفة إلى الشاطئ. فهل يمكن أن نستخدم كلمة " خرافة " لتدل على المخلوقات التي لا تعيش بأي نوع من الحقيقة التي نقرها؟

أعتقد أن ولادة الوحوش كان أول شيء سيء ومزعج يحدث لها.

أجل، كان هناك مؤشر عال للماء على جدران كهوفها، ولا بد أن أمواجاً كبيرة جاءت تدك مضاجعها في وقت ما وأكثر من مرة، لكنها كانت مخلوقات مائية. وليس هناك طريقة لمعرفة ما أحست به تجاه الأمواج المتوحشة – فأغنياتها لم تكن تاريخاً أو قصصاً وإنما نوعاً من الحماس، شيء يشبه الرياح حينما تتنهد وتغمغم.

لم يكن الوحش الأول هو الذي أيقظها من أحلامها. ساق أو ذراع ملتوية، ويد مشوهة وحتى المعالم غير الواضحة أو الرأس الممسوخ – هذا الشيء كان محزناً لكنه لم يشكل تهديداً، كما لو أنها شاهدت الوحش الثاني أو الثالث أو الصغار التي جاءت لاحقاً تحمل في مقدمتها قبضة من اللحم الناتئ، حيث اللحم الطري، والشق اللطيف، المحاط بالشعر الناعم. رعب....ومن ثم رعب آخر، وآخر....لم تستطع الانتظار حتى يخرج الصغار المشوَّهون إلى الصخرة القاتلة. هذه الأشياء البارزة والنافرة في مقدمتهم التي تغير شكلها دائماً، هي مروعة وقبيحة، فهناك شيء عنها هو.....

حسناً ، حملتهم النسور وأكلتهم، وغابوا عن العين.

لكن كل شيء تغير. وهو أشبه ما يكون حينما تضرب بعصا إحدى المخلوقات البحرية البليدة المعروفة التي تتلوى وهي تشعر بالعصا.

صدمة بعد صدمة أحس بها هذا المجتمع من المخلوقات الحالمة، و سبب قسوتها كان لديها رعب قاتل.

وحينما أصبح واضحاً بأن الوحوش لن تتوقف عن الظهور، ظهر مثل هذا التهديد الجديد، وبدأت أعداد المجتمع تتناقص دائماً.

وكان هناك خوف من بعض الإناث اللواتي ولدن وحشاً أن يلدن وحشاً آخر. كيف سينظر إليها؟ ليس هناك أية مدونة عن العداوة الأولى بين هذه المخلوقات. هل كانت خائفة؟ هل أخافت نفسها؟ هل الأنثى التي ولدت أكثر من وحش أجهضت نفسها حينما وجدت نفسها ثانية بأنها حامل؟ ليس لدينا أجوبة على هذه الأسئلة.

كم استمر ذلك الزمن المبكر؟

ليس هناك ما يسعفنا به الرواة.

هناك طريقة لا تعتمد على القياس، وإنما الإحساس بطول العملية. فالقبر العميق أو الحفرة التي قدّمت فيها البنات قرباناً كانت تغص بالعظام. وكانت ثقباً عميقاً. في أسفلها تجد الشقوق والفتحات تساقطت فيها الصخور بشكل واضح، ويمكن أن تلمح منها الطبقات السفلى للعظام، القديمة والسليمة كما الطبقات العليا، لكنها متكسرة ومتشظية، وبالنزول قليلاً إلى قاع هذا الثقب العظيم تجد طبقة من مادة ضاربة إلى البياض، غبار العظام. كانت طبقة عميقة. وهذه العظام لا بد أنها استغرقت وقتاً طويلاً حتى أصبحت غباراً، مع أن الرياح والرطوبة المالحة عصفت بالثقوب والفجوات لتسريع العملية.

لا يمكن أن يكون هؤلاء الناس الذين بدوا يعيشون في حلم بأنهم أسوياء في تضحياتهم أو أنهم أسوياء في أي شيء، فالدوافع وتواتر الأحداث نظن أنها تحكم حياتهم. لكن طالما لا توجد طريقة لعد الهياكل العظمية أو تخمين ما تعنيه طبقات الغبار لجهة الزمن، يمكن أن نقول جازمين بأننا نتحدث عن فترة طويلة من الزمن – عن عصور

من هذا اللامتغير، ومن الكينونة، كتلك الأسماك التي تغتسل جيئة وذهاباً في المد البحري، استجابت لتغيرات القمر. ثم جاء التغيير

الحقيقي، التغيير الحاسم، ولادة الصغار المشوهين، نوافير البحر، الوحوش. بداية الانزعاج العاطفي الشديد، والاضطراب والاستياء : بداية الوعي لذاتهم وحياتهم. البداية فقط، كما الاهانة التي يستشعرها سمك الشواطئ في عصا السَّبر.

هناك جزء من هذه الحكاية يجب أن يبقى غامضاً. أجل، المحاولات السابقة لحل اللغز قدمت حلولاً أقرب إلى الأساطير منها إلى الاحتمالات. كيف ظهر مجتمع الذكور؟ لا يمكن أن نعتقد بأن النسور أطعمت الصغار لحماً طازجاً مقيئاً وأدفأتهم في ريشها. كلا، هناك حل وهذا هو.

الأطفال المشوهون الذين وُضعوا على الصخرة القاتلة كانوا طعاماً للنسور – كم استمر هذا؟ وقد وُضعت كذلك الوحوش الأولى. لكن حينها – في الوقت الذي لا نعرفه - حَفظت الصدوع الهاربة الصبيان " كحيوانات مدللة " وأشياء للتسلية. ونعرف بأن الصبيان الصغار في سن الرابعة، وأعمارهم بكل تأكيد بين الخامسة والسادسة والسابعة، يمكن أن يحققوا مفاخر التحمل وحتى القوة. اثنان ثلاثة أربعة من الصبيان الصغار هربوا من الكهوف قرب البحر. لم تستطع النسور حمل الأطفال من ذلك الحجم، ولو إلى مسافات متوسطة، لأنها كانت كبيرة الحجم تفوق حجم النسور التي نعرفها بمرات عديدة. شاهد الأطفال المكان الذي رجعت فيه النسور إلى أعشاشها، خلف الصخرة القاتلة، فوق الوادي، وأعلى الجبل – لحقوا بها. هناك في الأعلى حيث تبني النسور أعشاشها لم يستطع الأطفال اللحاق بها. كم تبدو مرعبة هذه الطيور العملاقة. على الطرف الآخر كان هناك النهر الكبير في أسفل الوادي. تربّى الأطفال على الأسماك، وهنا نأتي إلى الأسماك مرة أخرى وإن كانت أسماكاً مختلفة. كان الأطفال ينعمون بالدفء في الكهوف. لكنهم لا يزالون أطفالاً صغاراً، وقد بدا الوادي الذي وجدوا أنفسهم فيه كبيراً جداً. فكيف لنا ألا نعجب بجرأتهم وذكائهم؟ فهذا النهر كان عريضاً وعميقاً ومتدفقاً، وعليهم أن يصطادوا السمك منه. كيف التجؤوا إليه؟ لم يكن سهلاً في البداية إيجاد أكواخ وسقوف لهم : لم يشاهدوا أي شيء

يشبههم. شاهدوا أعشاش النسور، سحبوا العيدان ومن ثم العيدان الغليظة، وصنعوا منها أكواماً، وزحفوا إليها بحلول الظلام. ثم كبروا واشتد عودهم وبدؤوا يجمعون الأغصان المتساقطة لبناء الملاجئ. وقد وفروا لأنفسهم مناخاً مناسباً أبعد عنهم الخوف من البرد. لكن دعونا ألا ننسى الحيوانات المفترسة التي تعيش على مسافة ما في الغابة على الجانب الآخر من النهر الكبير. كيف هربوا من الحيوانات المفترسة، فهذا من الأعاجيب. فهل كانت الآلهة في عون الأشياء الصغيرة؟ لكن لم يذكر في مدوناتهم شيء من هذا التدخل. أجل، كانوا أطفال النسر، لكن كان ذلك بالقدر الذي تساعدهم فيه السماء.

علينا أن نتذكر أن الصغار الأوائل من الذكور كانوا مشوهين جداً، بطرق أفضّل ألا أستمر في وصفها. نوافير البحر عندهم أسيء استخدامها، سحبت ولعب بها، وقطعت أحياناً أشياؤها المتدلية من أجل لعبة اقتلاع الحجارة، وفوق هذا كله، لم يعرفوا العطف أو الرعاية الأبوية. أطعمتهم أمهاتهم بأوامر كبيرات السن، لكن على مضض ودون أن يسدوا رمقهم. قد نرغب في تلطيف هذه القصة المؤلمة، بإضفاء طابع خيالي على الصدع الذي شعر بالحب تجاه صغيره المشوه، لكن عليه أن يُبطن ما يشعر به، فأية ملاطفات أو رعاية لا بد أن تكون سطحية. كانوا قساة وجريئين وبارعين بصرف الأنظار عنهم. من غير المحتمل أن يبقى الصبيان الصغار الهزيلون على قيد الحياة، وإن كانوا شداداً جبارين، لكنهم على الأقل بعيدون عن معذبيهم من الصدوع.

ثم حدث شيء مثير. جلبت النسور لهم بعض الصغار من الذكور وألقوا بهم على الصخرة القاتلة. كانوا صغاراً يصرخون من الجوع، لكنهم ليسوا مشوهين، وكيف كان حال الأولاد الصغار كي يطعموهم؟

لم تعش الحيوانات البرية الخطيرة لوحدها في الغابة، بل عاشت معها حيوانات صديقة أيضاً. شاهد الأولاد الصغار غزالاً ومعه ظبيات وربما هذا أول درس في الحب الأبوي، مراقبة الظبيات مع ظبيانهن. اقتربوا زاحفين

للمراقبة. وقفت ظبية في مكانها غير خائفة : ليس هناك من سبب حتى الآن لكي يخاف أي حيوان من جنسنا. أضف إلى أنه طفل ومحتاج. وقف الصبي يلاطف فراء الظبية الناعم، بينما كان الظبي ينطح ويلحس ساقيه، ثم بدأت الظبية بالرضاعة، وجثا الصبي وفعل الشيء نفسه. وقفت الظبية، وأدارت رأسها ولحست الطفل، وهكذا بدأت العلاقة الحميمة بين الأطفال والغزال.

فهناك أغنية، "نحن أطفال الغزال"، لكنها لم تفرض بالقوة كما فرضت الأغاني على النسور.

حينما صرخ الصغار الجدد وولولوا، عرف الصبيان الصغار بضرورة إطعامهم، فأي شيء يمكن أن يكون أكثر طبيعية من أن يؤخذ الصغار إلى الظبيات، ويتعلموا حالاً كيف يضطجعون والصغار بجانبهم. وماذا جنت الظبيات من هذا؟ يمكن أن نتأمل هذا. أعتقد بأن الحيوانات فيها من الذكاء أكثر بكثير من شهاداتنا بها. بعد هذا كله، إنها أنثى الذئب التي أرضعت أجدادنا روميولس وريموس. فقد أحببنا تمثالها والصغيرين. وربما بداية هذا الوثاق كان حاجة الصغيرين الماسة، اللذين كانا يصارعان الموت من النقص الذي نجده متوفراً عند الغزال وأنثى الذئب. فالحاجة تحدث الاستجابة.

ولماذا قامت النسور بحفظ الصغار والمجيء بهم إلى الفتيان في أعلى الجبل، بدلاً من التهامهم؟ لسبب واحد، هو أن الصبيان كانوا يصطادون السمك للنسور ويضعونه على العشب، وبما أن الطيور الكبيرة تسلمت عبء الصغار الباكية، فإنها ستراقب السمك، السمك العملاق وتتغذى هناك، وغالباً ما تأتي في فترات تسلم الصغار لوجباتهم. أو أنها تأخذ سمكة أو جزءاً منها – كان هناك سمك عملاق في النهر – إلى الجبل من أجل فراخها.

الموجة الثانية من الوحوش أو نوافير البحر لم تُحرم من أمهاتها، فقد قامت الغزالة اللطيفة بلعقهم وتمريغهم وإطعامهم، ولعبوا أحياناً مع الظبيان كما لو أنهم ظبيان.

الغزالة والصغار المُطْعَمة عليهم الاضطجاع سوية. فلا يوجد وقتها أوعية أو أواني. وإن اُستخدمت أصداف النهر والقرع لتكون أدواتاً لهم. والطحلب الموجود في النهر لم يكن بحجم الطحلب الموجود في البحر، لكن هؤلاء الصبيان كبروا وأصبحوا فتية أقوياء، ولم يكن الشاطئ بعيداً عن الصبيان الجريئين، ولم يكن بعيداً عن شاطئ الصدوع، لكن يشاطئه. ولا يعرف الصبيان لوقت طويل أنهم إذا أبحروا في اتجاه واحد على امتداد شواطئهم – كان لديهم شواطئ، والصدوع وحدها تمتلك صخوراً ملساء دافئة – فإنهم سيواجهون مضطهديهم من الصدوع.

جلب الصبيان مختلف أنواع الطحالب من البحر، والسمك الصدفي، وبعض الأسماك البحرية. أطعموا الصغار الجدد جيداً إلى أن استغنوا عن الحليب. وقدّموا للغزلان الصديقة الطحالب التي أحبتها، وقدموا لها أيضاً لحم السمك وسمك الصدف، لكنها لم تحبه.

لكن كان صَعباً على الصبيان الاستمرار بإطعام الصغار حتى بمساعدة الغزال. فقد كانت النسور تأتي دائماً بالمزيد من الوحوش وهي غير مشوّهة الآن. فالنسور كانت متربعة على الصخور العالية حيث تشاهد منها الصدوع وصخورهم، وحالما يأتي صبي صغير، تنقض عليه وتنقذه وتأتي به إلى الجبل.

بعض النوافير كما نعتقد، لا تزال مختبئة في الكهوف، لكن لا يمكنك الاحتفاظ بسجناء من الصبيان الأقوياء ما لم تربطهم. فقد ربط بعض النوافير لكنهم أصدروا ضجة وصراخاً وعويلاً، لكي تقودهم الطيور الكبيرة حينما يفرون ويهربون، وترتاح منهم الصدوع الكبيرة. فلم يعد هناك صبيان صغار تربى كـ " حيوانات مدللة "، وقد رجعت الصدوع إلى ممارستها السابقة : أي صغير لا تخطفه النسور حينما يخرج من الرحم يوضع على الصخرة القاتلة وتحمله النسور على الفور.

أصبح هناك على الفور مجتمعاً من الذكور اليافعين، ولا نعرف عددهم. فالمؤرخون لم يدخلوا في التوثيق. مر الزمن، وكان أول الواصلين هم الرجال اليافعون الأقوياء، أقلقتهم كل أنواع الأسئلة المتعلقة بأجهزة

الأنابيب والأورام والكتل، أجل، لقد عرفوا الآن بأن الأنبوب لتمرير البول.

لم يتوقع الذكور العيش حتى سن الشيخوخة، ولم يرتبط هذا بوجودهم داخل وخارج ذلك النهر المتدفق الخطير، فقد كانت الحيوانات البرية قريبة منهم تعتلي الأشجار. توفي أحدهم من مرض، أو في حادث، ولم يحدد هذا المؤرخون، ما دوّنوه هو أن الموت أثار لديهم قضية..شاهدوا أنه بمقدورهم أن يتوقعوا الموت، عندها ماذا سيفعلون لاستبدال أنفسهم؟ الصدوع لديها القدرة على الولادة لكنها لم تفعل.

أما النوافير – أحب ذلك المصطلح أكثر من الوحوش : على الأقل هو دقيق – فقد بدأت تقلق على تغذية الصغار الذين جاء بهم النسور. تصور ماذا لو قررت النسور ألا تأتي بالصغار الذكور إلى الجبل؟ ما إن يثار هذا السؤال حتى يبقى بلا جواب. فهناك في شاطئهم تتوالد الصدوع - يتذكرهم بعض الصبيان بشكل جيد. دون الصدوع لن يكون هناك قادمون جدد في مخالب النسور ولن يكون هناك نوافير.

كم استمرت فترة التساؤل والشكوك؟ ليس لدينا فكرة. فأغاني الرجال الأوائل كانت تاريخاً لهذا النوع. فقد غنوا لزمانهم مع الصدوع ودوّنت القسوة جيداً. فهناك أغاني تخبرنا عن هروبهم من الألم والخوف من هذا الوادي الذي كانت فيه النسور أصدقاء لهم، وأعطتهم الغزلان الحليب وكان هناك الأسماك في النهر وفي البحر. لديهم ملاجئ أفضل من أكوام الأعواد السابقة. كانوا شجعاناً وأقوياء وأصحاء وأعدادهم تتزايد....لكن ليس لديهم البراعة في وهب الحياة.

كان أسلافنا من الذكور في العهود الأولى قلقين ومتوحشين، وقد أخذتهم طبيعتهم إلى أماكن بعيدة في الغابات، وبدؤوا يتعرفون على جزء من جزيرتهم، التي كانت كبيرة، مع أنهم ليس لديهم فكرة عنها. وجدوا الغابات الكبيرة، والأنهار العميقة والسريعة وروافدها الجداول الصغيرة، والهضاب المبهجة والشواطئ الهادئة – هذا ما وجده المستكشفون السابقون. تعلموا أساليب الحيوانات البرية وكيف يتجنبونها، ومن ثم كيف يقتلونها كطعام لهم. ولم يقتلوا أصدقاءهم

الغزلان الذين يجمعهم بهم الرقة واللطف، والغذاء. عرفوا بأنهم سيصبحون أفضل حالاً وأفضل غذاءً من النسور الذين لا يغادرون شواطئهم، حينما يتسع فضاء حركتهم.

كانت تعذبهم دائماً متطلبات الذكورة لديهم، لكنهم لم يعرفوا الشيء الذي كانوا يطمحون إليه. فكل الخدع والمكائد لتهدئة جوعهم الجنسي كانت من صنعهم بما فيها استخدام حيوان بعينه – عدا الغزال، فلم تطاوعهم أنفسهم على استخدام مترعي الحليب عندهم، وهم أمهاتهم في الواقع. لكنهم لم يستخدموا كلمتي الأب والأم. فكيف استطاعوا ذلك؟ هم لا يعرفون أنهم كانوا أو يمكن أن يكونوا آباء. وهم ليسوا غزلاناً، وإن أحبوا الغزلان. فهل عرفوا كلمة " حب "، أو فكروا فيها؟ أعتقد لا.

فكروا بالصدوع التي لا تبعد عنهم كثيراً، ولا تختلف في معيشتها بشيء عنهم، فكروا بها بمزيد من الفضول والإلحاح. وما كان الذهاب إليها مستحيلاً لدى الصبيان الصغار أصبح الآن ممكناً. بالنسبة للصدوع المشي إلى تلال النسور كان مستحيلاً لأنهن لم يفكرن بالقيام بهذا أبداً. حيث أن فكرة المشي إلى هناك، والصعود ومشاهدة ما يوجد على الطرف الآخر لم يخطر على بالهن أبداً. ولم يعرفن أن هناك في الطرف الآخر من الجبل وادياً جميلاً تعيش فيه الوحوش. لم يخطر على بالهن هذا التساؤل. فالبعيد عن العين بعيد عن القلب، وهذا خير مثال على ذلك.

غير أنهن أتخمن بالشكوك والمخاوف الآن، تناقصت أعدادهن بسرعة، وأصبحن قلة، والناظم الداخلي الغريزي لديهن شاهد على ذلك. بعض الكهوف نصف ممتلئة، وشوهدت بعد ذلك كهوف فارغة. ولم يشغل سوى كهوف تعد على أصابع اليد، وبدأت تزول الفوارق القديمة بين صيّاد السمك وجامع الطحالب البحرية وغيرهما. صغار الصدوع حُرسوا وزينوا وكانوا عزيزين بينما ولدت النوافير بمزيد من الكراهية، لأنها لو كانت صدوعاً لكان أفضل لها.

استلقت بنتان صغيرتان على صخرة محببة، نصفهما في الأمواج ونصفهما الآخر خارجه، راقبتا مخلوقاً بحرياً أدخل أنبوبا في مخلوق آخر من جنسه، وأرسل غيمة من البيض اللبني. شعرتا بأنهما منحتا إيحاء – ربما من السمكة الكبيرة نفسها – وذهبتا إلى كبيرات السن وأخبرتاهن عما شاهدتاه وما تعتقدان بأنه الآن أقرب إلى الحقيقة.

قوبلت البنتان بنظرة هادئة بطيئة من عيون لا تخيفها الأفكار أبداً، حتى وإن تعلمت القلق، ولا يهم كيف أصرت هذه الصدوع الصغيرة على القول بأن الوحوش قد يكون لها وظيفة، ولا شيء يقنع العجائز، بما يمكن أن يسمعنه.

ولد وحش في وقت لاحق، اختطفته هاتان البنتان من أمه، وأخفينه عن النسور، وتفحصتا الشيء القبيح الذي جعله وحشاً. شاهدتا بأن الأنبوب لا يختلف عن ذلك الموجود في السمك، لمستاه، فتصلب، لكن لم ينبعث منه البيض الغامض. صرخ الصغير، و نهض النسر الذي كان ينتظر هناك خلف الصخرة وألقى بجناحيه الكبيرتين على وجهي البنتين، واختطف بمخالبه الصغير بكل لطف وطار به. لكن ترك خلفه الأسئلة والشكوك.

وهكذا كان كلا المجتمعين يفكران ببعضهما البعض، وإن لم تحلم الصدوع بالمشي خلف الصخرة القاتلة إلى الجبل وفوقه.

فيما يتعلق بالفتيان الصغار الذين توغلوا في كل يوم أكثر في ذلك الجزء من جزيرتهم، خافوا من أن تبقيهم الصدوع بعيدين عن تلك الصخور والكهوف التي هربوا منها. صعد بعضهم إلى الجبل حيث تعيش النسور، وأمعنوا النظر في الشاطئ الذي شاهدوا فيه طفح اللطخ الشاحبة الصغيرة على الصخور السوداء. الصدوع كعادتها مستلقية نصفها في الأمواج ونصفها الآخر خارجها. لكن لم ينزل الصبيان إلى ذلك الجانب من الجبل، فقد كانوا خائفين جداً.

ركض بعضهم على التلال الصخرية خلف الشاطئ، التي توصلهم إلى الصدوع لو أنهم استمروا في السير عليها، لكنهم لم يستمروا، وإنما

كانوا يتوقفون دائماً في المكان الذي يخبئهم، ويقربهم من المكان الذي يمكن أن يشاهدوا فيه ما تفعله الإناث. لكنهم لم يفعلوا الكثير، فقد تكاسلوا وتثاءبوا وسبحوا قليلاً، ونفضوا شعورهم الطويلة على أكتافهم لتجفيفها، ومن ثم سبحوا ثانية.

***

(الشعر الطويل من اختراعي، ويرتكز على ذكر الشعر الطويل الذي جاء بعد عصور من هذا الزمن. فربما كانت الصدوع الأولى ملساء ناعمة كما الفقمات، لكن تطاول شعرها فيما بعد إطاعة لأمر ما، يحاذرونه بشدة. المؤرخ).

***

أمضت الصدوع اليوم بكامله، وأمضت أياماً طويلة بهذه الطريقة لا تفعل شيئاً – كما شاهدها الصبيان. تعب الصبيان من المراقبة، لكن كانوا يرجعون أحياناً، وينسحبون غصباً، فالجوع يسحبهم، و قد شاهدوا في يوم ما صدعاً يافعاً يمشي لوحده بجانب الأمواج ليس بعيداً عنهم. توقفت والتفتت إلى المراقبين، وأرخت برأسها بين يديها، وحدقت في الأمواج. هذا الوصف للبنت، لوحدها - لم تحب الصدوع أن تكون لوحدها - تمضي وقتها على الشاطئ، يلمح إلى أنها كانت إحدى الصدوع الجديدة التي بدأت عجينتها المتطورة بالتخمر.

كان هناك أربعة صبيان (أو نوافير) في ذلك اليوم على الصخور العليا. بدافع منهم، نزلوا زاحفين وراءها، بهدوء، لا يعرفون ما ينوون فعله. ثم أن قربها، وجوعهم، بدد خوفهم منها، ركضوا نحوها، وبلحظة أنزلت ذراعيها إلى جنبيها، وركضوا بها راجعين إلى موطنهم في الوادي. أطلقت صرخات غضب قصيرة، وانقبض صوتها من الخوف، فلم تكن معتادة على الرعب أو الذعر، أو ربما لم تصرخ أو تستغث أبداً. وهكذا أصيبت بصدمة إذعانها. كانت أطول منهم، وأضخم منهم، لكنها لم تكن أقوى

من هؤلاء الصبيان الأربعة الشداد ذوي العضلات المفتولة. أبقوا على ركضها، بينما ارتفعت أصواتهم بفرحة النصر والخوف أيضاً. تلك هي الصدع التي كانت هناك – فقد تعلمت الخوف منهم. كانت رحلة موفقة انطلقت من هذا الجزء من الشاطئ الذي وجدوها فيه هناك، إلى امتداد خط الشاطئ، ثم إلى التلال الصخرية التي يجري فيها النهر الكبير قبل أن يصب مزبداً في البحر. ذهبوا إلى الحافة العليا للنهر. بدأت بالصراخ عالياً بصوت لم تعتده. حشوا حفنة من طحلب البحر في فمها.

الآن أرهقها الركض، وكادت تختنق من الطحلب، أنّت ولهثت وأخيراً وصلوا بها إلى الوادي حيث يعيش الذكور هناك. وكانوا على الجانب الخاطئ من النهر. أسبحوها عبر النهر حيث الأمواج أقل قوة: لم يكن هذا صعباً على بنت سبحت ولعبت في الماء منذ ولادتها. ثم وجدت نفسها واقفة في وسط مجموعة كبيرة من الوحوش، نظرت إليهم وكأنهم صغار مشوهون، أو في مرحلة قصيرة بين الولادة واختطافهم من قبل النسور. كانوا من كل الأحجام، بعضهم كانوا أطفالاً، وبعضهم في منتصف العمر، وكان هؤلاء من أكثر المتضررين، حينما كانوا " مدلّين ". كانوا جميعهم عراة، وبمشاهدتهم لها، كانت الوحوش تشير إليها بنوافيرهم•، بصقت الطحلب من فمها وصرخت، وكانت هذه المرة صرخة حقيقية، وكأنما كانت تفعلها طيلة حياتها.

أعاد أحد الآسرين حشو فمها بالطحلب، وربط آخر يديها بجديلة من الطحلب – تم هذا كله بطريقة بطيئة وخرقاء، لأنها المرة الأولى التي تربط فيها الأيدي، ولم يكن هناك أي أسير أو سجين من قبل.

الآن الغرائز الجديدة التي برزت حرة وغير مقيَّدة، وغالباً غير مقرّ بها قالت كلمتها في هذا الحشد من الذكور، وطرح أرضاً أحد الآسرين هذه الأنثى الناعمة الخجولة، وبلحظة أدخل نافوره فيها. وبلحظة انتهى منها وجاء آخر ليحل في مكانه. استمر هذا الاغتصاب الجماعي،

• النافور : المقصود بها هنا العضو التناسلي للذكر - المترجم

واستمر، كانوا يشبعون جوعهم الذي لم يفصحوا عنه. وبعض الفتيان الذين انطلقوا إلى الغابة يبحثون عن الفاكهة عادوا أدراجهم، وشاهدوا ما كان يجري، وقد فهموه على الفور وانضموا إليه. ثم إنها لم تعد خائفة، ولم تعد تركل وتتذمر بل استلقت هامدة، ولم يفهموا على الفور بأنها فارقت الحياة. و لم يفهموا بعد ذلك على الفور بأنها قتلت. ثم تفرقوا، وتركوها هناك، ولم ينظر أحدهم إلى الآخر، يشعرون بالخزي، وإن كانوا لا يعرفون ماحدث. كان الليل طويلاً ومخيفاً وقد مرضوا الآن من الشيء الذي حدث. فقد أجابت نوافيرهم الذابلة، ومشاعر الراحة عندهم، واسترخاؤهم وسكينتهم عن الأسئلة التي ظلت تعذبهم في بعض الحالات لسنوات عديدة، قتلوها، لكن لم تقتل بلا هدف.

في ضوء الصباح كانت مستلقية هناك على العشب بجانب النهر – قذرة وملطخة، يشم منها رائحة كريهة من إفرازاتهم، وعيناها الغائرتان تتهمهم.

ماذا عليهم أن يفعلوا؟

أيحملونها إلى مكان تجدها النسور فيه؟ لكن شيئاً منعهم من فعل هذا.

في النهاية حملوا جسدها المتسخ المتخشب إلى ضفة النهر حيث يجري النهر سريعاً ودفعوا بها هناك، وراقبوا كيف لفها التيار وقذف بها في البحر.

هذه هي أول جريمة اقترفها جنسنا (استثني من هذا تخليهم عن الأطفال الجدد المشلولين) وقد علمتهم فعلتهم هذه ما يمكن أن يقوموا به ؛ فقد تعلموا شيئاً عن طبيعتهم.

هذه الجريمة لم تدوّن في رواياتهم التاريخية، وحاولوا نسيانها، وفي النهاية نسوها، كالصدوع التي تذكرت كيف عذبت ونكلت بالنوافير، وكيف ليّنت القصة وجعلتها أقل حدّة، ثم ادعت بأنها لم تؤذ سوى وحش صغير واحد – واحد فقط.

لن نعرف شيئاً عن هذه الجريمة لو لم يصبح هذا الرجل العجوز الذي يحتضر مهووساً بذكرياته، وبذلك اليوم الفظيع من الاغتصاب والقتل الذي مر عليه زمن طويل – فقد كان صبياً – ولم يكف عن تكرار وتكرار ما عرفه. وليس ممكناً أن نتجاهل ما قاله هو وبعض الناشئة، فقد سمعوا، وصُعقوا، وحزنوا وحفظوا الحكاية، ولم يستطيعوا نسيانها، وأخبروها في شيخوختهم لمن هم أصغر منهم سناً. وهذا، على ما أعتقد، بداية السجلات الشفهية للنوافير، رواتهم، في البداية ظهرت إلى الوجود بمحض الصدفة، ولكن بعد ذلك قيّمت وحُفظت. فالأنثى حفظت المدونات – لم استطع أن أجبر نفسي على تدوين كل ما هو موجود هناك، والذكر حفظ المدونات : وأجبرت نفسي على تدوين ما هو موجود هناك.

لاحظت الصدوع غياب إحداها، تساءلت، وقلقت بطريقتها الكسولة الناعمة، تذكرت غيابها، نظرت لمعرفة إن كانت قد سقطت في أحد الأحواض القريبة، وتساءلت ثانية....

حينما انحسرت أحزان النوافير، بقيت هناك الشكوك دون أن تتراجع. ولو أن البنت المقتولة لم تكن قادرة على قول الكثير من الكلمات المتماسكة، إلا أنهم عرفوا من الكلمات التي قالتها بأن اللغة التي يستخدمونها كانت فقيرة بالمقارنة مع كلماتها، وأجبروا على القلق بشأن القضية، ليجدوا سبباً لها، وقد فهموا أخيراً بأن ما كانوا يقولونه قد تطور من كلام الأطفال الصغار الذين قاموا بأول استكشاف شجاع لجبل النسور. لغتهم كانت لغة الأطفال، ونبرتها عالية كما كلام الأطفال. وإن كان لديهم كلمات جديدة، عن الأدوات والأواني التي اخترعوها، لكنهم تحدثوا جميعاً كما يتحدث الأطفال.

وكيف لهم أن يتعلموا أكثر وأفضل؟ فزعهم من الصدوع، وخوفهم من أنفسهم، وما فعلوه، جعل من عودتهم إلى الشاطئ، ليجدوا صدعاً آخر ويتعلموا منه، شيئاً مستحيلاً.

ماذا عليهم أن يفعلوا؟

إنها الصدع التي قامت بفعل شيءٍ ما. وعلينا أن نسأل لماذا حدث. بعد فترة من الزمن الطويل لم يعد ممكناً قياسه، حينما لم تكن هناك أي صدع لديها الفضول لأن تغادر شاطئ أمومتها. كانت هناك واحدة. مشت إلى الجبل حيث عرفت بأن النسور هناك تأخذ الوحوش، تسلقت الجبل، ومرت بأعشاش النسور، وقفت هناك في الأعلى، ونظرت إلى الأسفل وشاهدت...نحن نعرف ما شاهدت، فهذا مدون.

هناك في أسفل الوادي، توجد مجموعة من الوحوش تقوم بأنشطة لم تستطع فهمها، أو أنهم كانوا عند حافة النهر الكبير، لم تشاهد نهراً أبداً. شاهدت نهيراً صغيراً ينساب تحت الجروف. وقد صدمت بخوف كاد يعيدها إلى شاطئها. في المكان الذي وقفت فيه لم تستطع مشاهدة الصرر• المروعة التي جعلت من النوافير ما هم عليه. عاشت هناك في الأسفل هذه المخلوقات المخيفة بطمأنينة، وارتفعت أصواتهم حتى وصلت إليها، يتحدثون كما تتحدث الصدوع، لكن بنبرات صبيانية عالية.

لم كانت هناك؟ لا نعرف. أأثارها شيء من متاع الحياة أو ممتلكاتها - ومن قبل من؟ لعصور – هذا هو المقياس المريب عندنا للزمن – لم يرغب أحد في الذهاب إلى المكان الذي شاهدته هناك في الأسفل.....كما أنه ليس من زمن بعيد، بدأت الصدوع – خمّنوا هذا بلا سبب – بولادة هذه الوحوش، وهكذا تقوم الصدع اليوم بعمل لم يقم به أحد من قبل : جعلها لطيفة، يحركها شيء لا تجده في طبيعة الصدع العجوز.

تقدمت أكثر على سفح الجبل وتوقفت. ما هي هذه الأشياء المدببة الغريبة هناك؟ فكرت في البداية أنها أحياء، نوع من المخلوقات. كانت ملاجئ من القصب شيدتها النوافير، فهي نوع من القصب تطاول متكاثفاً في المستنقع عند مصب النهر غير بعيد من هنا. كان القصب شاحباً يلمع تحت أشعة الشمس، وشاهدت النوافير تجلس عند مداخلها براحة تامة.

• الصرر : مرة أخرى الأعضاء التناسلية البارزة لصغار الوحوش - المترجم

تقدمت إلى الأمام لكن بتؤدة، لكنها لا تعرف كيف ترسل لهم إشارة بأنها لا تقصد الأذى. فهي المخلوقات التي عذبتها الصدوع، ونكلت بها وشوهتها وهي نفسها شاركت في هذا العمل. شاهدوها الآن واحتشدوا جميعاً مقابلها، استطاعت أن تشاهد وجوههم وهم ينظرون إليها خائفين ومحدِّقين.

تابعت نزولها.

جلس نسران عملاقان بعيداً عن النوافير المحتشدة، وكانا على ارتفاعها. كان يشير كل منها إلى سمكة عملاقة. نظرت فشاهدت صبياً خرج من النهر ومعه سمكة، أودعها أمام النسرين، وشاهدها وركض إلى أصحابه.

هم لم يهددوها، لكنهم كانوا يبتسمون ابتسامة صفراوية مريبة، كابتسامتها. وقفت هناك أمامهم، لا تعرف ما ستفعل، ووقفوا ينظرون إليها.

كانت تحدق في مقدمتهم حيث تظهر البروزات، لم يظهر عليهم الفزع الآن. شاهدت صغار الوحوش بانتفاخاتهم الضخمة : لا تتناسب مع غيرهم، هذا ما أدركته.

وشاهدت بعض كبار السن مشوهين، خلافاً للآخرين، ولم تعرف حالاً بأنهم ضحايا الصدوع، كبروا وشوهوا إلى الأبد.

إما أنهم سحبوا جذع شجرة أو أنه سقط – هبطت عليه لتستريح من شدة تعبها، فالطريق بالنسبة إليها كان طويلاً. بينما كانت تجلس هناك صعدوا إليها بتؤدة، يحدقون في خصرها الذي كان عارياً، لأنه هذا كان في منتصف الفترة بين البدر والبدر، وانقطع الطمث وقتها.

شاهدت كل ما يميزهم عنها، لكنهم شاهدوا القليل مما تتميز عنهم.

جلس أحد كبارهم إلى جوارها على الجذع، يحدق دائماً بوجهها وثدييها الكبيرين المتدليين المترهلين إلى خصرها. مدت يدها بدافع

الفضول عندها لتلمس أنبوبه، الشيء المرعب الذي أخافها طوال حياتها، انتصب فوراً بيدها وشعرت بخفقه ونبضه. فالشيء الذي جاء بها إلى هنا كان ملحاً، وبلحظة أصبحت هي وهذا الغريب شيئاً واحداً، وأدخل أنبوبه فيها، وتصرفت كما أوحى إليها بذلك اسمه.

حدق كل واحد منهما بالآخر بجديّة – وانفصلا.

واستأنفا جلوسهما إلى جانب بعضهما، وهما ينظران. وبدافع الفضول أمسكت مجدداً بأنبوبه الرخو ؛ أما هو فقد كان يلمسها ويجسها.

الآباء الذين لديهم اهتمام كاف بتطور أطفالهم وهم يدخلون في ألعاب الحضانة، يمكنهم أن يقولوا لنا عما يحدث الآن: سيشاهدون كل ما يحدث.

يقف الطفلان الصغيران ينظران إلى بعضهما البعض، وهما عاريان استعداداً لحمام وشيك، أو لتغيير الملابس، وليست هذه المرة الأولى التي يشاهد فيها الشقيق والشقيقة بعضهما عاريين، لكن لسبب ما، تنبه الاثنان لفوارق أخرى بينهما.

استفسرت البنت عن شيء بوقاحة، " لماذا عندك هذا الشيء " – لكن علينا أن نتخيل بأن ما يشير إليه نبرة صوتيهما يدل كثيراً على نضج مستقبلي.

قال بصراحة " لأنني صبي "، وما يقوله يوحي بسلسلة كاملة من الحالات. يدفع بحوضه، ويقوم ببعض الحركات الارتعاشية، يبدو وكأنه يربطها بلعبة ما. فقد أنزل رأس قضيبه، وتركه بحركة نابضة. كان عابساً ومقاتلاً طيلة الوقت، ولم يكن هذا موجهاً لشقيقته، ولكنه ربما لعدو ذكوري يتخيله.

كانت البنت الصغيرة بمشاهدتها كل هذه المآثر، التي لا تناسبها جميعاً، تعبس وتنظر إلى قامتها وتقول، " لكن أنا أكثر منك أناقة ".

الصبي وهو يتجهم في صدعها، لا يمكن لأحد أن يقول بأنه يهددها أو أن يجزم بهذا، يضيف الآن إلى مخزونه الفتيات المغرورات مع بعض

الأخريات، يتلمس بجزئه الناتئ جيوبهن •.

تقول البنت الصغيرة " أنا أحب الذي عندي أكثر من الذي عندك "، لكنها تقترب من شقيقها وتقول:

" دعني أستشعره "،

يغلق عينيه، ويحبس أنفاسه، يتحمل سحبها وتلمسها، ويقول لها " الآن دعيني أتحسسك ".

يسبر الشقوق بدون خبرة ويفصح قائلاً، "مخرج بولك ليس جميلاً كمخرج البول عندي " .

وتصر هي " مخرج بولي أفضل من مخرج بولك ".

كانت هناك جاريتان في الغرفة، مربيتان لهما. ترقبان هذه اللعبة (المداعبة) وتعرفان ما تعنيه هذه الابتسامات البشرية، التي ترتبط بالزوج، والحبيب الآخر.

عند اندفاع الصبي الصغير وتباهيه، كانا يتبادلان كل ما تتوقعه من ابتسامات ذكورية، قد أظهرت كلتاهما إشارات أردن منها حماية البنت، التي يحميها أساساً غشاء البكارة.

تقول إحداهما، " لو شاهدتك أمك لمنعتك " وهي بهذا تضع حداً اجتماعياً للعبة.

لم ينفصلا على الفور، لكن شد الصبي شعر البنت برفق، ثم قبلها من خديها خجلاً. وهي من جانبها قامت بشده. تصنعت الجاريتان ابتسامات مناسبة. عجباً ما هذه الأشياء الصغيرة المحببة.

هذه اللعبة الصغيرة بعينها محددة بزمانها، البنت في الخامسة تقريباً والصبي أصغر منها بقليل. والطفلان لا يريدان تكرارها، لنَقل، في العام القادم.

• الجزء الناتئ والجيوب إشارة إلى الأعضاء التناسلية لدى الجنسين - المترجم

فهي ستنخرط في ألعاب الأمومة والتربية، أما هو سيصبح المحارب القديم – الجندي.

***

هل تعتقد بأنني أكتب عن المشاهد بثقة أكثر من اللازم؟ لكنني أشعر أنها أكثر يقينية مما حاولت أن أصف الكثير منها. والآن علي أن أوضح لماذا يبدو هذا، بطريقة ما، انحرافاً وحتى غير ذي صلة.

تزوجت وأنا شاب صغير بنتاً وافق عليها والديّ، وأنجبنا طفلين – صَبيين. كنت طموحاً، وأخطط لأن أصبح برلمانياً، عملت بجد، قمت بالاتصالات المناسبة، وأمضيت وقتاً قليلاً جداً مع زوجتي، وأقل منه مع أولادي. كانت أماً محط إعجاب؛ وكنوا لي كل الاحترام. وعملت كل ما بوسعي لأسهل لهم الطريق للالتحاق بالجيش، حيث أبلوا هناك بلاء حسناً. لكن قتل كلاهما وهما يقاتلان القبائل الألمانية. وحينما توفيا ندمت على معرفتي القليلة بهذين اليافعين اللذين امتدحهما كل من عرفهما. أعتقد أنه ليس مستغرباً لرجل في زواجه الثاني أن يأسف على شيء أهمله في زواجه الأول. فكرت كثيراً بولدي حينما لم يعد ينفعهم هذا التفكير مطلقاً. توفيت زوجتي الأولى. وعشت وحيداً لسنوات. أُصبت حينها بالمرض وأمضيت سنوات عديدة حتى تعافيت. جاء الأصدقاء لمشاهدتي، وأوصوني بالزواج ثانية. فكرت بزوجتي الأولى وعرفت أنه يمكن أن نحب بعضنا لو كان لدي وقت من أجلها.

حينما كنت أتعافى، وصلت "جوليا"، البنت من الفرع الأصغر للعائلة لرعايتي. عرفت ما كان يحدث: كانت الأم تأمل بأن تقوم قريبتها بفعل " شيء " من أجلها وأجل أطفالها. لكن كان منهم الكثير. وقد لاحظتُ أنه إذا حظي رجل باهتمام فرد من عائلة كبيرة، فلن يمضي وقت طويل حتى يقبل القبيلة بأكملها. كانت جوليا مبتهجة وجميلة وفطنة، ولم تتحدث عن شقيقاتها وأشقائها المحتاجين. تمتعتُ بها، وببساطتها

المتأصلة،والملاحظات الجديدة لبنت ريفية صغيرة وذكية، كانت تراقب كل ما يحدث لتصوغ نفسها على طريق النخبة. وأنا متأكد بأنها كانت تحبني، وإن كنت متيقظاً دائماً – وأبقيت نفسي على حذر – بأن رجلاً عجوزاً لا يتوقع الكثير من امرأة فاتنة في ثلث عمره. أقاربي الصغار والشبان الذين حسبوا بأنني محام لهم، أمضوا معظم أوقاتهم في بيتي، وكنت أفكر بأنه لن يمر وقت طويل حتى تتزوج أحدهم، وهذا ما سبب لي صفعة صغيرة أو صفعتين : هذا – بشكل متناقض – لأنني فكرت كثيراً بزوجتي الأولى، وما افتقدته برحيلها. أما هؤلاء الصبيان، هؤلاء الشبان الرائعين، قلما ألتفت إلى طفولتهم.

طلبت الزواج من جوليا، قائلاً لها يجب أن نتفق على العرض التالي. فهي ستأتي لي بطفلين، ولن أطلب منها أكثر من ذلك، وسوف تلقى كل الرعاية لها ولأطفالها. وافقت لكن ليس من دون أن تتردد، فقد علمت بأن الشبان كانوا يرغبون فيها كثيراً. لكنهم ليسوا أثرياء مثلي. وقد أحبتني كصديق لها. أو ربما كمعلم لها؟ فقد أخبرتني بأنها استمتعت بالحديث معي والاستماع إلي لأنني " أتعلم منك الكثير، كما ترى ". فقد كانت جاهلة بالمطلق.

والآن حدث شيء غير متوقع. فقد سلّمتُ بأن هذه البنت الريّانة النضرة(حجلتي الصغيرة) ستنجب الأطفال بسهولة، لكن حملها الأول كان صعباً والولادة أصعب. فقد أخبرتني بأن هذا لأنها أصيبت بمرض في طفولتها، وأحياناً كانت العائلة لا تجد ما تأكله.فإذا طلبت مني أن تنكث العهد في النصف الثاني من صفقتنا – الطفل الثاني – سأكون مستعداً لمسامحتها. فلن أسعد برؤيتها في ضائقة،ثم في ولادة صعبة. لكنها كانت بنتاً صادقة، هذه الحجلة، فقد استمرت في الطفل الثاني، مع أنها أمضت وقتاً عصيباً مع طفلها الأول أيضاً.

ما إن ولد الطفلان حتى سلما للجواري اللواتي يعملن في جناح الأطفال لرعايتهما – ولا أعتقد أنها بعد ذلك فكرت بهما. فلم يخطر على بالي بأن أكون طرفاً في صفقتنا " تنجب لي طفلين وتكون أماً لهما ". لكن حينما

اتهمتها بعدم اكتراثها بطفليها قالت لي، " السوء أن تكون طفلاً ويطلب منك الاعتناء بالأطفال أيضاً ". عرفتُ أنها كانت أكبر الأطفال سناً، وأنها ضعيفة ومرهقة، وعليها أن تكون أماً لأشقائها، بمساعدة جارية غير مناسبة، جارية هاربة من منزل كبير يسيء معاملة الجواري وكان يصعب علي مساعدة جوليا على التحدث بلغتنا _ فقد كانت يونانية. وأقسمت بأنها حينما تصبح ناضجة سترفض الزواج من رجل لا يقدم لها الجواري. وهذا قسم عظيم تحلف به إذا كنت فقيراً، ومن بلدة ريفية صغيرة. لكن هذا يوضح لنا السبب الذي جعلها تتفق مع أمها لتأتي وتقدم خدماتها لي.

تبين لي لاحقاً السبب الذي جعلها تتأخر في الموافقة على " الصفقة "، فلم أستطع أن أطلب منها أن تقوم بأي شيء أكثر صعوبة من أن تنجب طفلاً، ناهيك عن اثنين.

وقالت أيضاً بأنها لا تمتلك مشاعر الأمومة، ولم تحس مثل هذه المشاعر أبداً. وسألت أمها لماذا يطلب منها دائماً أن تغسّل الأطفال وتطعمهم، ولم يُطلب هذا من أشقائها. وكان رد أمها بكل بساطة أن الأشياء كانت على هذا النحو. فلم يُدوّن ما كانت تفكر به الجارية اليونانية، لكنها لم تكن مثار اهتمام أحد.

كان يعتقد بأن ملاحظات جوليا العابرة هي أكثر أصالة وجرأة، لكنها لم تفهم ما الذي جعل الناس يضحكون من هذه الملاحظات، ويمتدحونها. أولاً أنا متأكد أنها لم تكن تنوي أن تصدم أو تفاجئ أحداً، مع أنها معروفة بذكائها وجرأتها. وقد انخرطت حالاً بمجموعات كانت نبرتها السائدة التهكم الشديد على الناس، ومن ثم عبثت بكل ما عندها : ما كان عندها نضراً طبيعياً أصبح لديها ترفاً، انسجمت مع أناس أنا لا أحبهم، ولم يبق لديها الكثير كبنت من بلدة صغيرة لها نظرتها الخاصة إلى الحياة.

قلت لها بأن جيلها اتهم أبناء جيلي بالأنانية والانغماس في الشهوات، وبأنهم لا أخلاقيون، بالمقارنة مع نساء كأمي، اللواتي اتسمن بالفضيلة

والورع وقوة الشخصية. أظهرت "جوليا" اهتمامها بتفنيداتي، لكن كأن هذه التفنيدات لا تعنيها بشيء مطلقاً، وكأنما قلتُ لها، " أتعرفين أن بعض القبائل البريطانية يدهنون أنفسهم بالأزرق؟ وتجيب كأن غيمة من الشكوك اجتاحت وجهها " تخيل ذلك،". لكنها عرفت بأنني أخبرها الحقيقة، وهكذا قررت أن تصدقني. " أزرق حقاً؟ لا بد أنهم بدوا مضحكين. "، فالتعبير المميز لديها هو ذلك التعبير المفتوح والصريح، وابتسمت لإعجابها بهذا العالم الشجاع. وحينما أصبحت سيئة السمعة لسوء أخلاقها، وانغماسها في الشهوات مثل كل النساء من مجموعتها، تخيلتها بوجهها البسيط، ونظرة اهتمامها الصادق بكل شيء، تسمع من زميل لها مشاركته في عربدة ما، يجب أن تجرّب هذا أو ذاك، وتقول، " عجباً، أحقاً هذا؟ أيفعل الناس هذا، أحقاً يفعلونه؟ حسناً، تخيلي هذا، دعنا نجربه.

إذا لم تقترب "جوليا" من جناح الأطفال، يصعب عليّ الابتعاد عنه. فأنا لم يسبق لي أن خدعت، ولم أخدع حتى في قضية حكومية كبرى.

وحتى حينما أصبح الرضّع أطفالاً، وجدت مما يدهشني الكثير، وحينما أصبحوا في سن الثالثة أو الرابعة أو الخامسة كانت هناك مفاجأة في كل يوم. فلم أتدخل أبداً بالإدارة التي أوكلتها لجواري الأطفال، لا أشارك، حتى يظهر شيء صغير يتوجب تطويقه أو ملاحظته. سمعت بنتاً تقول لأخرى " ليس لديهم أم وإنما جدهم لأمهم يعوضهم عنها ".

عندما كنت أدهش بما ألاحظه يومياً، أعطاني أحد أساتذتي رزمة ثخينة عن تاريخ الصدوع والوحوش، تتناول أول ولادة للذكر من الأنثى، وقد أقترح علي في وقت سابق بأن أعالج هذا الموضوع أو ذاك. قمت بنشر أشياء ووضعت الملاحظات عليها، لكنها لم تحمل اسمي – وقد تذهلك إن سمعتها. هذا المشروع أخافني. أولاً، لأن المادة عبارة عن لفائف قديمة وأجزاء من لفائف، وبقايا أوراق مبعثرة وغير مرتبة، في مخطوطات قديمة كانت عبر التاريخ الوعاء الأول لنمط النقل " من الفم إلى الأذن ". وحزمة كبيرة من الأشياء، التي يمكن أن تجد فيها شيئاً من الترتيب، لكنها

ليست بالضرورة أن تكون بالطريقة التي يتوجب عليّ أن أرتبها. وكلما هممت لأخذ مكاني في القصة، أُصبت باليأس، ولم يكن هذا على صعيد المهمة فقط، ولكن لأن هذه الحكاية كانت بعيدة عني ولا أعرف كيف أفك رموزها.

ثم رأيت في حجرة الأطفال هذا المشهد الصغير. كانت البنت "ليديا" في سن الرابعة تقريباً، وكان الصبي يصغرها بسنتين. وكان عليها أن تراقب النتوءات الأمامية لشقيقها تيتوس مئة مرة، لكنها في هذا اليوم حدقت به وقالت " ما هذا الذي عندك؟ "، أما وجهها ! فقد فُتنت، وصدمت، وحسدت وأحبطت – كانت تتابها عواطف متناقضة قوية. رأيت هذا ورأته معي الجواري. وعرفنا أن هذا حدث تاريخي.

دفع تيتوس بعدته إلى الأمام، وبدأ يهز قضيبه إلى أعلى وأسفل، ينظر إليها بحالة مهيبة، وهتف قائلاً " إنه قضيبي، إنه قضيبي، وماذا عندك أنت؟ أعندك شيء ".

وقفت ليديا تنظر إلى مقدمتها الناعمة ذات الصدع الوردي الصغير. " لماذا؟ " سألت البنات، وسألتني، وسألت شقيقها، " لماذا؟ لماذا عندك هذا وليس عندي مثله؟ "

أجابها اللورد والسيد الصغير " هذا لأنك أنت بنت. أنا صبي وأنت بنت".

قالت " أعتقد أنه قبيح، أنت فظيع "، تقترب منه وتقول " أنا أريده ".

يدفع بوركه إلى الخلف، متجنباً يدها الممتدة، وهو يغني، " لا، لا تستطيعين، هذا لي ".

تطلب منه " أريد لمسه "، وترك هذه المرة نتوءاته في متناول يدها، لكنه سحبها فجأة ما إن اقتربت يدها.

تقول له " إذاً لن أدعك تنظر إلى مقدمتي "، وقد أدارت نفسها لتخبئ ما عندها.

وغنى لها " لا أهتم، ولمَ أهتم، أنت حمقاء ".

وكادت تصرخ " لستُ حمقاء "، وتركض إلى البنات وتسألهن " لماذا، لماذا، لماذا؟ " بينما تمسكها إحداهن بذراعيها.

تقول المربية " لا تبك، ولا تعطه تلك الرغبة " .

تنتهد الطفلة " لا يجوز هذا "، وتقول البنت الأخرى " لكن لو أمسكتِه لا تعرفين ما ستفعلين به " وقد بعثت لي بضحكة وغمزة كبيرة، (لكنني لست سيداً من هذا النوع : ربما رغبتْ أن أكونَ كذلك).

عرفت في تلك اللحظة بأن عليّ أن أحاول على الأقل، وأتحمل هذه المهمة، مهمة تاريخي القديم الموغل في القدم. تأملت وفكرت، لكن بعد هذا الزمن كله، كيف لك أن تفهم، ماذا يعني وجود الذكور والإناث سوية في ذلك الوادي، حينما كانت النسور ترقبهم ولا يعرفون شيئاً – ونحن الرومان نعرف الكثير – عن السبب الذي جعل البنات بهذا الشكل، والصبيان بذلك الشكل، ناهيك عما كان يعنيه هذا كله.

كانت تقودهم غرائز جامحة – ونعرف جميعاً قوتها، ولا شيء تبدل هناك – لكن سأرجع إلى الفكرة : يبدو بأن الصبيان متعطشون لشيء ما، يريدون شيئاً ما، هم بحاجة إليه – لكنهم لا يعرفون ما تريده نوافيرهم – ويجبرون الآخرين لكي يريدوا ويحتاجوا.

أما البنات : فلا يعرفن بأن أعضاءهن ستقودهن إلى أن يقطعن الجبل ويصلن إلى الصبيان، وحتى حينما عرفن بأن هذا التزاوج يعني الولادة لاحقاً، لم يعرفن السبب. أو أنهن لم يعرفن هذا لزمن طويل.

وبسبب ملاحظاتي في جناح الأطفال، قررت المحاولة في كتابة هذا التاريخ على الرغم من الصعوبات. وأنا متأكد بأن هذه المقايضات بين الذكور والإناث لم تتغير كثيراً، على الرغم من العصور المديدة. فهذا المشهد الذي رأيته في حجرة الأطفال شُرّع وقتها، أو شيء من هذا. لا بد أن يكون.

وماذا عن المشهد الذي شاهدته، حينما استيقظ الصبي تيتوس في الصباح، وكان في حالة انتصاب، وقف بتؤدة يتلمس حواف سريره ينظر إلى أسفل ويصيح، " إنه لي، إنه لي ! لي، لي.....

على ما أعتقد لم يتغير الحال كثيراً. لكن لو استطاع الناس القدماء العودة والمراقبة والمشاهدة، وإيجاد الأشياء الكثيرة غير المتبدلة، عندها، لن يفهموا الأشياء الأخرى أبداً.

تفسيري لزواجي، ولجوليا، ولعائلتيّ الأولى والثانية لم يقنعهم كثيراً. أهو السيناتور العجوز وزوجته الصغيرة؟ كلا، لم لا؟ لسبب بسيط جداً : لم يعيشا لفترة طويلة. كان زمناً عصيباً وخطيراً، ولم يكن حتى " العجائز " و" كبيرات السن " من ذوي العمر المديد. نسمع عن " أنثى عجوز"، وماذا نشاهد؟ عجائز بشعر أشيب، ووجوه متجعدة، وقامات محدودبة. ليس هناك أية مدونة تصف شخصاً عجوزاً.

لم أسمع أو ألتقي بأحد قط لم يفهم على الفور " السيناتور العجوز وزوجته الصغيرة ". قد يبتسمان أو يتجهمان أو ينظران نظرة إدانة، لكن يجب أن يعرفا ما يحيط بهما هنا. هكذا سأبدأ هذا التاريخ، التاريخ الحاضر، حتى حينما كنت أرقب الأطفال يومياً في حجرة نومهم، وكانت جوليا خارج المنزل تقضي معظم أوقاتها مع بعض الأصدقاء.

لم تكذب علي قط، باستثناء الحذف. من المفترض أن يكون عندها عشيق وقد شجعتني على التفكير بهذا. فما حاجتي لمزيد من المعلومات حينما يكون تحت تصرفي مادة الخدمات السرية لروما؟ أصبحت الآن محبوبة لدى بعض المجموعات ذات المواقع الراقية : حفلات لا يمكن أن نطلق عليها سوى العربدة وتستمر في كل ليلة. كان لها صداقات مع نساء مهمشات، وأخريات اللواتي لن يعشن إلى عهد الإمبراطور القادم.

قلت لها، حينما كانت جالسة هناك بعد حفلة كبيرة أو غيرها، تنظر إلي وكأنما تتوقع أن أوبخها، " جوليا أنت تحلقين عالياً "، وانتظرت حتى تدافع عن نفسها لكنها لم تفعل ذلك. ربما هي نفسها كانت منزعجة، " بقدر ما تحلقين بقدر ما يكون سقوطك مدوياً " قلتها وأنا أبتسم، بحيث لا يبدو حكماً قضائياً وأضفت " احذري يا جوليا ".

وكانت كذلك، لأنها لا تزال على قيد الحياة.

أما الطفلتان الحلوتان فهل يمكن لي أن أقول بصدق إنهما أفضل البركات في حياتي؟

اليوم البنت ليديا أكثر التصاقاً بأمها. فكيف لها ألا تعجب بجوليا هذه المرأة الأنيقة والجميلة التي نشأت في أحضانها؟ تذهب ليديا إلى الحفلات مع أمها – ولا أدري كم يحمل هذا من السوء. وتفصح عن نيتها بزواج ميمون. فالصبي نشيط وشجاع ومليء بالألعاب الرجولية والمفاخر والتحمّل – وكل ما يمكن أن نتوقعه من صبي روماني في أحسن الأحوال. يريد أن يدخل في الجيش. يعتقد بأنه يمكن أن يصبح أحد الحرّاس البريتوريين. ولماذا لا؟ فالحارس يجمع كل وسامة الرجال من أمثاله.

خطر على بالي بأن يقال عني " قدّم ثلاثةً من أبنائه ليموتوا من أجل الإمبراطورية، لقد كان رومانياً حقيقياً ". وقد لا يتذكرني أحد بأنني تخيلت نفسي مرة مؤرخاً جاداً.

***

جلس الآخرون حولها وهم يحدقون بها. وقد شاهدتْ أنهم في اتكائهم وتحديقهم، كانت كل أنابيبهم تشير إليها، كمن يسأل سؤالاً، لكن تكبحهم معرفتهم كيف أوقعوا الأذى بالبنت الأخرى. أرادت الهروب ؛ وأرادت أن تفعل ما هو طبيعي بالنسبة لها، وهو أن تنزلق في الماء وتختفي فيه. نهضت، وكانت حذرة طوال الوقت، فما قامت به كان يستثير الصبيان، وذهبت إلى ضفة النهر، التي أقاموا فيها خليجاً صغيراً وكانت المياه ضحلة. جَثَتْ هناك ورشَّت الماء، مع أن هذا الماء البارد لا يشبه مياه البحر المعتدلة التي اعتادت عليها. وحينما نهضت من الماء وواجهتهم، وهم يحتشدون هناك وراءها، شاهدت إحدى الأواني الصدفية الضخمة التي صنعوها. أمسكت بواحدة وأخبروها عن اسمها. فقد صنعوا السكاكين من الصدف الحادة : تعلمتْ هذه الكلمة أيضاً. احتفظوا بها، وهم يقولون جملاً وكلمات بلغتهم الصبيانية، وهي ترد عليهم، وكانوا ينسخون ما تقوله، ليس بالمعنى وإنما بالصوت.

في هذه الأثناء أنهى النسران وجبتهما وحلقا بأجنحتهما العظيمة، ورجعا إلى الجبل. كانت الشمس في مغيبها. كانت خائفة، لأنها وحيدة في هذا المكان الغريب مع هؤلاء الغرباء....الناس هي الكلمة التي استخدمتها الصدوع للتعبير عن نفسها، لكن هؤلاء هم أناس أيضاً، فكل واحد وُلد من صدع. والصدع بحد ذاته قد يلد إحدى هذه الوحوش المحدِّقة.....وقد عرفتْ بأنها جاءت بوحش، اختطف منها بمجرد ظهوره، ووضع ليموت، وتأخذه الطيور الكبيرة.

لكنهم لم يموتوا، فلم يمت أي منهم.هنا كانوا جميعاً، ويشبهون الصدوع ما عدا صدورهم المسطحة تظهر عليها حلمات لا فائدة منها، وصرر الأنابيب والمكورات في مقدمتهم.

كان الظل يزحف باتجاههم من الجبل. وبدأ ينتابها الخوف، فهي لم تأت إلى هذا المكان حتى الآن. تجمهروا حولها. فالحاجة والجوع تجاهها كانا واضحين، وهي بدورها تصرفت وكأنما حاجة ما بداخلها لا تعرف شيئاً عنها، بدأت تخبرها بشيء. أمسكت بيدها هذه الأنابيب القاسية الواحد تلو الآخر حتى أُفرغت جميعها. وكما جاءت بها الحاجة إلى هنا، عليها الآن أن تغادر.... غادرت، وتبعها الآخرون جميعهم، مشت باتجاه الجبل.لم تركض، فالركض شيء لا تقوم به الصدوع. لكنه كان مشياً سريعاً، مدفوعاً بالخوف. من ماذا؟ الوحوش – القريبة؟ الليل – قريب جداً؟ وصلت أسفل الجبل مع حلول الظلام وكان ظلاماً دامساً، غاب عنه القمر. وجدت ما تحتاج إليه، كهفاً أوت إليه. لم تنم. تزاحمت الأفكار في رأسها، وهي جديدة بالنسبة لها. غادرت الكهف عند الفجر، ولم تشاهد أناساً هناك في أسفل الوادي. فهم جميعاً داخل الملاجئ التي أقاموها من القصب النهري المتلألئ.

صعدت الجبل بأسرع ما تستطيع. هذه البنت التي لم تمش سوى خطوات قليلة في حياتها، عليها أن تصل إلى القمة وتمر بالنسور الكبيرة الهامدة والنائمة على صخورها الطويلة، وتهبط إلى الجانب الآخر، وصلت الشاطئ حيث وجدت أناسها، يتمددون هناك كما هم دائماً، يغنون قليلاً، ينثرون شعورهم الطويلة. وقلما لاحظوا غيابها عنهم.

كانت جميع كبيرات السن في أماكنهن، على صخرة مسطحة كبيرة. وكأنها شاهدت لأول مرة هذه الأحضان المترهلة الواسعة، والكتل اللحمية والنهود المترهلة الكبيرة، والوجوه المتجعدة الكبيرة، والعيون التي لا يبدو أنها تشاهد شيئاً. أجساد نصفها في الأمواج الدافئة ونصفها الآخر خارجها. شاهدت هذا كله لكنها لم تحب هذه المشاهدة.

عليها أن تخبرهن بما حدث، وكن يحببن الاستماع، لكن بدا كأنهن غير قادرات على استيعاب ما تقوله. على الجبال كانت تعيش الوحوش، فقد وضعت هناك لكي تموت – تلك هي الحقيقة الأولى، وقد لا تتكلم بعدها أبداً. كانت الصدوع الصغيرة تقريباً بالسوء نفسه، باستثناء بنت من هؤلاء حاولت أن تخبر كبيرات السن عن أنابيب الوحوش، سمعوها وأردن أن يعرفن كل شيء. والآن أصبحت هاتان الفتاتان مع بعضهما دائماً، تتحدثان وتتأملان. في الوقت المناسب ولدت صغيراً – الصدع. فقد عرفت وعرفت صديقتها بأن هذا الصغير مختلف، ونظرتا إلى نقاط الاختلاف. لم تشاهدن شيئاً، لكنه كان طفلاً قلقاً، باكياً زحف وسبح ومشى في وقت مبكر.

هذا هو أول وليد للصدوع من أب وحش، وقد عرفت هاتان البنتان بأنه يختلف كثيراً في طبيعته الداخلية. لكن هذا يطرح سؤالاً، أهو مختلف؟ كيف عرفتا ذلك؟ فما الشيء الذي اختلف عليهما وسهل عليهما المعرفة؟ فقد حدث شيء لهذين الصدعين، لكنهما لا يعرفان ما هو. فكل ما عرفاه أنه حينما تحدثا عن الوليد وعن الوحوش على الجبال، استخدما لغة وأفكاراً لم يشاطرا أحداً فيها على الشاطئ.

البنت التي صعدت الجبل، نظراً لطبيعتها الداخلية الجديدة التي أجبرتها على ذلك، كانت إحدى المهتمات بالماء. شاهدت بأن وشل الماء الذي ينزل من الجروف لا يزال نظيفاً، ويتجه إلى بركة صخرية أقيمت لهذا الغرض. كانت البنت تُعرَفُ بهذا الاسم، الماء، لكن كبيرات السن أَطلقت عليها في يوم ما هذا الاسم للقيام بمهمة ما. وقالت بأنها لم تفكر به أو تخطط له، " إسمي ميري ". وهو الاسم الذي يطلق على القمر حينما

يكون هلالاً ولم يكتمل بعد. أما صديقتها الأخرى التي كانت إحدى صيادات السمك، أطلق عليها السمكة، وقالت، " إسمي "آستر" " وهو الاسم الذي يطلق على النجمة الأكثر سطوعاً في المساء.

ستتزعج العجائز لو أنها سمعت ما تقوله البنتان. وطالما خدمتهن الصدوع الصغيرة وقدمت لهن الطعام، يمكن أن يطلقن على أنفسهن ما يشتهين – وما كانت تتوقعه البنتان بدأ يُشعر به.

فهذا النوع من الفكر الانتقادي بشأن العجائز كان جديداً : أفكار كثيرة وخطيرة جداً تتزاحم في أذهانهن.

فكرت "ميري" كثيراً بالنوافير على الجبل. أحست كأنهم يريدونها. ولم يكن في ذهنها كيف أمسكت بنوافيرهم : بل الجوع الذي بدا على وجوههم وهم ينظرون إليها، الحاجة التي كانت كأنها شيء يشدهم إليها.

فكر الناس الجدد في الوادي بـ "ميري". فليس لديهم رواة لمقتل أول صدع، لكنهم تذكروا "ميري"، واشتاقوا إليها. كانوا يزحفون أحياناً على التلال الصخرية فوق الشاطئ القديم لإلقاء نظرة على الصدوع، لكنهم كانوا يخافون من مشاهدتهم. فكل أفكارهم عن الصدوع كانت سوداء ومزعجة. فالصدوع تمتلك المقدرة على خلق الناس الجدد : أما الناس الجدد، فليس لديهم هذه المقدرة.

ثم أصبحوا أكثر انزعاجاً من كلامهم. فكلام الصدوع كان أوضح وأفضل. حاولوا تذكر الكلمات التي استخدمتها "ميري"، وكيف كانت تصوغها. لكن معرفتهم لم تكن كافية، وعرفوا القليل عنها.

هل لها أن تأتي ثانية؟

في هذه الأثناء، لم تجلب لهم النسور أي صغار جدد. لأنه لم يولد أحد.

بعد ذلك وَلَدت "آستر". كان المولود وحشاً. وقررت هي و"ميري" دون التحدث عنه وبدون أي تخطيط أن تأخذا المولود إلى أعلى الجبل بنفسيهما. كانت النسور تنتظر كعادتها على الصخرة القاتلة، لكن "آستر" لفّت

المولود الجديد بالطحلب البحري، وتركت "ميري" مولودها الجديد، الصدع، يعتني به الآخرون.

مشت البنتان إلى الجبل بتؤدة لأن "أستر" ولدت لتوها. كان النسر يرافقهما وهو يحلّق فوق رأسيهما، وعيناه دائماً على الصرّة بين ذراعي "أستر". كان يوازن جناحيه الكبيرين ليجعل لهما ظلاً يقيهما من الشمس. أكان هذا مدروساً؟ وكان النسر بكل تأكيد يحاول حمايتهما أو حماية الوليد. حينما وصلتا إلى الجبل، جلست الاثنتان لتستريحا. أطعمت "أستر" الوليد. وكانت هذه المرة الأولى والأخيرة التي يعطى فيها الوليد حليب أمه. وقف النسر على مقربة منهما، مطبقاً جناحيه، وقد وضع خصلة من ريشه فوق ريشه الأملس : يداعبه الهواء كأنه نسيم ريح باردة.

وبعد أن، استراحتا، أصبحت "أستر" جاهزة للصعود، وهكذا بدأتا الصعود، وحلق النسر فوقهما. هناك وضعت "ميري" ذراعها على "أستر"، وهي تدرك حجم الصدمة وهي تشاهد الوادي المأهول لأول مرة.

كان الوقت مساء. وقد أرسلت أكواخ القصب الطويل المائل ظلالاً قوية على العشب، حيث يقوم الصبيان هناك بمهامهم المختلفة. شاهد أحدهما البنتين، صرخ وهرع جميعهم إلى المكان الذي يمكن أن يشاهدوا منه البنتين وهما تنزلان. تابعا نزولهما بين الصخور الحادة والنسر فوقهما دائماً.

حينما وصلتا إلى الأرض المستوية، جاء الصبيان يتدافعون، وحسب ما تتذكره "ميري" كانت حاجة الجوع في عيونهم بيّنة لهما. شدت "أستر" الوليد بقوة إلى صدرها، وحاولت أن تبتسم وهي تتقدم إلى الأمام، مع أنها كانت مرتعدة وأمسكت "بميري" بقوة. فكل من حولها الآن هم صبيان الوحوش بصررهم المعقدة في مقدمتهم. بدأ الوليد بالبكاء داخل لفائف الطحلب. ألقت "أستر" بالطحلب وأخرجت الوليد لكي يشاهده جميعهم. وهذا هو السبب الذي جاء بها هي "وميري"، ومعهما الوليد، لكنها الآن على وشك أن تقول وداعاً له، فقد شعرت بالفاجعة والوحدة. فلم تتذكر

بأن شعوراً من هذا القبيل انتابها، مع أنها أنجبت وحشاً أُلقي به ذات مرة على الصخرة. أحد هؤلاء الفتيان هناك، كان أمامها، وقد يكون هو الوليد الذي تركوه. تقدم الفتى لأخذ الوليد، وقد تركته "آستر". وكانت على وشك البكاء.

* * *

(هذا التاريخ أبكى "آستر"، ولو أنه لم يدون في أية وثيقة عندنا).

* * *

بسبب بكاء الوليد، تصبب الحليب من ثدييها، وقد خبأتهما بذراعيها وشعرت للمرة الأولى بالحاجة إلى إخفائهما.

ذهب الفتى والوليد إلى حافة الغابة وأطلق صَفْرةً. الآن بدأ الوليد بالبكاء. ظهرت الظبية حالاً، تنفض الغبار عن ذيلها، وقفت تنظر إليهما من بين الأشجار. تابع الفتى سيره مع الوليد وألقى به على الأرض. جاءت الظبية واستلقت بجانبه. لعقت الظبية الوليد. هو من جانبه لا يعرف ما سيفعله. كانت "آستر" ترقب المشهد، أجهشت بالبكاء، وهي تشاهد حنان الظبية. ركع الفتى بهدوء بجانب الظبية والوليد، ودفع وجه الوليد إلى حلمات الظبية. لم يكف الوليد عن البكاء – ثم توقف. كان يرضع بينما كانت الظبية تلعقه. كانت يداه الصغيرتان تمسكان فراء الظبية، وهذا ما جعل "آستر" ترتمي على جذع شجرة كبيرة وتضع رأسها بين يديها. جلست "ميري" بجوارها وأمسكت بها. رضع الطفل وابتهج وهو يلوح بذراعيه الصغيرتين، وبدت السعادة على الظبية أيضاً. وقفت الظبية بعد ذلك وتركت الوليد، وذهبت تأكل العشب في مكان قريب.

الفتى الذي اهتم بحاجة الوليد جلس بجانب "آستر" على الجذع، ووضع ذراعه حولها بفظاظة. ولوحظ بأن كياسته مع الوليد لم تتكرر، حينما حاول أن يلاطف "آستر". وما إن شاهدت "ميري" بأن "آستر" قدمت لها

المساعدة، حتى نهضت ولمست أحد الشبان من كتفه لكي يلتفت إليها، ثم أمسكت بنافوره. تسافد الاثنان وقوفاً. في عصر ومساء ذلك اليوم تسافدت "ميري" معهم جميعاً. وما يجب أن نتخيله هنا برأيي هو التزاوج السريع المرفرف للطيور الذي قد نشاهده جميعاً، حينما نذهب إلى مزارعنا، وبيوتنا، مع مجيء الطقس الدافئ.

راقبت "آستر"، وقد طوت ذراعيها على صدرها، هزت رأسها حينما دعتها إحدى النوافير للقيام بما قامت به "ميري". كانت لا تزال في طمث الولادة، وذهبت إلى النهر لتبحث عن طحلب نهري يمكن أن تستخدمه. أجل، لم يكن هناك ما يشبه الطحلب البحري الذي استخدمته الصدوع، وعملت لنفسها ضماداً. راقبها الصبيان وعندما شاهدوا جريان دمها، بدا وكأنهم يفهمون ما يحدث.

أرضعت الظبية الوليد ثانية وانطلقت إلى الغابة. بكى الوليد. يبكي لأجل أمه : فهمت "آستر" هذا، وهي لا تعرف إن كان الوليد يندب نفسه أم أنه يندب من أجل كل الولدان الصغار (قد يكونون جميعهم هنا حولها) الذين تُركوا بدون أمهات، أو حتى تُركوا بدون أمهات الرضاعة.

حلّق النسر الكبير عائداً إلى عشه في قمة الجبل، راقب كل هذا بعينيه الصفراوين.

كانت ليلة دافئة لطيفة. تناولت البنتان السمك من النهر، وشربتا ماء النهر من الأصداف الكبيرة. استلقتا قرب جذع الشجرة ترقبان جموع الشبان (بعض كبار السن، شُوهوا كثيراً، مع أن البنتين لم تستطيعا تمييز ذلك) وهم يدخلون ملاجئ القصب لينامو ليلتهم المتلألئة الساطعة بضوء القمر، وهذا ما أخاف البنتين كلتيهما، مع أن "ميري" شاهدت الملاجئ من قبل. نامتا غير بعيدتين عن بعضهما. خرج الشبان في الليل من ملاجئهم ليشاهدوا إن كانت البنتان موجودتين هناك، ولأنهما حذرتان، فقد نظرتا إلى الأشجار، ونظرتا في المكان، فهمت البنتان بأن الملاجئ كان لها هدف.

وماذا عن الظبية؟ والوليد؟ كانا هناك مختبئين في الأدغال. وإذا ما نزل حيوان بري من الأشجار، لن يكتب لهذين المخلوقين البقاء على قيد الحياة.

حينما استيقظت البنتان، كان الجميع خارج الملاجئ، التي تتلألأ الآن من أشعة الشمس، وكان الوليد مستلقياً بجانب الظبية التي بدورها كانت مستلقية ومتمددة لتطعمه. وقد أحضر السمك والماء إلى البنتين مرة أخرى (قلما ذاقتا طعمهما من قبل) وأحضرت الفاكهة من الغابة.

لدينا تفسير لزيارة هاتين البنتين، "ميري" و" آستر"، من مدونات الذكور - مدوناتنا – ومن تاريخ الصدوع. لم تختلفا وأصرت كلتاهما بأن ما يريده الصبيان الآن هو دروس في كيفية التحدث. باستماعهم إلى الصدوع تعلموا شيئاً من فظاظتهم.

تعلم الطرفان من بعضهما بسرعة، وكلما تعلموا أكثر عرفوا كم كانت حاجتهم للمعرفة كبيرة.

نظرت البنتان إلى داخل الملاجئ ووجدتا خليطاً قذراً من العظام، كما وجدتا قشور الفاكهة، وضمادات ملقاة من الطحلب. فالذكور خلعوا أغصان الأشجار واستخدموها مكانس لهم. وهذا ملفت للنظر، لعدم وجود أشجار قرب شاطئ الصدوع. فقد كنست الأوساخ إلى كومة كبيرة وأضيف إليها العظام وقطع اللحم من المكان الذي جُلب فيه الأسماك للنسور. وقد كنست هذه الكومة إلى حافة النهر،وألقيت بعدها في جدول التنظيف.

اصطاد الذكور السمك، وقطعوه بالسكاكين المصنوعة من الأصداف، وبحثوا عن الفاكهة في الشجر، وتأكدوا بأن البنتين والوليد الذي بكى قد أطعموا جميعاً. فقد أحضروا عشباً طازجاً للظبية، ولاطفوا الظبية والوليد.

راقبت البنتان كل شيء، تماما كما راقبهم الصبيان. تسافدوا طوال الوقت وكأنما جاءت البنتان لهذه الغاية. وكذلك فعلت "آستر" مع توقف حيض ولادتها أيضاً.

جلست "آستر" و"ميري" على جذع الشجرة والصبيان حولهما، وقالتا جملاً ببطء وعناية، وسهلة للاستماع والتكرار. وكان من الواضح بأن لغتين تتطوران، الأولى يتم تعلمها من هاتين القادمتين الجديدتين، والأخرى سامية وصبيانية وهي اللغة التي يجب أن يتحدث بها المجتمع الأول للصبيان. تحدثوا كما الأطفال، وحتى كالأطفال الصغار، ولم يحبوا ما كانوا يسمعونه من بعضهم البعض. يجب على "ميري" و"آستر" أن تكونا هناك لتعلماهم اللغة، وتعلماهم كيف يبقون ملاجئهم نظيفة _ ثم تتزاوجا معهم حينما تنتصب أنابيبهم وتشير إليهما.

في المدونات لم يذكر الشيء الكثير عن هذا التسافد المستمر، سوى كيف حاول الشبان الذكور الاقتراب من البنات، يمرغونهن ويعانقونهن بل إنهم يلعقونهن، تماماً كما شاهدوا الظبية وهي تلعق الصغار _ وكانت هذه تجربتهم لحب الأم. جميعهم يُلعقون وتمرغهم الظبيات الحنونات. فلا يوجد أحد أحبته أمه. كانوا متعطشين لمن يلمسهم أو يعطف عليهم ؛ فالبنتان اللتان لم تمارسا كثيراً هذا النوع من المودة على شاطئهما، فوجئتا به وسُعدتا.

بعيداً عن هذه المشاهد...نعم، دعنا نسميه حباً، كانت هناك الوحوش الأولى التي تأذت كثيراً من الصدوع. خافوا من الإناث وحاولوا الابتعاد عنها. وخافت البنات منهم بسبب العواطف التي أحسسن بها. العار؟ كل ما عرفنه هو أن هذه التحديقات العميقة الحارة لهذه الذكور المصابة، التي يرجح بأنها من نسلهن، هن من جعلهم يشعرون وكأنهم مرضى.

ثم غادرت البنتان في صباح يوم ما. والدافع الذي جاء بهما إلى هنا، يصعد بهما الآن إلى الجبل ومن ثم إلى شاطئهم.

زمن البدائية عندهم ولت بدون رجعة – وإن لم يكن لديهما فكرة عن ذلك. هذا الملحق غالباً ما يشاهد في مدوناتنا : " ملحق الذكور وليس الإناث "، لكن حينما نقول الآن أشياء مثل " هم لا يعرفون "، " كانوا بدائيين جداً "، " كانوا جاهلين جداً " – سلسلة من عبارات الرفض - حسناً، لسبب ما أتساءل. كيف نعرف ما كانوا يعرفونه، وكيف؟

كان هذا منذ زمن بعيد، حتى وإن كنا لا نعرف هذا الزمن. " عصور " – قد يكون هذا. منذ عصور، هؤلاء الناس البدائيون، أسلافنا، الذين لا تزال أفكارهم تعشش فينا – عندنا أفكارهم التي قيلت في يوم ما، واليوم تكتب – قاموا بهذا وذاك منذ عصور غابرة، لكنهم لا يعرفون السبب. ولهذا نحن نحب أن نفكر الآن.

لدينا الحاجة لوصف المخلوقات بدلاً من وصف أنفسنا نحن الأغبياء، أو المغفلون على الأقل.

لم تغادر البنتان خلسة. فقد طاردتهم عيون الشبان، ولو التفتت البنتان حولهما، لشاهدتا الوجوه التي يملؤها الشوق تقول لهما كل شيء.

ثم هرع الشبان إلى قمة الجبل وراقبوا نزول البنتين إلى الجانب الآخر خلف الصخرة القاتلة – ثم وصلتا أخيرا إلى شاطئهما.

ذهبوا !

متى سيرجعون ثانية؟ متى، عجباً، متى؟

وقفت المرأتان الشابتان على قمة صخرة، تسلقتا إليها بحيث تستطيعان النظر إلى شاطئهما..... وطنهما.... أناسهما. كانتا صدعين..حسناً، لكن وإن كانتا في الوادي مع أناس سُمّوا ذات مرة بالوحوش، تستطيعان بعقليهما التمييز بين الأشياء ومعرفة الفوارق بينها. فهل فكرتا بنفسيهما كإناث، بدلاً من الذكور؟ شابتان. لم تكونا من كبيرات السن، أو من العجائز. كانتا من الناس الذين يمكن أن يُحدق بهم، ولزاماً عليهم هذا التحديق، لأن عقليهما _ بكل دقّة – يزخران بالتمييز بين الأشياء. بدون الذكور، أو الوحوش، لا حاجة للتفكير أبداً بأنهن صدوع، ولا حاجة للإدعاء بما هن عليه إذا لم يكن هناك الذكور.فقد ولد الذكر والأنثى مع ولادة أول وحش صغير، لأنه قبل ذلك الوقت، كانوا أُناساً بكل بساطة.

وقفت الشابتان على الصخرة ونظرتا إلى شاطئ البحر حيث ينحدر نسبهم من هناك. لكن كانت في عيونهما الهادئة والذابلة (سأجعلهما زرقاوين لأن السماء زرقاء والبحار التي تحيط بهما زرقاء) ظلال، وبدقة

ظلال الشبان الذين تركوا لتوهم (ربما من نسلهم لكن من يدري؟)، لكنهم بكل تأكيد أناس، يشبهون الناس الذين كانوا ينظرون إليهما. عدا عن ذلك، إذا كانت الوحوش قد ولدت من هؤلاء الناس هنا ، فإنهم من هذه الأجسام المترهلة على الصخور.

الوحوش.... فكرت هاتان الشابتان مرة بمثل هذا، لأنه لا يوجد شيء آخر يفكرون به.

وقفت الشابتان تنظران وتميزان ما تشاهدانه من نشاط وحركة في الوادي وهما على الجبل. كان المشهد هادئاً وبطيئاً في الأسفل. هناك مكان واحد بدت فيه الحركة والضجة كأنها احتجاج. فالطفلة التي ولدتها "ميري" منذ عهد قريب.....وهنا نجد فكرة جديدة أخرى. متى ولدت هذه الطفلة هناك، ومن هي، وهل يمكن ألا تثار الشكوك حول هذا الوليدة، نصف الوحش، حتى وإن كانت صدعاً؟ وما هي الحاجة وقتها لتحديد الزمن؟ فقد فعلنا هذا في زمن مضى....، ....متى.....لكن جميعهم عرفوا منازل القمر يكون أحياناً كبيراً ومستديراً، وأحياناً أخرى كأنه شريحة شاحبة من ظفر الأصبع، وما بينهما من أحجام. وقد عرفوا جميعاً الشبه بين الفيض الأحمر الذي يماثل حيض الصدوع الأحمر، والقمر حينما يصبح بدراً، وساطعاً وقريباً. لكن، متى ولد هذا الوليد، فهناك تشابه واضح بينه وبين الوحوش (أو الناس) هناك في الوادي.

إنه مشهد بطيء ناعس، بوليدة محرّضة، هي طفلة "ميري"، وقد شاهدت الاثنتان الانزعاج والضجر الذي بدا على الصدع الذي أمسك بالطفلة. فالأطفال لا يتذمرون ولا يقلقون ولا يصبحون مزعجين يسرحون في المكان. فمن الذي تصرف بهذه الطريقة، بكامل حركته وطاقته، إن لم يكن النافور؟

كانت حارسة الطفلة تجلس على صخرة، قريباً من حافة الأمواج، ولم يصعب عليها أن تترك شيئاً صغيراً مثلها ينزلق في الموجة ويضيع. من سيشاهد هذا؟ إن فعلتها إحداهن، ستكون حركة إنقاذه بطيئة

وكسولة. كسولة وضعيفة..... وفي عقل الاثنتين، فهما هكذا، سواء عرفتا هذا أم لا، أو شعرتا بعدم الحاجة للتفكير به، جاءت بكل تأكيد عاطفة جديدة. كان شيئاً مقززاً. كلا، لم تكن جديدة، فقد أحستا بالتقزز حينما شاهدتا الوحش الصغير بأعضائه القبيحة. كلا، التقزز لم يكن شيئاً جديداً، لكن الإحساس به عند النظر إلى الإناث العجائز، كبيرات السن، أجل، هذا هو الجديد.

وفجأة ظهرت صخرة مريحة ومستوية كبيرة أمام البنتين، تدلت جرّاء الاستخدام الطويل لها من قبل الصدوع الكبيرة. فهي صدوع مترهلة وكبيرة، تكدست طبقات من الدهن عليها – جلست البنتان هناك وقد مدتا أرجلهما، وكان صدعاهما سمينين وممتلئين، لهما شعر شاحب ينمو على لُسَينين، وبوليبين • من اللحم الوردي. فكرت البنتان بأنابيب وبروزات الوحوش الصغيرة التي كانت من القبح لدرجة ارتجفتا من الخوف.

بالنظرة العامة إليهم....خطر على بالهما بنفس اللحظة فكرة بزّاق البحر – فهما الآن في البحر، وكأن الماء قد اختار أن يُحاط بطبقات من الماء الهلامي، أشكال هلامية رخوة، لا شكل لهما، طالما تغيرت مع كل موجة، وبداخل هذه الجيوب من الجلد الشفاف ظهرت الملامح الضعيفة للأعضاء، والأنابيب وكتل المادة الفاعلة. وكل شيء ضخم وعديم الشكل له عينان صغيرتان، تشبهان تماماً عينا الصدوع الكبيرة الغائرة في اللحم المترهل لوجوههن، الصدوع الكبيرة التي تتمدد وتغفو على الصخور الدافئة، وجاءت الآن الفكرة في ذهن البنتين، ولعلها المرة الأولى التي يُفكر فيها في هذا الزمن الطويل الذي امتد عصوراً، جاءت الفكرة : " لا أريد أن أكون مثلهم ".....الفكرة التي فجرت الثورات، والحروب، وفصلت العائلات، أو أوصلت حاملي الفكرة إلى الجنون أو إلى حياة فاعلة جديدة...." لن أكون مثلهم، لا أريد ". ارتجفت "ميري" و"آستر" من فزع ما شاهدتاه. الفزع الذي أصبحتا عليه. وكان البحر في هذه الأثناء ساكتاً ومتراخياً ومتكاسلاً، تدمدم حوافه الصغيرة، لم يكن ساكناً، ولا

• بوليبين : مشى بوليب ، قطعة لحمية صغيرة ، والكلمة دارجة في اللغة الطبية

يمكن أن يكون هكذا، لو لم يهرب بنفسه من العاصفة. فصوت البحر المتكاسل المحبوب، كان في آذانهم دائماً، وفي حياتهم، لكن فوق الجبل حيث تبعد شواطئ البحر، كان الصوت غائباً. فهناك صوت الريح التي تتحرك مضطربة في الأشجار، أجل، أو صياح النسور، أو صوت غوص السمك الكبير في النهر، الذي يندفع بقوة، لكنه ليس صوت هذا الضعيف المتراخي المنتكس الهامس.....حاول الوليد الوقوف بين ذراعي المربيّة....لكنه لم يبلغ العمر الذي يستطيع فيه الوقوف....أية فكرة كانت تلك؟ تم تربية الصغار بخلفياتهم المثقوبة، وكبروا وزحفوا وعليك أن تراقبهم، وإلا سيزحفون في الأمواج.... فعل بعضهم هذا، وبعضهم كان هذا ديدنه....ثم مشوا وركضوا وأصبحوا صدوعاً، أصغر من الصدوع الكبيرة لكن يشبهونها. لكنهم لم يكافحوا، ويحاولوا البقاء صغاراً.

وصلت "ميري" إلى وليدتها في الوقت الذي كادت فيه المربية الضجرة أن تلقيها في أعلى الموجة. قالت المربية، " أجل، خذيها، خذيها عني. أية طفلة هذه؟ " وانطلقت تنقل انزعاجها للآخرين من أبناء جلدتها _ فقد كانت الأصغر بين الصدوع اللواتي لم يكنّ.

كان الوليدة بين ذراعي "ميري" قوية جداً. ولم تستطع أن تمسكها بسهولة. كانت "ميري" تمتلك الحليب لأنها حامل : أثداء الصدوع عادة مليئة بالحليب. وكن يرضعن أي وليد يحتاجه، ولم تكن هناك مشاعر تخصني، أو لا تخصني - بين هؤلاء الناس القدامى. شراستي، حسناً، لا بد أنها جاءت من مكان ما، طالما أنها موجودة بشكل واضح، وبحدود معرفتنا كانت معنا دائماً. دائماً؟ هؤلاء الناس الذين عفا عليهم الزمن، الناس الأوائل، الصدوع، لم يفكروا، أو لم يفكروا كثيراً بأنا وأنت وهو. أو هذا ما اعتقده.

جلست البنتان بين أبناء جلدتهما، وبين أقربائهما، كالمعتاد، ونظر الآخرون إليهما بمن فيهم العجائز اللواتي تمددن كالبزاق الذي انحسر عنه البحر. كانت العدائية واضحة في عيونهن حينما يركزن نظرهن عليهما.

في تلك الليلة ذهبت البنتان إلى إحدى الكهوف الفارغة، كأنما ناقشتا هذا وخططتا له. فهما لا تستطيعان تقاسم الكهف مع الآخرين : وليس هناك سبب لهذا. كانت هناك مجموعة من الكهوف الفارغة، فسكانها المحتملون هم وراء الجبل في الوادي. هذا الكهف على مقربة من حافة الجرف، ويطل مباشرة على الشاطئ. ومن مدخله تشاهد مداخل الكهوف الأخرى. ويمكن أن تدافعا عن نفسيهما جيداً. كم كانت فكرة حزينة، حينما لم يكن لها مثيلاً من قبل في ذهنيهما.

الشابتان كلتاهما حاملتان، وقد أنجبت "ميري" وليدها الأول من الشبان: أول مولود من النوع الجديد، كاد يُسمح له بركوب أعلى موجة كبيرة.

حينما انتفخت الاثنتان بالحمل الجديد، ذهبت كلتاهما إلى كبيرات السن، والعجائز، وأخبرتاهن بأنهما حين تضعان هذين الولدين الجديدين فإنهما سيكونان نصفي وحوش، ويشبهان المولود الأول "لميري" الذي سُميّ بالمولود الجديد. كل العيون الغائرة المريبة حدقت وطال تحديقها، والوجوه الهرمة بدت مرتعشة اشمئزازاً ــ لكن لم يتفوهن بكلمة.

الشيء الآخر الذي حدث كان مفاجئاً وعنيفاً. ولَدت اثنتان من الصدوع الشابة وحوشاً في الوقت ذاته. كانتا على الصخور قرب الشاطئ. طلبت الصدوع العجائز رمي الوليدين الجديدين في البحر، لكن كانت "ميري" و"آستر" هناك على الفور، قبل أن يُحرر الوليدان من والدتيهما، اللتين كانتا تصرخان للتعبير عن خيبتهما وخوفهما على طفليهما. حملت "ميري" طفلتها الجديدة على ذراعها، وحملت المولود الجديد الوحش على الذراع الأخرى، اختطفت "آستر" الوليد وركضت الاثنتان بأسرع ما لديهما إلى الصخرة القاتلة ـ تذكرتا بأن الركض لم يكن شيئاً قد اعتادتا عليه ــ كان هناك نسران ينزلان من جبلهما. جاءت بعض الصدوع الشابة محتشدة من شطآنها لترقب كيف ستحلق النسور بالوحوش الجديدة.

وقفت "آستر" و"ميري" هناك على حافة الصخرة القاتلة هادئتين واثقتين، وإن كانتا في خطر.

الآن بدأت البنتان تحدّثان الصدوع الصغيرة عن الوحوش الكبيرة التي تعيش هناك وراء الجبل. قالت لهم "ميري" و"آستر"، هم أناس مثلنا تماماً، يتكلمون بتؤدة لأنهم لا يستطيعون استيعاب هذه الأفكار لصعوبتها. هم أناس مثلنا ولا يختلفون عنا بشيء سوى هذه الأنابيب والكتل التي في مقدمة أجسامهم، **وهي** التي تأتي بالأطفال الجدد. وقد وجدت لهذه الغاية. هذا ما قالته "ميري" و"آستر"، وهما تقفان هناك أمام الآخرين، تواجهان نظراتهم العدائية، ووجوههم المهدّدة.

الآن أمضت الاثنتان وقتهما في مدخل كهفهما الكبير، بتهويته الجيدة وأرضه الرملية النظيفة، وجدرانه التي تلألأت بالصخور البلورية من المنطقة. كان تملؤه أشعة الشمس عند مغيبها : هذه الكهوف وجهتها الغرب : هذه الكلمة، أو الفكرة لم تكن معروفة عند هؤلاء الناس – عندنا –...حسناً، لن يعارضني أحد إذا قلت منذ آلاف السنين.

كانتا هناك في الخارج، بدلاً من برودة الكهف في الداخل، لأنهما تستطيعان مراقبة ما يجرى هناك على الشاطئ، شاطئهما. كان شاطئهما لكنهما الآن خائفتان. فالبنتان على وشك الولادة، والطفل، المولود الجديد سيراه كل من اختار أن ينظر إليه بنظرته العدائية. هناك في الأسفل عرفت البنات بأن هذه الصدوع قريبة منهن، وتشبههن ومن جلدتهن – وكسلهن حال دون الاستمرار المنظم لمراقبة ما أخافهن: "ميري" و"آستر". كسل أخواتهن يعني بأن "ميري" و"آستر" كانتا في مأمن منهن. الأخوات : هذه الصدوع هناك في الأسفل ليست مجرد أقارب، وإنما أخوات. وقد تكون لك أخوات دون أن يكون لك إخوة، مع أن كلمة " أخوات " تحمل في طياتها سلفاً الإحساس بشيء مقابل •.

ما هذا المشهد الكسول الناعس، هناك على الصخور في الأسفل. تستلقي الصدوع وتغفو، إلى أن تأتي موجة بعد موجة ترش أقدامهن بالماء

• المقصود هنا وجود أخوة - المترجم

البارد. ثم يتثاءبن، وينزلقن في الأمواج، يسبحن قليلاً، ثم يرجعن صاعدات ليسترخين على الصخور.

كانت فوقهن فتحة الكهف الذي جلست فيه الأختان العاشرتان "آستر" و"ميري" تؤرجحان الطفل، المولود الجديد. هزتا للطفل ولاطفتاه أكثر من أي طفل آخر، لكن الأطفال السابقين لم يبكوا ويضطربوا بينما بكى هذ الطفل واضطرب. حاولتا إسكاته ولم تريدا أن تثيرا انتباه أخواتهما هناك في الأسفل. لكن لم تكف هذه الوليدة عن البكاء، وكان صوتاً يهز تلك الأعصاب الهادئة الكسولة غير المعتادة على مشاعر الغضب والانزعاج. لماذا بكت كثيراً، هذه الوليدة الأولى من جنسنا، من جنسنا نحن البشر – وإن لم يخطر على بال الاثنتين تلك الفكرة، ما دامتا تشككان بوجود شيء جديد هنا، مع المولودة الجديدة.

ما هذا الصدع الجديد الذي يملك بداخله مادة من الوحوش؟ فالأطفال يبكون حينما يشعرون بالجوع أو يريدون الغطس في الأمواج، أو السماح لهم بقليل من السباحة. فهؤلاء الناس يمكن أن يسبحوا قبل أن يمشوا لذلك تجدهم في الماء دائماً في موطنهم. فالصغار كما العادة لا يبكون. لكن هذه المولودة تئن أو تنوح وكأنما انكسر قلبها الصغير. فهل هذا النوع الجديد من الصدوع، هو شخص جديد، يعي طبيعته الجديدة الغريبة؟ كان نحيبها شيئاً يشبه الحزن، لكن الحزن لم يكن شيئاً محبباً لدى هؤلاء الناس. فهم لم يحبوا بعضهم بهذه الشدة والخصوصية، ولم يقولوا أيضاً " أحتاج إلى هذا فقط وليس غيره "، ولم يرغبوا بسماع " أحتاج إلى هذا فقط ".

بدون " هذا فقط "، وبدون الحاجة والاشتهاء للآخر، والآخر فقط، لن تظهر بعض أنواع الحزن.

لكن هذه الوليدة بدت عليها العزلة، ويعوزها شيء، وقد شعرت البنتان بعاطفة جديدة مع مجيء هذه المولودة بسبب بكائها.

الأفكار والعواطف والكلمات والأفكار التي عششت جميعها في عقولنا نحن البشر، بمنتهى الراحة وبدون إجهاد على الأقل، تقدم نفسها

الآن لهذه الصدوع الشابة، لتصبح قلقة ومضطربة تجلس هناك عند فتحة الكهف.

ثلاثتهم، البنتان ورضيعتهم سيصبحن خمسة بولادة اثنتين، هذا شيء جديد في عالمنا، شيء جديد، وكان بالإمكان مسحهم من الوجود بسقوط صخرة، أو بتسلل عدو إليهم.....عدو؟ ما هذا العدو؟ العدو شخص يريد إيذاءك. فهذه الصدوع التي في الأسفل تحتشد على صخورها، والعجائز تحديداً هي أعداؤها.

ليلاً، في الظلمة، مع مغيب القمر، ذهبوا إلى مؤخرة أطول كهف، وتوضعوا خلف صخور بارزة، يستبدلونها في كل ليلة. فمن السهل أن يأتي أحد زاحفاً، ومتخفياً إن لم تكشفه النجوم عند مدخل الكهف و.....ثم ماذا؟

هل يرفعون حجراً و.....؟

هذه الأفكار الجديدة يتعذر التفكير بها.

فكرت الاثنتان كثيراً بالآخرين هناك في واديهم. فهم آباء المولودة الجديدة، وآباء لأطفال لم يولدوا بعد، وآباء الوحش الصغير الذي أخذته "آستر" إلى الوادي. آباء....الكلمة التي لم تكن متداولة، لكن الآن لها انعكاسها على صوت الأمهات. إذا لم تكن هذه الصدوع أمهات، ماذا ستكون إذاً؟ كن أمهات الصدوع والوحوش، أمهاتنا جميعاً، أمهاتنا القدامى.

خذ نافوراً غير بالغ، وصدعاً غير بالغ، إذا ما غُطيت أجزاؤهم المتوسطة، لن يستطيع أحد أن يوجد الفارق، لكن سيكون أحدهما الأم والآخر هو الأب. ما هذه الأم التي عرفوها: الصدوع لديها مقدرة افتقدها الآخرون، فهن يستطعن إنجاب أناس جدد. وما هو الأب إذاً؟ يمكن أن يخبروا أي صدع سواء أكانت شابة أم عجوزاً تريد الاستماع، بأن هذه الأصناف الجديدة من الناس يمكن أن تنجب أطفالاً جدداً، لكنهم لا يعرفون ماذا أضاف الآباء لهذا المزيج. وما الذي في أحضانهن، وقريب من أجسامهن، تجده في طفلة "ميري"، المولودة الجديدة.

قد نعتقد بأن الاثنتين كانتا تخططان لأخذ المولودة الجديدة والصعود بها إلى الجبل ومن ثم إلى الوادي– إنه مجرد مسير قصير، لكنهما لم تقوما به. المحرض السري لهما كان صامتاً. فهناك وراء الجبال كان الإخوة، إذا كانت الصدوع في الوادي أخوات، وكانوا آباء. فليس هناك من كبار السن بين النوافير، ليس هناك من شيوخ. حسناً، شيء سهل، لم يكن هناك الوقت الكافي لوجود الشيوخ في الوادي. شاب – عجوز ؛ كان شيئاً سهلاً. أنا – الصدوع ؛ هم – كان الناس يدعونهم في وقت ما بالوحوش.

إن قدوم هؤلاء الناس الجدد أطلق المقارنات في أذهانهن، فكل فكرة لها ظلها.

أما بالنسبة للآخرين هناك في الوادي، فقد اشتاقوا للبنتين اللتين توقعوا نزولهما من الجبل في أي يوم. فقد وضُعت عمليات مراقبة بحيث لو نزلتا ستجدان كل الترحيب، وهناك النسور أيضاً التي ترى كل شيء. كان الصبيان يزحفون أحياناً على التلال الصخرية بحيث يستطيعون مشاهدة الشاطئ. فهم يريدون مشاهدة "ميري" و"آستر" لكنهم لم يميزوا أفراداً آخرين من الصدوع.

الذكور – بقلقهم، ونوافيرهم المتأهبة دائماً، التي تجدها أحياناً كبيرة، وأحياناً رخوة، لكن في معظم الأحيان متصلبة طلباً لحاجتها، لهذا لم يكن ارتطامهم بغابة أو بعشب طويل مبعث سعادة لهم – لا يعرفون بأن نقيصة الجوع والحاجة عندهم كانت تعبيراً عن نوافيرهم هناك في الأسفل، لكنهم شعروا كما لو أن نفوسهم بكاملها تحتاج وتشتهي. قاتل بعضهم البعض لأسباب تافهة، اخترعوا ألعابا تنافسوا فيها أحياناً بشكل خطير. وجد أحدهم نافوراً يقف في الطريق، ويربط خاصرته بريش النسور، وأوراق الأشجار، وبدؤوا يتسابقون فيما بينهم لصناعة المآزر الأكثر جاذبية، وهكذا لبسوا جميعاً أغطية مزخرفة وأبدعوا في التفكير بأغطية جديدة.

ثم حدث شيء غير متوقع : توفي اثنان من أكبرهم سناً. وهما من الوحوش الأوائل، الذين شوهتهم الصدوع كثيراً. راقبوا وصولهما مع النسور، ومع البنات، كانت الصغار تشبههن تماماً، لكنهم غير مصابين أو ممزقين. قاموا بمقارناتهن. علموا وعلم الآخرون معهم بأنهما كانا غير كاملين، وممسوخين. موتهما أبعد عندهن مصدر المرارة – والخطر -، وباختفائهما، أدركوا أنه اختفاء محمود. واختفى شيء آخر معهما – اختفت اللغة الطفولية التي جاءا بها وعلماها للصبيان الأوائل. فقد كانت هناك طريقتان للكلام، الطريقة الصبيانية، وطريقة تعلموها من البنتين الزائرتين. باختفائهما لم يبق اليوم الكثير من اللغة الطفولية. فقد تحدثوا جميعاً اللغة التي تحدثت بها "ميري" و"آستر". وكانا فخورين بأنهما تركا خلفهما هرطقة طفولية، لكن اختفى الاثنان وتواريا، وكان لهذا وقع كبير عندهن،وكأنما غاب أكثر من اثنين، وهل يمكن أن يكونا آخر اثنين من نوعهما؟ تلك هي الفكرة التي لم تخطر على بال الصدوع مطلقاً : كانت لديهن هذه الهبة، أنجبن صدوعاً ووحوشاً جديدة، لكن الصبيان والذكور لا يمكن أن ينجبوا أناساً.

شعروا بالتهديد، أجل، فقد جلبت لهن النسور وليدين جديدين من الوحوش، وكانا ينعمان برعاية الظبية، لكن.....ماذا سيفعلون إذا توفي المزيد منهم؟ كانوا عرضة للهجوم. جاءت الحيوانات أحياناً غازية من الغابة واختطفت صبياً لأكثر من مرة. فالصبيان في أوقات عديدة جرفهم النهر. وهناك قلة منهم : هذه هي حالتهم. فإذا مات اثنان منهم، بدون سبب – عليهم استيعاب فكرة الشيخوخة – لماذا لا يموتون جميعهم؟ فالمدونات التي بحوزتنا عن ذلك الوقت تتحدث عن خوفهم.

جلسوا مراقبين ليلاً ليشاهدوا أي حيوان يخرج من الغابة، وصنعوا أكداساً من الأسلحة يصلون إليها بسهولة. الأسلحة كانت حجارة – فهم يستطيعون جميعاً استخدام الحجارة لصيد الطيور أو الحيوانات. ويستطيعون رمي العصيّ والهراوات، ويمتلك بعضهم المقدرة على سباق الوحوش الصغيرة. لكنهم عرفوا بأن بعض الوحوش التي تتعاضد يمكن أن تندفع إلى واديهم وتأخذهم جميعاً _ وليس لديهم حيلة في ذلك.

حينما جاءت البنات وهن يركضن من أعلى الجبل، لاقين ترحيباً بمئة عناق، لكن بحذر أيضاً : يجب ألا تغفل عيونهم عن الحيوانات المفترسة.

تمت الزيارة بشكل جيد، ابتهج الصبيان وابتهجت البنات أيضاً، فجأة، ما إن تعلق بهن الصبيان دون سبب واضح حتى رجعن إلى شاطئهن. وهناك استوطنّ في كهوف قرب "ميري" و"آستر"، وهذا ما أوجد رواية محلية مفادها **أن** هناك فريقين من الصدوع الآن.

في الوادي، مع ذهاب الصدوع، تناقص عددهم، وحالاً اختفى اثنان منهم : خرجوا إلى الغابة سعياً وراء الفاكهة الشهية، هاجمهم حيوان ضخم لم يشاهدوه من قبل. ركضوا لكن لم يكن ذلك بالسرعة الكافية، ولم يرجعوا بعدها إلى الوادي.

احتشد الصبيان قرب جذع عملاق، يرقبون أطراف واديهم بخوف شديد. وتساءلوا أيضاً إن كان بمقدورهم الصعود إلى الجبل والوصول إلى الشاطئ لإقناع مزيد من الصدوع بالعودة معهم.

بعد ذلك جاءت النسور تحمل معها نافورين وليدين، صغيرين جائعين. لم يكن هناك أية إضافة على أعدادهم لبعض الوقت ؛ وهنا استبدل اثنان بدلاً من الاثنين اللذين اختفيا في الغابة. من سيطعم الوليدين الجائعين؟ فالظبية العجوز لم تشاهد في المكان مؤخراً. والنسور التي جاءت بالوليدين وقفت في أماكنها، ترقب الطفلين اللذين وضعا على العشب وقد أجهشا بالبكاء، وقد وضعا أيديهما الصغيرة في فميهما. كل الصدوع لديها الحليب في أثدائها، بينما هم ليس عندهم. ثم ظهرت الظبية من حافة الغابة ووقفت تنظر إلى الوليدين الباكيين. صرخ الصبيان فرحاً، لكن سرعان ما شعروا باليأس : شاهدوا حلمات الحيوان منكمشة وجافة : ليس فيها حليب. فالظبية عجوز : شَابَ خَطْمُهَا وأُذناها. رفعت رأسها ونظرت إلى الصبيان مطولاً، ثم نظرت إلى النسور. ثم مشت قليلاً نحو الغابة وصاحت. ساد صمت طويل، وما زال يُسمع صراخ الصغار. صاحت ثانية، والتفتت لتحيي ظبيتين شابتين، أنفاً بأنف. بدا وكأنها

تقول لهما ما عليهما فعله، تدانت الحيوانات الثلاثة، ثم وقف ظبيان صغيران بجانب الغزلان الثلاثة وقد أخافهم المجيء. ذهبت الظبيتان الشابتان إلى الوليدين ووقفتا بجانبهما ونظرتا إلى الظبية العجوز - يجزمان أن أمهما – لأنها نظرت بعد ذلك إلى الوليدين، ثم نظرتا مطولاً إلى الصبيان المراقبين. بدأ الظبيان الصغيران بالرضاعة. وحينما جاءت الظبية الأولى العجوز، لتنقذ أول وليدين، كانت قد فقدت ظبيها: لا بد أن يكون هذا : استلقت بجانب الوليدين لتطعمهما. لكن الظبيان لا تستلقي لكي ترضع، بل تقف تحت أمها.

زحف صبي مقترباً من ظبية صغيرة، وقفز ظبي مبتعداً عنه. أمسك بصغيرٍ باكٍ وأمسكه حلمة تقطر حليباً. عرف الرضيع كيف يمسك بها، ورضع قليلاً، لكن الظبية لم تحب ما كان يحدث، ولم يحب ظبيها أيضاً، وقبل أن تبتعد الظبية الصغيرة الأخرى، أمسك الصبي الرضيع الجائع الثاني وأعطاه الحلمة. بهذه الطريقة حصل الرضيعان على بعض جريعات الحليب، لكن برغم اقتراب الظبية العجوز من الظبيتين الصغيرتين، وشمها للرضيع الأول ومن ثم للثاني، بدا وكأن الحيوانات قررت التخلي عنهما. تحركت، لكن قبل أن تغادر اختطف الصبي يقطينة وأخذ بعض الحليب المتسرب، وفعل صبي ثان الشيء نفسه. وكان هناك مقدار ضئيل من الحليب في اليقطينتين.

تحركت الظبية العجوز بتؤدة إلى الأشجار، كانت عرجاء، ويمكن أن يشاهدوها الآن، ولم ترفع رأسها بل كان متدلياً، وذيلها القصير الأبيض لم يعد يتحرك رشيقاً كذيل الظبيتين الصغيرتين، بل كان رخواً ومنحنياً.

هذان الصبيان لم يعد لهما من يطعمهما، لكن الظبية العجوز التي تمرغهما وتلحسهما وتطعمهما، بدأت تعرج مبتعدة عنهما. وقد بكيا على فراقها أكثر مما يبكي الصغار.

ماذا كان عليهما أن يفعلا؟ أدركت النسور الصعوبة، فقامت بتمزيق قطع صغيرة من السمك وحاولت إدخالها في فميهما الفاغرين بالبكاء.

لكن وراء الجبل كان الشاطئ الذي عاشت فيه الصدوع بأثدائها الممتلئة بالحليب.

ركض الصبيان إلى أعلى الجبل، ونزلا إلى الطرف الآخر، مروراً بالصخرة القاتلة، وصلا فجأة إلى الصخور التي يشاهد منها المشهد الكامل للصدوع المتشمسة. شاهدتهما من مدخل الكهف الذي في الأعلى اثنتان منعزلتان ودعتاهما. كانت العجائز مستعدات للجلوس وربما للهجوم أيضاً، وصل الصبيان الكهف حيث "ميري" و"آستر" هناك. عرفا "آستر" التي شاهداها وهي حامل، لكنهما لم يعرفا "ميري" حالاً. حاجتهما الملحة جعلتهما متعجلين، وهكذا انحنيا ليأخذا بعض الحليب من هذه الأثداء، الأثداء التي تحفظ الحياة، أجل، كان هناك حليب. فهمت "ميري" و"آستر" السبب الذي جاء من أجله الصبيان : تساءلتا كيف حصل الرضيعان على غذائهما من الظبية.

سألت "ميري" " ماذا تفعلان؟ " ثم سألتهما "آستر" السؤال نفسه، وأجاب الصبيان، " الحليب، نحتاج إلى الحليب ".

كان هناك تغيّر بين الصدوع الشابة. طبعاً الصدوع التي رجعت لتوها من الوادي لم تستجب، لكن زحف الآخرون في معظمهم إلى مدخل الكهف وسألوا "ميري" و"آستر" عن التجمع الآخر الموجود هناك. وتحدثوا إلى البنتين اللتين رجعتا لتوهن من هناك. أيا كانت الخميرة التي أخذت مفعولها في "ميري" و"آستر"، كانت تتحرك في هذه الصدوع الشابة. يمكن أن نسميها الفضول، لكن ربما هناك المزيد. بكل الأحوال، حينما وقف هناك مبعوثا الوادي يحدقان إلى الأسفل وهما خائفان ومستعدان للركض، نهضت البنت الأولى من مرقدها على الصخرة الدافئة وتبعتها الثانية وصعدتا إلى الكهف هناك حيث تقوم "ميري" و"آستر" بالمراقبة دائماً. أخبرت البنت الأولى بقية البنات عن الوضع. اثنتان من البنات لهما أثداء كاملة. وربما كانتا أُمهات لصغيرين، كانتا تصرخان بأعلى صوتهما في الوادي.

قالت "ميري" و"آستر" "اذهبا معهم "، وبلحظة لم يبق في الكهف الذي يعج بالناس سوى ثلاثة "ميري" و"آستر" والمولود الأول. وجدت الشابتان

والمبعوثان أنفسهم يندفعون بين الصخور. كانوا يحاولون الجري، فهؤلاء الناس لم يمارسوا الجري طوال حياتهم.

كانوا خائفين، طبعاً هم خائفون، فهم يصعدون الجبل الذي ظل دائماً حاجزاً في وجههم. وصلوا الجبل وصعدوا إليه، وجلسوا في الأعالي بين أعشاش النسور، ينظرون إلى الوادي العريض، الذي يلفه النهر الغزير. نزلوا إلى سفح الجبل بمساعدة الصبيان، وأصبحوا في وسط الوحوش، التي كبرت الآن، أو على الأقل بحجمهم، وقد دفع إليهم بالصغار العراة، بالوحشين كليهما، لهذا كان عليهم أن يتجاوزوا النفور منهما وحتى الخوف.

ارتبط الرضيعان بتلك الأثداء، طالما حاولا في وقت سابق الإمساك بحلمات الظبيات، وتغذيا، بينما وقف كل من في المكان يرقب النوافير الصغيرة : لم يشاهد أحد قط وليداً يتغذى من ثدي. شبع الرضيعان، وأخذهما الصبيان، ووضعوهما داخل ملجأ لكي يناما. في هذه الأثناء قدّم للبنتين شيء من ماء النهر، وبعض الفاكهة والبيض الذي طبخ بحجر مجوف تحت أشعة الشمس.

ومن ثم بدأت الألعاب التي أخبرتهم عنها "ميري" و"آستر" ، ألعاب النافور والصدع، مبتدئة بالسرعة والعجلة، وطالما شبع الصبيان كما شبع الرضيعان اللذان أمامهم، استمروا في العاب الفضول.

" ماذا عندك هناك؟ "، " ما حاجتك إليه؟ " " وأنت – ما هذا؟ أيمكنني أن أضع أصبعي فيه؟ " وهكذا، تبدد الخوف لدى الصدوع من الوحوش وبدؤوا يسحرونهم.

أما بالنسبة للوحشين الجديدين أو النافورين، عاشا وكبرا وأصبحا مشاغبين كما كان أول وحش في الكهف مع "ميري" و"آستر".

رجعت هاتان البنتان إلى شاطئهما ما إن انتهى وقتهما، وبعد هذا مباشرة ولدت "ميري" و"آستر"، الأولى ولدت صدعاً والأخرى صبياً – كلمة صبي لما تستخدم بعد.

كانت العجائز خائفة وغاضبة – وحاقدة. قالوا بأن كل أنثى تلد يجب أن يوضع لها حارس أو مراقب يقتل أي وحش صغير يولد.

نجحوا في قتل أحدهم. وظهرت النسور على الفور تحلق على انخفاض فوق رؤوس الصدوع الخائفة. عندئذ طلبت العجائز قتل النسور. وهذا مضحك. كيف تقتل النسور؟ حينما التقطت إحدى الصدوع حجراً من الشاطئ وقذفت بها النسر الجالس، انزلقت الحصاة فوق منحدر ريشه اللامع. وقام النسر بقذفها بمخالبه على الأمواج. سبحت : كل واحدة منهم تعرف السباحة. لكن جلس حينها الطائر الكبير على الصخرة التي أراد الصدع الصعود منها ودفع بها إلى الخلف، وحينما تحرك إلى نقطة خروج مختلفة تحرك الطائر أيضاً. كان الصدع على وشك الغرق من الإعياء، حينما حلق الطائر في الهواء تاركاً دياره. شاهد الجميع هذه المعركة الصغيرة، وما تعنيه كان شيئاً مرعباً لهم. كل شيء بدا جديداً ومخيفاً. قتال....عداوة.....عقوبة. جلست الإناث العجائز في مكان مرتفع ليشاهدن بشكل أفضل، أفواههن فاغرة من اليأس، وعيونهن المنتفخة قليلاً تملؤها الكراهية.

ليس هناك قضية، عليهم أن يعرفوها، محاولة قتل النسر. قررت الطيور منع وقوع جريمة طفل آخر. وكان هناك مدافعون آخرون جدد : البنتان اللتان رجعتا لتوهما من الوادي تعاطفتا مع النوافير. وحينما برز المخاض والولادة، تهيأتا لاختطاف الوليد بمجرد ظهوره لتسليمه إلى النسور المنتظرة.

كان هناك دائماً القليل من جنس الصدوع الكبيرة. كم عددهن؟ لكنهن لم يقلن – أو أن هذا لم يدوّن – " كنا ستين ونحن اليوم أربعون، أو حتى، " كنا كثيرات واليوم قلة قليلة ". لم يقلن، " كانت الكهوف في يوم ما مليئة واليوم يشغل نصفها ". نصف هو مفهوم مُسلّم به. لماذا يسلمن به؟

في معسكر الذكور في الأعلى، أحضروا الصغار الجدد، وانتظروا وصولهم إلى مخالب النسور.

تحدثت "ميري" و"آستر" أثناء حملهما عن الذكور وعن الحياة التي يهبونها والتي تختلف كثيراً عن هبة الصدوع ". فكرتا بالوادي – بكلمة نعم، أعتقد يمكن أن نسميها " المودة "، مع أنهما لم تستخدما هذه الكلمة أو مثيلها. ولم تشغلهما الولادات أكثر مما شغلهما استعدادهما للرحيل. فلم تفكرا بالذهاب منذ زمن بعيد، لكن وقتها عليهما أن تفكرا به جيداً. عليهما أن تفكرا به. من بين كل هذه الألغاز، يبقى هذا اللغز مهماً كأي لغز آخر.

لكن الرحيل ليس سهلاً الآن، وليد "آستر" سيؤخذ أيضاً، إذا لم تريدا إيداعه عند النسر. وهما غير قادرتين على ترك طفلة "ميري" خلفهما كما فعلت ذلك من قبل. وهما بكل تأكيد غير قادرتين على ترك المولودة الجديدة على الشاطئ هذه الطفلة الذي تخطو لتوها؛ ومن غير المحتمل أنهما عرفتا بأنها ستبقى حيّة إلى حين عودتهما. الوليدة الجديدة لمير، وصبي "آستر"، والمولودة الجديدة يجب أن يذهبوا جميعاً. دعت البنتان بعض الصدوع الصغيرة التي أبدت اهتمامها بالوادي للمجيء أيضاً. أربع نساء شابات، مرت إحداهن بالصخرة القاتلة وهي تمسك بالمولودة الجديدة – الصخرة التي لم يقتل عليها أحد منذ زمن طويل – ثم تابعن مسيرهن إلى أعلى الجبل. حينما وصلن إلى القمة، سمعن صراخاً وهتافاً من قاع الوادي، وجاء الصبيان يركضون لاستقبال البنات – اللواتي عليهن الدفاع عن أنفسهن، وإلا سيتعرضن للخطف (هذه الكلمة والفكرة لم تظهر إلا بعد حين). بحفظ أنفسهن من خطر الصبيان الجائعين استطعن الوصول إلى قاع الوادي، السجل الاجتماعي الكبير. هناك حدث شيء يوضح الإحساس الجديد، الذي ظهرت بداياته وأبلغت عنه سجلات الطرفين. وقد وصلنا في وثائق تالفة باهتة نسميها التاريخ.

التزاوج الأول "لميري" كان مع نافور لم تر وجهه، ولم تره حتى الآن، في حين عرفها هو باقترابها منه. لكن الوليدة من هذا التزاوج كانت هنا، وبين ذراعيها، ويستحيل على أي شخص تجاهلها، أما وجهها، وجه هذه الوليدة الصغيرة فقد كان مشابهاً لوجه الذكر الصغير. يستحيل ألا

تلحظ هذا : كلهم لاحظوا ذلك. في البداية كان هناك صمت، لكن سرعان ما انكسر، فقد اقترب جميعهم للمقارنة بين الوجهين، الأول وجه بنت صغيرة أو وجه صدع صغير، والآخر وجه الشاب. الزوج الأول "لميري"، صاحب الوجه الناضج، لم يفهم هذا على الفور. فالمرايا لم تخترع أو يفكر فيها بعد. فقد عرف الناس كيف يبدو الآخرون، لكن لم يخلق الكثير من ذوي الأنف الكبير والعينين المتقاربتين. لكن لا بد أن يشاهد الجميع وجوههم بشكلها الواهن الكسول المنعكسة على مياه النهر، أو حتى في محارة كبيرة مملوءة بالماء وجاهزة لإرواء العطش. هذا الذكر الصغير الذي كان وحشاً ذات مرة وأصبح الآن شاباً وسيماً، وقف يتلمس وجهه، ومن ثم تلمس وجه الطفلة التي سُعدت بما لاقته من اهتمام. وما إن أدرك الأب ما تعنيه هذه الوجوه المتشابهة، حتى اختطف الطفلة من "ميري"، وركض بها إلى ضفة النهر. تبعه الجميع وهم يرقبون الشاب وقد ركع بجانب النهر الذي شكل حوضاً هناك، ونظر إلى نفسه ونظر بعدها إلى الطفلة، التي كان وجهها منعكساً في الماء أيضاً. ثم أعاد الطفلة إلى مير، ومضى إلى الجذع الكبير مضطرباً ومنبهراً حيث جلس هناك وجلست "ميري" بجانبه ومعها وليدها الأول ولم يكف عن النظر إليها وإلى الطفلة، ومن ثم يرفع يده ليلمس وجهه. وكان في حمى الفرح – كما كانوا جميعاً.

شكل هؤلاء الثلاثة أسرة واحدة، كما عرفنا، لكن لا نعرف ما يمكن أن يجنوه من هذه العائلة. حينما انتهت الوجبة المسائية ، وحل الظلام على الوادي، ذهبت "ميري"وهذا الشاب والطفلة إلى الملجأ بأنفسهم. وظهر جلياً هذا النوع من التواصل فيما بينهم، لكن ما هذا التواصل؟ وماذا يعني؟

البنات اللواتي جئن لمساعدة "آستر" و"ميري"، استضفن الشبان، وتحدثن جميعاً عن هذا اللغز العظيم، فهذا التزاوج قد يعطي وجهاً مكتملاً لتلك الطفلة.

هذه الزيارة إلى الوادي أُبلغ عنها وكُتب الكثير عنها لاحقاً، ولا يمكن أن تُنسى، وقيل عنها الكثير، ويمكن أن نسمي هذا تأملاً: يمتلك الناس الجدد، أي الوحوش الكبيرة السابقة من القدرات ما لم تمتلكه الصدوع الكبيرة. أجل الصدع الصغير قد يشبه أمه - فهناك أمهات وبنات في المجتمع البدائي – لكن الآن بدأ الناس على الشاطئ ينظرون بعناية إلى كل وجه.

في تلك المرحلة المبكرة لم يقع الاختيار على أي صدع للبقاء في الوادي. فهناك اقتراح بأن الوادي دافئ جداً، وأن الملاجئ صغيرة وغير مريحة. أما الكهوف فهي واسعة وفيها تهوية جيدة وينعشها نسيم البحر.

انطلقت البنات إلى الوادي حينما توجب عليهن ذلك، ورجعن وهن يعرفن بأنهن سينجبن. انتظرهن الصبيان. قامت النسور بنقل الوحوش إلى الصبيان، والآن لم تعد الغزالة تطعمهم، وقد أحضر الصبيان الصدوع. حدث هذا كله لكن لا نعرف زمانه. توقف تفجع الصبيان من تناقص أعدادهم : أيا كان السبب، فقد وُلد الصبيان الصغار. متى كان هذا؟ ومن يعرف الآن؟

***

والآن هذا المؤرخ يواجه صعوبة، ترتبط بالزمن مرة أخرى : الزمن الأطول بكثير من الشكوى التي ذكرت.

نحن الرومان قسنا الزمن ورسمناه واستحوذنا عليه، ويستحيل علينا أن نقول، " وبعد ذلك حدث "... لهذا سيكون لدينا السنة والشهر واليوم بشكل ثابت، فنحن أناس عارفون، لكن وقتها كل ما نعرفه من أحداث هو ما قاله لنا رواة بعينهم، المكررون، الذين تحدثوا إلى هؤلاء الذين تحدثوا ثانية ويجب أن يذكر كل ما اتفق عليه منذ زمن بعيد.

هذا المؤرخ لا يمتلك وسائل معرفة الزمن الذي بدأت فيه قصة الصدوع بالتطور. حينما ذُكرتْ "ميري" و"آستر" لأول مرة كانتا صدعتين شابتين،

كما الصدوع الأخرى، ومن ثم فكرتا بنفسيهما كأنثيين، حينما دفع بهما مجيء الذكور للمقارنة والموازنة، لكنهما كانتا في معظم المدونات معروفتين بأنهما من أفضل أشكال الماضي السحيق. شهرتهما، في حكايات الذكور والإناث على حد سواء، وحقيقة أن "ميري" هي التي جاءت بالمولودة الأولى، يعني بأن كلماتهما سمعت ثم دُوِّنت. لكن سرعان ما انتزعت منهما صفة الأنثيين الشابتين وأصبحتا مؤسستين لعائلات وعشائر وقبائل – وتطورتا في مرحلة ما، وتحولتا بعد عهود لاحقة إلى آلهة. نعرفهما بأسماء مختلفة، لكن إحداهما ترتبط دائماً بالنجم الذي يرعى الحب والسحر الأنثوي، والأخرى لها سمة القمر. لهما تماثيل في كل بلدة، وفي كل ساحة، وفي كل فسحة، وعلى مفارق الطرق. مبتسمات، رحيمات، وملكات بفطرتهن. وكانت آرتميس وديانا وفينوس وغيرها، من أكبر الشفعاء لنا في السماء؛ نحبهن، ونعرف أنهن يحببننا. لكن قد يقول المسافرون بأنك قد تجد الآلهة القاسية والحاقدة بجولة قصيرة على ظهر الحصان أو بالمشي لأيام معدودة.

كم مضى من الوقت حتى أصبحت "ميري" و"آستر" مقدستين؟ ليس لدينا فكرة.

لكن الشيء المؤكد : أنه مرة، ومنذ زمن بعيد، كانت هناك امرأة شابة حقيقية ربما سميت مير، ومن ثم جاءت أخريات كن الأمهات الأوائل لجنسنا، يحملن في أرحامهن الصغار الذين كانوا صدوعاً وجنساً آخراً، وكلاهما مادة للناس الأوائل، الذين يُعتقد الآن بأنهم، جاؤوا من البحر – الناس الجدد الذين جلبوا معهم القلق والفضول.

* * *

البنتان اللتان ذهبتا إلى الوادي ورجعتا حاملتين، جلستا في مداخل الكهوف وحرستا طفليهما اللذين يختلفان كثيراً عن الآخرين. مشيا باكراً، وتحدثا باكراً، ويتطلب مراقبتهما في كل لحظة. نظرت والدتاهما إلى بقية القبيلة على الصخور، وعرفتا بأن طفليهما يحملان

ميراثاً مزدوجاً، ولاحظتا بأن النوع القديم من الأطفال كان بليداً، وسهلاً وقليل البكاء، يجلسون حيث يجلسونهم ؛ ينشطون حينما يوضعون في الماء فقط، حيث يسبحون هناك بدون خوف.

حينما أرادت الأمهات الجدد السباحة، ذهبتا سوية، وهما تحملان طفليهما، واختارتا أحواضاً لم تستخدمها بقية الصدوع، وانقسمتا إلى نصفين، نصف يرقب دائماً ما يفعله النصف الآخر.

وحدث شيء آخر، وقلما ذُكر في التاريخ القديم. فقد سلّم به دون جدال، وهذا يعني بأن النار يجب أن تكون موجودة هناك منذ زمن بعيد.

في الوادي اشتعلت النار دائماً، ولم تكن بعيدة عن تجمع الناس، حافظ على توهجها مراقبون معينون. واشتعلت النار حالاً خارج الكهوف. وهذه النيران التي ظهرت كانت سبباً لطرح المقاييس الزمنية الممكنة التي أشير إليها.

لم تكن هناك نيران على الإطلاق – لا في الشاطئ ولا في الوادي – ومن ثم كانت هناك نيران دائمة. وحينما ظهرت النار لأول مرة شكل هذا صدمة لهم كصدمتهم في مجيء الصغار الجدد الذين ظل مجيئهم سراً غامضاً.

لماذا النار فجأة؟ شاهدوا لأجيال عديدة برقاً يقدح شرارة من حافة الصخرة ويشعل الأوراق اليابسة، أو برقاً أشعل بقعة من العشب اليابس، وجذعاً قديماً اشتعلت فيه النار وظل يحترق لأيام عديدة. كان أحدهم يمشي في الغابة وقد زلت قدمه في منطقة سوداء في أرض متشققة، وبقايا متفحمة من الحيوانات الصغيرة. وربما شاهد أحدهم جرادة تطبخ على لهب، أكلها، فكر : إنها لذيذة. هل جربوا الفأرة المشوية أو بيض الطير الذي يُطبخ في تجويف صخرة واللهب يتصاعد من تحته؟ لكن لم يفكر هذا الشخص ولم يفكر أي منهم بهذا : سأنقل جزءاً من هذا الجذع الملتهب إلى المكان الذي نعيش فيه وسوف يدفئنا ليلاً، ويطهي طعامنا.

ثم استحوذت عليهم هذه الفكرة التي دخلت في ذهن أحدهم، أو في أذهانهم جميعاً - واشتعلت نار كبيرة في أسفل الوادي، واشتعلت أيضاً

خارج مداخل الكهوف في ملجأ صخري كبير جلس الناس الأوائل بجانبه. لم تكن النيران موجودة لزمن طويل، ثم جاءت النار، ليشوى بها الجوز والبيض، وربما الطيور التي وضعت البيض.

النوافير لم تكن من هؤلاء الناس، ولم تكن من الذكور الأولى، لكن سيعرفون بهذا الاسم، كما عرفت الوحوش بهذا الاسم. ظلت الذاكرة تتذكر تلك الظبية التي أطعمت الطفلين المتوحشين الأولين وأدفأتهما. فهناك أناس النسر،وأناس الغزال، لهذا أيا كان اللحم المشوي على النيران الأولى، لم يكن من النسر أو الغزال.

قد نلتفت إلى الوراء بسهولة الآن، ونشاهد الشبان الأوائل الذين التفوا حول النار الكبرى، وتأملوا هذا اللغز – الذي لا نعرف كيف نجيب عليه – الذي ظل لعهود – لزمن طويل، وبقدر ما تحب – هؤلاء الناس الأوائل شاهدوا النار تبحث عن شي في الأدغال، تثب فوق الأشجار، تبرق من الغيوم، شيء ألفوه كما ألفوا ماء النهر، لكن لم يفكروا يوماً بترويضها، لكن قاموا بهذا "فجأة". قد تكون كلمة "فجأة" ليست الكلمة الصحيحة، وقد تكون الكلمة الصحيحة "بتؤدة". ما الذي سبب هذه التغيرات، حيث يبدو الشيء مستحيلاً ومن ثم يصبح ليس فقط مسموحاً بل ضرورة؟ أقول لكم بأن التفكير بهذه الظاهرة سيفضي إلى الاضطراب الذي سيبعد عنك النوم ويجعلك تشك بنفسك. فالأشياء التي كانت مستحيلة في حياتي أصبحت اليوم مقبولة لدى الجميع – ولماذا. ولكن لماذا؟ ألم يفكر الناس الأوائل قط، "عرفنا النار كجزء من حياة الغابة، لكنها اليوم تزيد من أعدادنا – كيف حدث هذا؟ ليس لنا مدونة عن هذا؟

في هذه الأثناء لا يزال الذكور الشبان قلقين على أعدادهم في الوادي. فالنار بمقامها الرفيع لم تُضف إلى أمنهم. والأخطار في الغابات لا تزال قائمة : خنزير مهاجم، أو دب غاضب، وأفعى ليس لديها الوقت للابتعاد عن طريق تلك الأقدام الحافية ؛ صخرة تتدحرج من سفح التل، وشخص لم يعتد على إشعال النار، يضع حفنة من العشب المشتعل في

مكان غير مشتعل، ولا يهرب لتجنب قفز النيران ومحاصرتها له ؛ سم النباتات وعض الحشرات. والنهر الذي يجري هناك غزيراً سلساً يجرف معه طفلاً متهوراً.

هناك مدونة تقول بأن النار جلبت معها الغضب والتوبيخ من "ميري" و"آستر". اقتحم طفل النيران وهو يخطو لتوه : لم يقف في الوقت المناسب. قالت لهم "ميري" أثناء زيارتها لهم، بأنهم كانوا غير متماسكين. فقد اشتكوا من قلة عددهم، ومن قلة جلب الصغار لهم من قبل النسور، لكنهم لم يرقبوا أطفالهم الصغار.

وهذه ليست المرة الأولى التي يوبخون فيها.

قبل هذا، نزلت ظبية صغيرة إلى حافة النهر لتشرب، وزحف خلفها أحد الصغار الذين كانت تطعمهم. ما إن وضعت الظبية خطمها في الماء لتشرب حتى بدأ الصغير يقلدها ويفعل كما فعلت أمه – هذا ما حدث - اتكأ فوق الحافة وسقط.

" لماذا لا تضعون أناساً يرقبون أطفالكم، لماذا لا تحرسونهم؟

تاريخ الإناث يدون شكوكهن : هن لا يفهمن هذا الإهمال لدى الصبيان الذين يقومون بأشياء خطيرة وحمقاء.

هناك ملاحظات في مدونات الإناث بأن الصبيان كانوا خرقى، وينقصهم الإحساس بما يدور حولهم، وحمقى لا يفهمون بأنهم لو فعلوا هذا، سيتبعه ذاك.

لكن طوال هذا الوقت – ومن يعرف كم استغرق هذا؟ - التهديد من مخاطر الغابة استمر بشكل أسوأ من مخاطر النهر والنيران – إنها عداوة العجائز، وقسم من الصدوع اللواتي يناصروهن. لدينا تدوين لحادثة تحمل صفة الاحتمالية، لهذا يصعب تشابكها مع بقية الأحداث.

صعدت أنثى عجوز إلى قمة الجبل " لترى بأم عينها ". لدينا الكلمات بحرفيتها، وكم تحمل هذه الكلمات من إيحاء؟ وكم كان عقلاً مشككاً، يسمع من الصدوع الشابة كل أنواع الوصف للأحداث التي

تجري في الوادي، الذي عاشت فيه الوحوش وكبرت. وكان جلياً بأنها لم تصدق ما سمعته. فمن الصعب علينا أن نتصور ذلك العقل القديم المحترس. فقد كانت إحدى الأنواع التي عاشت لعهود طويلة على حافة ذلك البحر الدافئ، ولم تغادره أبداً، وكان أفق تفكيرها لا يتعدى الجبل الذي يلف عالمها. أجل، كانت تنظر دائماً إلى مشهد المحيط والأمواج والحركة، وما ينتج عنها. لكن كيف لنا أن نتخيل عقلاً بأفكاره المحدودة التي لا تتعدى الشاطئ الصخري؟ فهذه المخلوقات لم تفعل شيئاً طوال حياتها أكثر من النزول من كهفها والذهاب إلى الصخور للاستجمام تحت أشعة الشمس، ومن هناك تسترخي في البحر ثم تعود ثانية، قلما تحركت في حياتها، وقررت الآن الذهاب إلى الجبل " لترى بأم عينها ". فهل رقصت للحظة في عروقها تلك الجرعة من الحمى الجديدة التي غيّرت بعض الإناث الشابات إلى الأبد؟

أم أنها لا تملك فكرة عن صعوبة تحركها، وهي التي لم تتحرك أبداً؟

فقد تغيرت المشاهد التي عرفتها هي وأجدادها.اشتعلت النيران الكبرى خارج الكهوف التي عاشت فيها "ميري" و"آستر" وآخرون من النوع الجديد مع أطفالهم. وشاهدت هي وأبناء جلدتها النار وهي تتراقص على قمم الأمواج وتصل عنان السماء، وتشتعل بسلاسل على قمم التلال الصغيرة خلف الشاطئ، لكن لم تكن النار كما هو مألوف - كانت تشتعل في بعض الأحيان في الليل، وتخرج الأسماك والحيوانات البحرية لتشاهد سطح البحر وتحملق فيه، لأن ضوء اللهب يعطي الماء مظهراً جذاباً، وظنت أن القمر أو الشمس قد أشرقت في غير موعدها. والعجائز أخبرها ضوء النيران الذي يسري في تجويف الأمواج، بأن ما عرفنه لم يكن من هذا القبيل، وما يحمله الجديد إليهن من مخاطر كان قد حفظنه في أذهانهن.

أجل، تريد أن ترى بأم عينها، فقد نهضت لتقف على قدميها الكبيرتين المترهلتين، وقد ساعدتها في ذلك الإناث الشابات اللواتي بقين

مخلصات للأساليب القديمة، تمايلت بين الشواطئ الصخرية، ومن ثم شقت طريقها بتؤدة وخطوة خطوة إلى الجبل. وقبل أن تتحرك خطوات قليلة بدأت تئن وتشتكي. وقبل أن تصل الصخرة القاتلة كان عليها أن تجلس وتستريح. لكنها وصلت أخيراً إلى قمة الجبل ثم نزلت في أرض وعرة وغير مستوية بعيداً عن البحر، ومضت في أجوائها الخاصة وفي سكينتها المعتادة، تلقي بثقلها على مساعديها، ودائماً بمزيد من البطء،وتوقف دائم.كانت الشابات يرجونها لكي تعود، لكنها أصرت، وهذا بحد ذاته جعلنا نتساءل. ربما لم يكن لديها أية فكرة عن المشي لمثل هذه المسافة التي تنوي اجتيازها.

في أسفل الجبل، أرادت الجلوس لوحدها بعيداً عن الأذرع الداعمة لها، جلست تئن، لكنها جاهدت بعد ذلك في وقوفها. وغالبا ما صعدت سفح الجبل وهي زاحفة على يديها وركبتيها. الآن بدأت النسور تصيح حولها، ورفرفت مقتربة منها ثم ابتعدت. صرخت بالنسور وصرخت النسور بها، هؤلاء الأعداء الذين يريدون قتل بعضهم. ما رأيها بهذه الطيور التي تعلوها ارتفاعاً، الطيور التي تستطيع أن ترفع صدعاً صغيراً إلى أعلى وترمي به في الموج؟ صخب اعتلائها كان مخيفاً جداً نتيجة آهاتها وصيحاتها ولعناتها وصرخات الحقد على الطيور، ومن الحجارة المحيطة بالجبل التي قامت بإزاحتها، ومن الصيحات التشجيعية لها من الصدوع الصغيرة.على القمة أصبحت بين أعشاش النسور، ولم يكن أحد حولها على الصخور، أو في السماء سوى الطيور الكبيرة. وقفت، تساندها الصدوع الصغيرة، نظرت إلى الوادي، لكن ماذا يمكن أن تشاهد بعينين اعتادتا على الأمواج المتدافعة والمضطربة؟ لكنها حاولت أن تنظر وتستوعب.

كانت هناك ملاجئ في الأسفل، لكنها لم تشاهد أي شيء من هذا النوع. فهذه الملاجئ مصنوعة من الأغصان وستائر من العشب النهري، وشاهدت حركة سوداء يعلوها قمم بيضاء صغيرة، لكنها لا تعرف أنه النهر. فقد قيل لها بأن هناك نهراً كبيراً في الوادي، لكن الأمواج التي

تعرفها كانت تهتز، وتثور حينما تصبح الريح عاصفة، لكن ليس سهلاً التفكير بماء تحصره ضفتان وينحدر بسرعة من الجبل إلى سواتر صخرية تخفي الأمواج عنها. في الأسفل تجد الناس، وتجد ناراً كبرى. كانوا قلائل : اعتادت أن تشاهد الصخور من حولها وقد غُطيَتْ بالصدوع المستجمة. كانت أعداداً كبيرة، أما اليوم فلا تشاهد إلا القليل. وقد عرفت بأنهم وحوش، لأنها على علم مسبق بما شاهدته. كان بعض الصبيان وبعض الصدوع الزائرة يسبحون في النهر. وكان بعض الوحوش الصغار مع آخرين هناك، لكنهم كانوا داخل الملاجئ. فقد أحبطها هذا المشهد في الوادي الذي كانت تتخيل بأنه مأهول، كما نحبط حينما نتخيل جيوش العدو أو حشوداً تختفي في وضح النهار.

وصلت إلى أعلى الجبل، بعد هذه الرحلة المرعبة، وقد " رأت بأم عينها "، لكن لم يكن هناك ما تشاهده. فهي لم تحب النظر إلى ذلك النهر السريع، ولا إلى النار الكبرى التي تتغذى بالأشجار اليابسة من الغابة وترسل عموداً من الدخان يقترب من المكان الذي تقف عليه. وليس بمقدورها النزول إلى الوادي، بعد أن أصبحت هناك. فكل ما شاهدته بدا معادياً لها. كانت تتوجع،وقد مرضت من الجهد الذي بذلته. وقفت تهوّي نفسها بسعفة من الأوراق اليابسة بذراعها الضخمة ويدها السمينة. صرخت، وقد أزعج صراخها المشهد هناك في الأسفل. فقد شاهدت مجموعة من الوحوش وهم ينفصلون عن مشهد النار ويصعدون باتجاهها. صرخت ثانية لخوفها منهم، ولأنها لا تستطيع التحرك بسهولة، افترشت الأرض وبدأت تئن، حينما وصل الشبان، لم يشاهدوا فقط العجوز التي عرفوا بأنهم يخافونها،ولكن شاهدوا أيضاً الصدوع الصغيرة التي لا يعرفونها. كانوا يعتقدون أن هذه الصدوع الصغيرة جاءت كما جاءت من قبلهم الصدوع الأولى، بنواياها الطيبة، ولهذا ابتسموا لها ومدوا أيديهم إلى هذه الإناث المجهولة.

لكن المرأة العجوز صرخت لأنها كانت على مقربة من هذه الوحوش، مع أنهم كانوا يلبسون الريش والأوراق في خصورهم، لتغطية ما

تخاف منه، وصرخت الصدوع الصغيرة أيضاً وهي تصعد الجبل لتنزل إلى شاطئها، وهكذا تُركت العجوز وحيدة مع أعدائها الصبيان تحيط بها النسور الغاضبة من كل الجوانب وتقف على صخورها الطويلة. من الذي قام اليوم بشيء غير متوقع، بالنظر إليها على أنها العدو. تشاوروا، وتجمعوا هناك، وحدقوا بالبنات اللواتي ابتعدن عنهم الآن وهرعن إلى شاطئهن. كانت هناك شجرة قديمة على مقربة منهم تساقط منها بعض الأغصان. سحب الصبيان غصناً كبيراً يابساً إلى المرأة العجوز، وسُحبت عليه، وأنزل بها إلى سفح الجبل، كانت تزعق وتتذمر. رافقتهم النسور وحامت على الفور فوق رؤوسهم. أمسكت العجوز الغصن، وهي تقفز كالكرة فوق الحجارة والأماكن الوعرة. بكت وأنّت وسقطت منه ذات مرة وكان عليهم أن يرفعوها إليه ثانية. كان يتطلب هذا قوة الصبيان جميعهم لينزلوا بها إلى مستوى الصخرة القاتلة. تركوها هناك وتسلقوا الجبل راجعين إلى واديهم.

سألت البنات اللواتي يزرن الصبيان، لماذا ذهبوا لإنقاذ المرأة العجوز، تفاجأ الصبيان بهذا السؤال، وعللوا هذا " بأنها كانت تبكي ".

الآن علينا أن نتذكر بأن الصبيان لم يتركوا الصغار يبكون أبداً. فما سُمع من صخب وبكاء من الوحوش الصغيرة أوقع العجائز في ذعر حقيقي. فكل الصدوع عليها أن تتذكر كيف صرخت الوحوش الأولى حينما ضايقتهم الصدوع وعذبتهم – وأسوأ من هذا.

ماذا تذكرن حينما صرخ أحد الصغار؟

قال الصبيان " كانت تصدر مثل هذا الصخب....". ثم إنها " كانت تزعج صغار النسور ". أجل أخافت صغار النسور ".

جاءت هذه التعليلات أولاً، ومن ثم جاء السبب الحقيقي." هذه الصدوع، كانت غبية، وكن السبب في صراخ العجوز. وكان الأمر سهلاً : وضعناها فقط على الغصن، وسحبناها إلى الأسفل، وهذا كل شيء ". فالصدوع لم تفكر بها مطلقاً.

وصول كبيرة السن إلى الصخرة بكدماتها ودمائها لم يقلق الصبيان. كان اهتمامهم ينصب على انجازهم، وعلى ما يُظهر غباء الصدوع.

فالقصة أصبحت " صدوعاً حمقاء ". لا يعرفن ما سيفعلنه لإنقاذ العجوز ".

في هذا الوقت تقريباً بدأ تدوين كيف ناقشت الصدوع الصبيان على مبدأ " لكن لماذا فعلوا ذلك؟ فقد قام الصبيان بمثل هذه الأشياء المضحكة. "

نحن نتحدث فقط عن بعض الصدوع، أصدقاء "ميري" و"آستر"؛ وقد ارتجف الآخرون حينما ذكروا سكان الوادي.

وقد اُتفق على أن الصبيان كانوا " حمقى " وسخفاء.

لكن لم تكن النهاية مع كبيرة السن التي أرادت أن " ترى بأم عينها ". فالصدمات والكدمات تأخذ مزيداً من الوقت حتى تندمل، وهي لن تصفح عن البنات اللواتي هربن وتركنها تحت رحمة أعدائها من وجهة نظرها. هؤلاء البنات وبخن الأخريات اللواتي ذهبن إلى الوادي وزاوجن النوافير، وإن تغيرن تباعاً، وأصبحن كما الأخريات من " بنات ميري "، فقد بقيت العدائية عندهن، والكثير من حوادث الحقد دونت في السجلات.

لم تُذكر العجائز الأخرى : ذُكرت فقط المحرضة لرحلة الجبل. يمكننا أن نفعل ما نستطيعه بها. لم تكن هذه العجوز هي التي وضعت الخطة التي يمكن أن تدمر النوافير أو معظمها وحسب، وإنما الكثير من البنات أيضاً. وبدون تسرع. أولاً، هذا الدماغ العجوز البطيء عليه التعامل مع حقيقة أن البنات نزلن هاربات من الجبل، خشية الاغتصاب. ومع أن "ميري" حاولت شرح ما كانت تعتقده من سبب وجود " الوحوش "، لكن وظيفتهم المحتملة كأسلاف لنا لم تستطع العجائز استيعابها. وكان صعباً عليهم هذا. أولاً، مجيء الوحوش سبب وجود أطفال جدد، تخافهم وتكرههم كل الصدوع العجائز. ثم إن " الاغتصاب " أوجد صدوعاً رضيعة ووحوشاً رضيعة على حد سواء. فالصدوع الرضيعة كانت

صدوعاً، " صَعُبَ " هذا أم لم يَصعُب، والوحوش هي الوحوش نفسها التي شاهدتهم على قمة الجبل، أناساً وليسوا صدوعاً، خلف مآزرهم التي يلبسونها من الريش وأوراق الأشجار.

إنه شيء مثير، شيء يمكن أن يستوعبه الناس وشيء لا يمكن استيعابه. كان مثيراً لدى الإناث العجائز لأنهن لم يستطعن استيعابه. فقد ظهر هذا العقل الجديد والسريع في ذلك المجتمع الأنثوي الذي يعيش على الشاطئ، ويحمل معه مسحة ذكورية. فالعقل القديم البطيء المريب لم يفهم سوى حقيقة واحدة فقط : كل ما حدث لتغيير الطرق القديمة، وسبب هذا الانقسام والحقد بين أطراف الصدوع المختلفة، كان سببه الوحوش. وهو ببساطة : كانت الوحوش أعداءنا. وعلينا الآن التخلص منها.

أرسلت كبيرة السن إحدى بناتها إلى "ميري" لكي تأتي وتشاهدها. أرسلت إيماءات وابتسامات إلى "ميري" التي جلست في مدخل الكهف. ردت عليها "ميري" بإيماءاتها. لم تكن متعجلة في ذهابها. ولا تريد أن تبدي طاعتها للعجائز، خاصة وأنها كانت تشك بأن العجائز يرغبن بإيذائها (ويدبرن المكائد لها).

كانت "ميري" مع مولود جديد وبعض الأطفال. راقب الكثير من الناس إن كانت ستذهب فوراً إلى كبيرة السن. كانت "ميري" تواسي الصغار لبكائهم الدائم. استلقت البنات اللواتي يساندن العجائز هناك على الصخور بجانب البحر نصفهن في الماء والنصف الآخر خارجه. نظرن إلى "ميري" وكرهنها. "ميري" هي المسؤولة عن انقسام القبيلة، وعن المزاج العكر للعجائز، والحاجة إلى الصغار الجدد. هناك على الصخور فوق الكهف كان بعض الصبيان يرقبون أيضاً. لم تفهم "ميري" سبب وقوفهم هناك، والمنبه القوي عندها أصبح أكثر قوة. كانت تخاف عليهم، فهي المسؤولة هذه الأيام عن سلامة الأطفال الجدد.

لا يمكن القول بأن مشاعر الأمومة كانت قوية لدى الإناث الأوائل. وما حملنه من مشاعر بأن الأطفال هم الأعزاء،وهم الأمل أو هم التهديد، شيء جديد.

فكرت كثيراً بالأطفال وبالصبيان أيضاً في الوادي. ما أحست به هو الشفقة والحنان، مع أن هذه الأفكار – والكلمات – لم تكن تعرفها. تألمت على هذه الوحوش البائسة، على الصبيان البائسين. فما أحست به تجاههم يعادل لفّهُم بذراعيها والحفاظ على سلامتهم – كما فعلت مع المولود الجديد. فقد عاشت هي وكوكبة من البنات في هذه الكهوف الطولية بتهويتها الجيدة، وبأرضها الرملية النظيفة، وفي الخارج تعلموا من الصبيان كيف يشعلون النيران الكبرى ويحافظون عليها، هؤلاء الصبيان الذين كانوا بارعين في إشعال النار والعناية بها. هذه الوحوش البائسة عاشت في أكواخها وملاجئها التي كانت دائماً مليئة بالأوساخ والروائح الكريهة، لأنهم لا يمتلكون موهبة الترتيب. عاشوا هناك على حافة الغابة الكبيرة التي يمكن أن يقفز منها في كل لحظة وحش ويمسك برضيع أو بصبي لم يبلغ أشده (وقد حدث هذا أكثر من مرة). فكرت بالنوافير البائسة، لكن لم يغب نظرها عن الصبيان المتجمعين على قمة التلال أعلى الشاطئ. كانت تفكر : ابتعدوا عن الأنظار أيها الحمقى – ألا تعرفون أنكم في خطر؟

والآن تنهض "ميري" في وقت فراغها لتخبر الأطفال أنها سترجع حالاً، وقد نزلت إلى العجائز.

* * *

الآن، عزيزي القارئ الروماني، ما الذي ستشاهده بأم عينك، وأنت ترقب نزول "ميري"؟ لكنني سأخبرك، إنك ستشاهد ما يدور في ذهني الآن، وفي أذهاننا، التي تزخر بصور آلهتنا. فأفضل عبدٍ لدى والدي، تم شراؤه بثمن باهظ لبراعته، عرف كيف يصنع نسخاً من التماثيل المحبوبة. كان يوجد في بستان الزيتون القريب من منزلنا تمثال لديانا•، وهو التمثال

• ديانا: آلهة القمر والحيوانات الضارية والصيد في الميثولوجيا الرومانية (المدقق).

المفضل لديه. كانت هناك، بتنورتها الصغيرة التي يداعبها الهواء، تمسك بقوس من الخشب المُذهّب، وقد اعتاد والدي على الممازحة فيه، وهو غير قادر على إسقاط عصفور. عند ملتقى طريقنا بالطريق الرئيس وقفت آرتميس•، التي لم تكن من صنع عبدنا، ولكن نسخها بشكل مصغر، وكانت النسخة في بستان الزيتون أيضاً. أشاهد أنثى طويلة رشيقة، برأسها الصغير الرائع، وباقة من شعرها المتلألئ، ربط بعُصابة فضية، تداعب أطرافه نسيمات البحر، لكن خيالنا حرره من صلابة المعدن. وكان فستانها الكتاني الرقيق يطوف حولها. وقدماها الصندليتان (نسبة إلى خشب الصندل) تخطوان بخفة بين حجارة الشاطئ. وهي تبتسم. ونعرف جميعنا ابتسامة الآلهة، التي تعد بحمايتنا الآن وإلى الأبد. ومن غير الممكن أن نتخيل أي شيء يمكن أن يبعد آرتميس، أو ديانا الجميلة لأي سبب كان من مكانتهما في قلوبنا. وستبقى آلهتنا الباسمة التي تقف إلى الأبد حارساً لنا ضد كل المخاطر التي نواجهها.

***

لكن أولئك الذين راقبوا "ميري" وهي تنزل من مدخل كهفها، لم يشاهدوا شيئاً من هذا. فنحن لا نعرف شكل الصدوع. ولا نعرف ما هذا الصدع، هذه الأنثى، التي تلد لأول مرة رضيعة تحمل دم الصدوع والنوافير على حد سواء، أول مولود من الجنس الجديد، جنسنا نحن البشر، يشبهنا بهذا البناء وهذا الطول وهذه الوقفة.

يمكن أن نعتقد جازمين، بأن "ميري" لم تكن بنتاً ضعيفة، ولم تكن ديانا. فهؤلاء الناس على الشاطئ : قد تكون في يوم ما مخلوقات بحرية. لكن جميع الصدوع كانت في ماء البحر بقدر ما كانت خارجه. ولم يكن غريباً عليهن النوم على الأمواج التي تهزهن، أذرعهن عائمة، وعيونهن تحملق في السماء. سبحن – كما يسبح السمك أو كواسر

• آرتميس: آلهة القمر والقنص عند الإغريق (المدقق).

البحـر. ونجـرؤ علـى القـول إنهـن بديـنات، أكـتافهن وأذرعهـن ثقـيلة، أفخـاذهن كبيرة، وأردافهن ذات عضلات تفي بالغرض. مخلوقات بحرية تحمـل معهـا طبقة مفيدة مـن الدهـون. كـان "لميري" أسـنان بيضاء قـوية : تأكل بها السمك الطـازج، وتنـزع بهـا اللحم عن العظام. لو أننا نظرنا إلى مجموعة الصدوع وهـي تندفع لصيد السمك، تعض وتقضم، سنعتقد من النظـرة الأولى أنهـا فقمـات أو خنازيـر البحـر. هـذه الأنثـى ميـر، أول أم مـن أسـلافنا، واسمهـا مـن القمـر، لهـا ثديان كبيران ناعمان مليئان بالحليب : نعـرف هـذا مـن المدونات الشفهية الأولى الـتي أخـذت مـن الـنوافير، هـؤلاء الذكور الذين أحبوا الأثداء الكبيرة للصدوع المليئة بالحليب.

هـذه الأنثى البدينة الصلبة المعافاة وصلت إلى كبيرات السن، اللواتي تمـددن علـى صـخورهن، كمـا السمك المحاصر، ابتسمت وقالت، " هنـاك أشياء بحاجة إلى أن نتحدث عنها " — وقد أخذت زمام المبادرة منهن. تعرف "ميري" أنهـا في خطـر : كانـت رائحـة التوتر والتهديد قوية. تعرف أن هنـاك مؤامـرة مـن نـوع مـا، إذا أرادت "ميري" أن تتخلص، لنقل، من "آستر" وبعض البـنات المخلـصات لهـا، مـاذا عليـها أن تفعـل؟ مـن الـضروري أن تـسوقهم بخدعـة إلى بـركة عميقة، وتأخـذ بنات العجائز إليها لتغرقهن، وتسحبهن إلى أسـفل. ليس هـذا بالأمـر السهل، طالمـا يسبحن جميعهن بشكل جيد. لكن من المهم أخذ الضحايا على حين غرة.

تـوقعت "مـيري" غـير جازمـة مـا ستسمعه لاحقـاً. فقـد أرادت كـبيرات الـسن مـن "مـيري" و"آسـتر" أن تـأخـذا " بـناتهمـا "، ومـن تحـالـف معهـن مـن كبيرات السن برحلة.

الآن، سمعت "ميري" خيوط المؤامرة. فهن سيقمن بحملة على الشاطئ للوصـول إلى مـنطقة معيـنة في الـساحل يجمعـن فـيها البطلينوس (حـيوان بحـري مـن الـرخويات) ثم يذهبن إلى منطقة أخرى للتزود بنوع من الطحلب البحـري. إذاً هـي علـى حق : إحساس "ميري" أنبأهـا بـذلك. في نقطـة معينة سـيغرر بهـا وب"آسـتر" وبأصـدقائهن مـن البـنات للنـزول في البحـر ويقـتلن هنـاك.

لا يزال الصبيان طوال هذا الوقت، وعلى التلال الصخرية يتسكعون وهم يرقبون. " لماذا كانوا هناك؟ "، " وكيف وصلوا إلى هناك؟ " حام اثنان من النسور فوق الصبيان يرقبان: فقد عرفا بوجود الخطر، وأومأت "ميري" للصبيان متجاهلة العجائز، لتقول لهم، " اذهبوا ؛ غادروا، هلا عرفتم لماذا تحوم النسور فوقكم؟ أومأ لها الصبيان: لم يفهموا.

أخبرت "ميري" العجائز بأن الرحلة ستأتي بالطحالب والبطلينوسات الكبيرة، ورجعت إلى كهفها، والقلق يهز كيانها : فهي لم تفهم ما كان يفعله الصبيان هناك في الأعلى.

كانت "آستر" وصديقة لها تعدان النار من أجل الليل.

كان الصبيان هناك على مقربة منهما – لوجود بعض الوقت، حيث أن البنات ذهبن إلى الوادي. فليس هناك وحوش ولدت حديثاً، وماذا تعني" حديثاً "؟، لا نعرف. فأنا معجب جداً بالطريقة الدقيقة التي يتبعها الرومان في القياس والزمن، حينما يتبارون في فهم سجلات الناس الغابرة، الذين لم يعرفوا التفكير قط : منذ شهر، في غضون أسبوع....مرة....حينما....

ربما فكرت العجائز بأنه لن يكون هناك مزيد من ولادة الوحوش. طريقة تفكير تناسب العقلية القديمة البطيئة عندهن: " إذا لم تكن هناك ولادات حديثة للوحوش، فهذا يعني عدم وجود المزيد منهم.

حسناً: الأشياء أصبحت واضحة. تريد العجائز من "ميري" و"آستر" أن تذهبا الآن، مع حلفائهما، النوع الجديد من الصغار والأطفال، وستذهب معهم كذلك بنات العجائز. فقد خططن للتخلص من الناس الجدد الذين يحملون أفكاراً جديدة وينجبون أطفالاً جدداً. عندها ستبقى السلطة لكبيرات السن، ولن يكون هناك مزيد من البنات أمثال "ميري" و"آستر" ولن يكون هناك " أطفال جدد ".

لماذا كان الأطفال هناك على صخور التلال؟

هم لا يحبون الاقتراب كثيراً من شاطئ الصدوع، وكانوا يخافون العجائز.

بدا هذا لـ"ميري" كأنه تحذير بحد ذاته ؛ فلو أنها عرفت سبب وجود الصبيان هناك، لفهمت طبيعة هذه التهديدات. بطبيعة الحال، يمكنها أن تطلب من إحدى " بناتها أن تسأل إحدى بنات العجائز " عما يجري. هذا ما خُطط للصبيان : فقد عرفت حق المعرفة ما كان يخطط لهن.

الحقيقة هي أن إحدى كبيرات السن – عجوز مغامرة – أمرت بناتها أن يغرين الصبيان بالنزول إلى الجروف فوق الشاطئ، لكن خطتها في تدمير الصبيان باءت بالفشل.

النزهة إلى شاطئ البطلينوس الكبير تستغرق أياماً عديدة، وكثير من الوقت كاف لإغراق "ميري" و"آستر" وصغارهما، ومن تحالف معهما من البنات. بساطة الخطة يمكن أن تكون محط إعجاب. لكن حقيقة كانت نوايا بقية العجائز غامضة. فمن غير الممكن أن تؤذي بنات العجائز الصبيان، الذين كانوا أسرع منهن جرياً، ويمكنهم الدفاع عن أنفسهم بالعصيّ والحجارة. بالأقواس والأسهم أيضاً في هذه الأيام. فالقتال المباشر سيُحسم بانتصار الصبيان، وبخاصة أن النسور التي تراقبهم قد تحالفت معهم، ويمكن أن تقاتل إلى جانبهم.

ناقشت القضية "ميري" و"آستر" وأتباعهما من كل الجوانب ولم يتوصلوا إلى نتيجة. فإذا قبضن على إحدى بنات العجائز لتأتي وتتحدث إليهم، فالعجائز سيعرفن أن خططهن أصبحت على المحك. وليس صعباً أن تغريا بنتاً وتأتيا بها إلى كهف "ميري". فليس هناك انقسام كامل بين البنات الطائعات والبنات المتمردات. وبعد هذا كله، كان حلفاء "ميري" وحلفاء "آستر " في يوم ما من أتباع كبيرات السن. جاء العديد من البنات الطائعات إلى كهف "ميري"، ليسألن ما الشيء الذي كان أكثر جاذبية للوحوش. ذهب بعضهن إلى الوادي ليستكشفن بأنفسهن. تأخر الفريق الذي سيجمع البطلينوس عن الرحيل طويلاً، فقد بعثت كبيرات السن برسالة يستفهمن فيها عن سبب بقائهن.

لا نعرف عدد الصدوع التي انطلقت سوية، ما نعرفه أن أطفالهن ذهبوا معهن. وقد عرفن وهن يمشين على حافة البحر، بأن هناك من يتجسس

عليهن : إحدى بنات العجائز كانت تمشي بموازاتهن، مختبئة بين الصخور. وهذا يعني، تعذر القيام بما خططن له، وهو أن يمشين حتى يحل الظلام ؛ حينها يمكنهن العودة زاحفات إلى شاطئهن في الظلام، ليجدن مكاناً مرتفعاً يمكن أن يراقبن منه ما سيحدث، وينقلن الأخبار إلى بنات كبيرات السن.

في اليوم التالي تسكعت المجموعة وتأخرت، تاركة الأطفال معها، وشاهدن بعد ذلك، بأن كل البنات المعاديات لهن قد اختفين في الليل. بهذا أدركت "ميري" و"آستر" بأن خطة التخلص منهما ومن أطفالهما لم تكن خطتهن الأساسية.

انتظرت "ميري" و"آستر" وأخريات حتى المساء، ثم شققن طريقهن إلى تل خفيض يمكنهن من خلاله مشاهدة شاطئهن، على مقربة من الصخرة القاتلة، والجرف الكبير ذي الحفرة التي ألقيت فيها البنات ذات مرة كقرابين.

هذا المكان الذي بُجّل ذات مرة لارتباطه بالقتل، وربما بإله من نوع ما، جعل "ميري" تفكر ملياً بما عرفته عنه. ليس كثيراً. فالتل الشاهق أو القمة، ربما بركانية المنشأ، كان على جانبها البحري الصدع، الذي تفتحت فيه الزهور الحمراء في أوانها. كان الصدع هو المعبود، ونعتقد الآن بأنه يماثل ويعكس التفتح الأحمر للصدوع، وقد ارتبط كعادته بالقمر. حينما ننظر إلى أصل آلهتنا، ليس سهلاً أن نقول تحديداً ما هي السماء. فلا نتوقع أن تصعد الآلهة سفوح جبل الأولمبوس• ! أو نرى فينوس• تخرج من الأمواج !

لكن حول هذا الصدع حالة من الفزع والخوف، ولو أن قمته ليست صعبة الوصول. على السفح البحري كان هناك الصدع والكهف الذي

• جبل يقع في الجزء الشرقي من اليونان، وكان الإغريق يعدونه مثوى الآلهة (المدقق).

• إلهة الحب والجمال عند الرومان (المدقق).

تشاهد من شقوقه وقلوعه الهياكل والجماجم ورماد العظام الأبيض. لكن تجد في الطرف الآخر طريقاً صاعدة وملتوية بشكل خفيف. وفي أعلى القمة كانت هناك حافة مستوية، لكن كان هناك داخل الحافة منصة وقفت عليها الكثير من البنات يرتعدن قبل أن يرمى بهن في المَعْظَمة (مقبرة العظام). وقد انبعثت من أعماقها روائح التفسخ. فهناك أبخرة تشوش البنات في البداية ثم تخدرهن، ويفقدن وعيهن حينما يرمى بهن. والسبب الذي جعلنا نحن الذكور نعتقد بتوقف هذه الممارسة، هو أن "ميري" و"آستر" وحلفاءهما لم يفكرن بهذا المكان حينما درسن ما كانت تخطط له كبيرات السن. وربما مرّ زمن طويل على حادثة القرابين لدرجة أن الجميع قد نسيها.

مع انبلاج الصبح استطعن رؤية السهول الممتدة من البحر إلى الجبل الذي يؤدي إلى وادي الصبيان. لا شيء يتحرك. هناك على شاطئهن البعيد، أظهرت البقع والنقاط الصغيرة بأن البنات لم ينطلقن جميعهن في رحلة البطليموس. حام زوج من النسور على الجبل. ثم تقدمت من صخورهن بتؤدة مجموعة من البنات المعاديات عند الظهيرة، استغللن وقتهن، وتوقفن على الصخرة القاتلة، وكأنما ليس لديهن الرغبة في التقدم. كم كان عددهن؟ الكلمة التي استخدمت كانت " العديد ". غادرن الصخرة بتؤدة، ونزلن بتؤدة إلى أسفل الجبل. ومن هناك بدأن بالصعود. لم تزر أي من البنات الوادي من قبل، وإن اصطحب بعضهن كبيرة السن التي أرادت أن ترى بأم عينها. انشغلن كثيراً في مساعدة كبيرة السن، يهدئونها، لتشاهد كل ما في الطريق. كن بطيئات جداً في صعودهن الجبل، ربما لأن النسور كانت تصيح بهن. حينما وصلن القمة وقفن هناك، ينظرن إلى الوادي بنهره المخيف. لماذا كن يتسكعن هناك؟ وجاء هتاف وصراخ من الوادي، وبلحظة أصبح الصبيان على قمة الجبل أيضاً. كانت البنات يهززن أثداءهن ويؤدين حركات الإغراء في أوراكهن التي ربما استخدمت لأول مرة. واليوم أصبح من الواضح بأن كبيرات السن، أو واحدة منهن فهمت ما قالته "ميري" لهن. فالبنات أُبلغن لجذب النوافير وإغرائهم. لكن ما النهاية؟

حينما ظهر الصبيان على قمة الجبل، بدأت البنات بالنزول بعيداً عنهم. ثم توقفن فجأة لإلقاء نظرة عليهم. لبس الصبيان مآزرهم الضيقة من الريش وأوراق الأشجار. فإذا زار بعض البنات الوادي قبل أن يشاهدن الصبيان العراة، ربما في خروجهم من النهر – فقد شاهدنهم بهيئتهم الوحشية. فالآن، ما كانوا يخافونه أو يرغبونه قد اختفى. فالحقيقة كانت، أن البنات لم يستطعن التعرف بسهولة على هذه النوافير، هذه الذكور الشابة الباسمة، الأنيقة، التي مشطت شعرها الطويل الناعم. فقد أعطت "ميري" الصبيان مشطاً صنع من هياكل السمك، وعلمتهم كيفية الاعتناء بشعرهم. نظرت البنات إلى الشبان الوسيمين، لكن لم يعرفن بأن ما يشعرن به هو الإعجاب. وهكذا بدلاً من أن يهربن ويلاحقهن الصبيان، وقفن فجأة مذهولات. أخيراً نزلن مسرعات من التل ولحق بهن الصبيان بالصياح والصراخ وكأنما يطاردون حيواناً يريدون قتله. فقد ركضوا بسرعة أكبر من البنات البطيئات. ولم يستطيعوا الإمساك بهن حالاً، لأنهن كن يؤدين لعبة المطاردة.

ما شاهده المراقبون من التل، هو ركض البنات اللواتي كن في معظمهن من حلفاء كبيرات السن بأقصى سرعة عندهن، والصبيان يلحقون بهن.

لم تفهم "ميري" و"آستر" وحلفاؤهما ما جرى على الفور. فقد تعلمت البنات كيف يغرين الصبيان.

لكن لماذا؟

في الوقت الذي وصل فيه الطرفان ؛ الطارِد والمطارَد الصخرة القاتلة، كان الصبيان وراء البنات تماماً اللواتي توقفن، ووقفن يواجهن الصبيان. وبعد ما سمعوه من البنات اللواتي زرن الوادي، عرفن بأن الاغتصاب له أسبابه، لكن إذا لم تمارسن الاختراق أبداً، بالرضا أو بغيره، ماذا يمكن أن تتوقعن إذاً؟ فالاغتصاب كان مهارة غير ناضجة بعد، كالأكل مثلاً. البنات الآن مترددات : فقد تعلمن كيف يغرين الصبيان، لكن ماذا سيفعلن الآن؟

عرف المراقبون على قمة التل أنه حان وقت نزولهم وتدخلهم، وحتى وإن لم يعرفوا السبب.

ظهر الصبيان والبنات وهم يتبادلون نوعاً من السخرية اللطيفة. حاول الصبيان الإمساك بالبنات بأثدائهن بخاصة. أول مرة يتساوى عدد النوافير وعدد البنات.

ثم حررت البنات أنفسهن، وبدون أن يركضن أو يحاولن الهروب صعدن الطريق الذي يوصل إلى الجرف الذي كانت قمته فوهة الحفرة. والآن فهمت أخيراً "ميري" و"آستر" والآخرون. لكن لم يفهم جميعهم فوراً – فهذا هو المكان الذي يدفعنا للتفكير بأن الدور القرباني للصدع كان محموداً فيما مضى، وهو جزء من التاريخ القديم. وقد ذُكرت الروائح الكريهة التي تنبعث من الحفرة، أو من الكهوف السفلية، في كل قصة تتحدث عن الصدوع، لكن الأبخرة المتعفنة القاتلة لم تُذكر دائماً. لكن طالما أصبح الحال بهذا الشكل، بدأت البنات بإغراء الصبيان وذلك بسوقهم إلى حافة الحفرة بحيث يسهل دفعهم فيها، وبما أن الصبيان كانوا إلى حد بعيد أشد بأساً من البنات، فإن الفكرة اللاحقة لا بد أن تكون : طبعاً هم سيقولون إن هناك أبخرة قاتلة.

يركض الآن المراقبون، و"ميري" و"آستر" بالسرعة القصوى. ويمكنهم مشاهدة كيف أُقنع الصبيان بصعود الطريق للوصول إلى القمة، في حين لحقت بهم البنات بابتسامتهن ودفئهن.

لم يكن الجرف عالياً حتى يأخذ منك وقتاً طويلاً للصعود إليه، لهذا وصل الشبان حالاً إلى نهاية الطريق. وهناك بجانب الثقب الكبير، أو البركان القديم، تجد حافة واسعة، مستوية ومتهرئة، لا نعرف كم مر من الزمن على هذه الأقدام، والناس الذين وقفوا هناك ليشرفوا على الطقوس المروعة للأضحية. أما المنصة التي يجب أن تقف عليها الضحايا لأخذ الجرعة من الغازات القاتلة التي تشلهم، فقد كانت طريقاً نازلة قصيرة بداخلها. صعوبة الصعود والارتقاء هنا أبهجت الصبيان لأنهم يستطيعون مشاهدة المحيط والجبل والنسور، والتفتوا ليشاهدوا البنات

تحتهم تماماً، أعجبوا بهن، ابتسموا، ومدوا أذرعهم. شاهدتهم البنات. كانوا في منتهى الجمال هؤلاء الشبان، هؤلاء الصبيان، هؤلاء الوحوش، الذين كانوا موضع كرههن....لكن ما الشيء الذي كن يكرهنه؟ على البنات الآن النزول والهروب إلى المكان الذي صعدن منه، تاركين الصبيان، طالما أنجزن عملهن بإيصالهم إلى الأعلى. ثم صرخت بنت وتبعتها أخرى. أجهشتا بالبكاء ومدتا أذرعهما وكأنما تتوسلان لكي..... تنقذا نفسيهما. صرخت "ميري" و"آستر" "أنقذوا أنفسكم". فهما تعرفان جيداً بأن الصبيان يمكنهم القفز بلحظة من شفا الحفرة إلى المنصة، لأنها كانت هناك، لأنها كانت صعبة وموضع تحد.

كانت البنات يصرخن بالصبيان " انزلوا، توقفوا، توقفوا، ارجعوا ".

كل البنات كن يصرخن ويمددن أذرعهن ويصحن.

صاحت بهم واحدة أو اثنتان للنزول إلى المنصة : لم تشاهد كل البنات جمال الصبيان....فلا يوجد عندهن كلمة تتعلق بهم. والآن لدى مراقبتهن للصبية أثارهن القفز. فقد أثارهن الصبيان. كانوا يمارسون شيئاً من الجذب الجنسي، بعضهم على الأقل.

كانت "ميري" تصعد الطريق، تتبعها "آستر" وخلفهما أخريات. ازدحمت واجهة الجرف بإناث شابات. يعرف الصبيان "ميري" و"آستر" ، فهما أقدم زائرتين لهم من الإناث، إناث بأثداء يملؤها الحليب، فهما المعلمات والمدربات - الصديقات - وحينما صرخت بهم اثنتان لكي يعودوا أرادوا أن يفعلوا ما قيل لهم. لكن أحدهم الذي لم يستطع مقاومة الخطر، قفز نازلاً إلى المنصة. وما إن وصلت "ميري" و"آستر" الحافة الدائرية التي ازدحم عليها الصبيان هناك، ترنح وسقط أول رائد عندهم وهو الشخص الأول الذي يقفز داخل المخروط البركاني وجحيمه. فإذا سقط بطريق واحد فإنه سيسقط في الخليج الذي تحكي فيه أكوام العظام قصتها. قفزت "ميري" إلى المنصة وجرته بمساعدة "آستر" إلى الحافة، حيث انتعش بالهواء العليل. وكان من الضروري أن تشرحا للشباب ما حدث للإناث – بعد موتهن.

تسلل بعض الشبان، وتسللت بعض البنات أيضاً، وابتعدن عن شاطئهن.

سحبت "ميري" و"آستر" الصبيان جميعهم، وأبعدوا عن حافة الحفرة. وكان مشهداً مشوشاً لهم جميعاً. فقد شاهد الصبيان صدوعاً باسمة وودودة، لكنهم لم يستوعبوا بعد بأنهن يحاولن قتلهم، وكان هناك أصدقاؤهم القدامى "ميري" و"آستر" وصدوع أخرى عرفوهم جيداً. نزل الصبيان إلى الطريق، تحثهم على هذا "ميري" و"آستر" ، لكن كل ما حولهم كان صدوعاً غير معروفة جيداً لديهم. فأي منهم الأصدقاء؟ وأي منهم الأعداء؟

لدى وصولهم إلى الصخرة القاتلة، نشب عراك عام من العناق الدافئ الذي نسميه اليوم بالقصف والعربدة. لكن فكرة العربدة تتضمن تعطيل النظام المتفق عليه وعرقلته. كيف لك أن تمارس العربدة – أو حتى تستخدم هذه الكلمة؟ - في وقت لا يوجد فيه أية إشارة إلى الحلال والحرام، والمفضلات، ناهيك عن العادات والتقاليد.

البنتان اللتان كانتا تغريان الصبيان في وقت لاحق ليلقوا حتفهم، شاهدتا الآن ما كان يجري ورجعتا من حيث جاءتا.

العجوز، التي تساندها البنتان اللتان رجعتا راكضتين إلى شاطئهما، جاءت بسبب الصخب، وشاهدت بأن ما فكرت به هو مشهد عنف عام، أو حتى جريمة. بدأت بالصراخ وهي تشجع بناتها لإلحاق الأذى بالصبيان إن استطعن. حضورها فرض نفسه بتؤدة على الشبان، ثم شاهدت وجوهاً تلتفت نحوها، فبزوغ هذا الإدراك هو المحرض هنا على اقتراف الجريمة.عرفت بناتها هذه الحقيقة وأخبرن حالاً بقية البنات، ثم فهم الشبان هذا أيضاً.

كانت لوحدها. انشغلت "ميري" و"آستر" بالشبان، الذين يمكن أن نسميهم بدقة آباء لأطفالهما، ولم تكونا قادرتين على مشاهدة ما حدث. النافور – الذي غاب عن وعيه لبرهة هناك على المنصة – أمسك حجراً وكسرها على رأسها. وهي أول جريمة تدون في سجلات الذكور في ذلك

اليوم (نسوا الجريمة الأولى). قد تكون هناك جرائم أخرى، ونحن لا نذكر هنا الوحوش الأولى التي قتلت.

قذف بجثة كبيرة السن على الصخرة القاتلة للنسور.

رجع الصبيان إلى واديهم : معهم بعض البنات. وقد رجعت "ميري" و"آستر" إلى كهفيهما. أو أنهما حاولتا ذلك.

في هذه الأثناء حدث شيء آخر. حينما تركت "ميري" و"آستر" نقطة مراقبتهما في ذلك الصباح، وضِع الأطفال والناشئة برعاية صدوع صديقة التي لا تستطيع معرفة الكثير مما يجري. فقد شاهدن بنات كبيرات السن في أوقات مختلفة يُغرين الصبيان بالنزول من الجبل، وقد جعل الصبيان من هذا لعبة.

في نقطة ما، بدا جرف الصدع يعج بالبنات، وكان من السهل مشاهدة ما إذا كُنّ من حلفاء كبيرات السن، أم من حلفاء "ميري" و"آستر". وشاهدوا ما يشبه المعركة التي تدور رحاها فوق الصخرة القاتلة. وهم لم يشاهدوا موت كبيرة السن. والبنات اللواتي لا يعرفن إن كن من حلف كبيرات السن أو من حلف "ميري" و"آستر" تقاطرن راجعات إلى شاطئهن. ثم مر الكثير من الصبيان ومعهم بعض البنات يصعدون الجبل. ثم جاءت النسور من الجبل تنقض على الصخرة القاتلة.

كان الأطفال والناشئة في نقطة مراقبتهم متذمرين ومضطربين. فلم يُرسل أحد إليهم ليخبرهم بما يجري. في النهاية غادرت هذه المجموعة من البنات والأطفال مواقعهم ونزلوا إلى مستوى الصخرة القاتلة، حيث تجمع هناك أعداد هائلة من النسور تمزق بمناقيرها ومخالبها قطعاً من اللحم، وهي بكل تأكيد ليست من لحم الناشئة. أخافت النسور الأطفال الذين سرعان ما بدؤوا بالبكاء. شقت هذه المجموعة الصاخبة طريقها راجعة إلى الشاطئ، الطريق الذي أغلقته البنات المعاديات اللواتي كن يقذفن الحجارة عليهن وحتى على الأطفال. وكانت العجائز على حافة البحر تلوح وتهدد : كن يأمرن بناتهن بالقبض على الأطفال والتخلص منهم – كان البحر قريباً. البنات اللواتي اعتنين بالأطفال لم يستطعن الهروب : تحديداً

بسبب الأطفال، حتى حينما تبين بأن أذيتهن كانت مقصودة. وقفن عند خط الشاطئ وطلبن المساعدة من كبيرات السن. "ساعدونا" – لم يعرفن شيئاً عن مؤامرة التخلص منهن في رحلة جمع البطليوس، ولا عن خطة قتل الصبيان. لم تكن كبيرات السن على وفاق مع "ميري" و"آستر"، ومن تحالف معهما من البنات لزمن طويل، لكن لم يكن هناك سبب لتوقع خطط القتل.

حينما أردن هؤلاء البنات الصعود إلى كهوفهن مع الأطفال، كانت الصدوع المعادية قد أغلقت الطريق. فقد ظهرت من هذه اللحظة مجموعتان من الصدوع، أعداء ألداء يقاتلن بعضهن البعض. شقت البنات وأطفالهن الطريق بين البنات المعاديات، وتحول عجزهن إلى شجاعة وقدرة على التحدي. ودفعن بأنفسهن في كهف "ميري" و"آستر"، ووقفن في المدخل، يحملن عصيهن وحجارتهن، والحطب المكدس أصبح الآن مفيداً.

وصلت "ميري" و"آستر" لتجدا بناتهما وأطفالهما وناشئتهما في الكهف، وحشد من البنات المعاديات في الخارج، يهددن ويتوعدن المدافعين، في حين كانت كبيرات السن يصرخن بالتشجيع عند حافة البحر.

التحمت المجموعتان: علينا أن نستنتج من هذا، أن المعركة استمرت حتى المساء، وأصبح من الصعب مشاهدة بعضهن. غادرت "ميري" الكهف، بعد أن تأكدت من سلامة الأطفال، ونزلت تشق طريقها إلى حافة البحر بين البنات المهددات والعجائز اللواتي عرفن أن واحدة منهن قد اختفت، لكن لا يعرفن متى وأين؟ وهناك أخبرتهم "ميري" بأنه من غير المتوقع أن تعيش كبيرات السن لفترة طويلة إذا لم يكن هناك مزيد من القتل، أو حتى الحديث عنه. بوصف هذا المشهد، حدث الكثير بوصول النسور، لتوهم من الصخرة القاتلة، فقد جلست النسور على قمم الجرف، تنظر إلى كبيرات السن. تقول القصة جلست مهددة. حتى الآن، هكذا تحدث الرواة، فقد اعتبرت النسور بأن "ميري" و"آستر" صديقتين للصبيان وبالتالي صديقتان لهم أيضاً. هذا الحدث، الذي يسمى في كل مدوناتنا

– مدونات الذكور – وفي مدونات الصدوع " وصول النسور " – جعل كبيرات السن مذعنات، وجعلهن مطيعات على أقل تقدير.

لكن فكرت "ميري" أنه من الأفضل إبعاد الأطفال الجدد المكروهين عن هذا الشاطئ الخطير، لبعض الوقت على الأقل. رجعت "ميري" إلى مدخل كهفها لا تحمل سلاحاً سوى السلطة التي منحتها لها طبيعتها، وكينونتها وقد دعت المحاصرين منهم للخروج متجاهلة البنات المعاديات اللواتي ازدرين صغار الأطفال وكبارهم لصخبهم " وللمشاكل التي جلبوها لهن جميعاً ". ثم مشت هذه المجموعة التي أخبرت أصدقاءها البنات عن وجهتها، ومرت بالصخرة القاتلة التي لا تزال تحتلها النسور، صعدت الجبل ومن ثم نزلت إلى الوادي، حيث كانوا هناك بانتظارهن.

سيكون الأطفال أكثر أمناً هنا، ويمكن مراقبتهم جيداً لمنع سقوطهم في النهر أو تجوالهم بين الأشجار.

سمع كل هؤلاء الأطفال القصص حول الظبيات اللطيفات اللواتي أرضعن الوليد حينما لم يكن هناك صدع بالغ، وكان من الصعب الحفاظ عليها وهي التي خرجت بعيداً عن الغابة.

هذا الحدث أو الأحداث التي تتناول مؤامرة كبيرات السن لإغراء الصبيان بالأجواء المميتة للصدع، ونيتهن لقتل أكبر عدد ممكن من حلفاء مير، وخطط إيذاء الأطفال، دوّنت بتفاصيلها، ولا تزال حيّة حتى الآن، لكنه التدوين الأخير بدقته ووضوحه، ثم تبدد بعدها إلى مراحل منفصلة. هذا اليوم الذي مر عليه زمن طويل هو الذي ترك مثل هذا الانطباع، ليس على الرواة فحسب، وإنما على ذاكرة المشاركين، الذين ما زلنا نشاهدهم صامتين. أو هل يمكن أن يشبه هؤلاء الناس أجدادنا القدماء – لو عرفنا من هم هؤلاء الناس.

***

الآن، قراءة الكلمات التي تحدث بها الناس لأول مرة، الناس الذين لم يتزحزحوا حتى الآن عن الزمن الذي وجدناهم فيه.

" ثم....." لكن متى؟ "

" بعد ذلك...." بعد ماذا؟ "

" حالاً...." منذ متى....؟ "

والآن، هذا المؤرخ، والمؤرخون السابقون ومن سيأتي من مؤرخين سيجدوننا مكرهين على التوقف. فالمدونات بكل خربشتها وتشققها وعيوبها تحكي لنا حكاية، بهذا المنطق الباطني، الذي لا ندركه سريعاً، والذي يبدو ضمانة لما يمكن أن يكون حقيقة. ثم – توقفت القصة. واستمرت موضوعات بعينها، مثال، العدائية عند كبيرات السن تجاه الجدد. التنامي في العقل والتعاون بين نوعي البشر، الصدوع ونسلهن. كان هذا عند الوحوش السابقة في الوادي. فقد كانت مجتمعات مزدهرة، ومرتاحة، وبسيطة العيش، ترقبها النسور لعهود طويلة. لكن بعدها - انتهى التدوين. لكن علينا أن نتذكر الشيء الذي انتهى. فإذا اعتمد التاريخ على المدونات الشفهية، وعلى الذاكرة، وعلى الرواة، عندها الشيء الذي انتهى ليس سهلاً. أولاً، يجب أن يقرر المجتمع والناس نوع السجل الذي يجب حفظه. فنحن نعرف جميعاً أنه في نقل الحدث وإعادة نقله أو نقل سلسلة من الأحداث، ستجد من التفاسير بقدر ما تجد من المخبرين. فالحدث يجب أن يدوّن. ومن ثم يجب الاتفاق على من سيقوم بمهمة استظهار هذه النسخة وليس تلك. فالحكاية يجب التدرب عليها – وقد نسلي أنفسنا بتخيل كيف تكون هذه القصص لاذعة أو محل خلاف على الأقل. ومن ستُحفظ نسخة أحداثه من قبل الرواة؟ وهكذا، تصل الحكاية والتاريخ إلى نقطة لا يختلف أحد عليها. ثم تأتي عملية الاستماع، حينما يتحدث المؤرخ عالياً. هل في كهف ما؟ على الأقل بعيداً عن أصوات البحر أو أصوات الغابة حينما تهب الريح. تبلّغ الحكاية، وتسكن في عقول الرواة، وربما في عقول العديد منهم. ويطلب أحدهم في فترة زمنية محددة – أو يطلب العديد منهم – بأن يُروى التاريخ مرة أخرى لتدقيقه من قبل أناس عاصروه. هل الحكاية لا تزال موجودة؟ هل لا تزال نقية؟ ألم يُنس منها شيء؟ ثم تنقل هذه الحكاية المدققة والمثبتة بعناية إلى الجيل

القادم كوثيقة تحفظ تاريخ الناس والقبائل ". بكل دقة تلك هي العملية، وليس غيرها، وهي التي تشغل الجميع.

كلا، التاريخ الشفهي، حالما تفكر فيه كاملاً، يجب أن يكون من إبداع الناس ومن ثم مُلكاً لهم. تخيل، مثلاً، من الذي وافق – وكيف – على تدوين النزاع بين العجائز و"ميري"، أياً كانت تلك التي حملت هذا الاسم في ذلك الوقت. وقد نتيقن بأن كبيرات السن لن يوافقن على نسخة الأحداث لدى ميرِ. فمن قرر بأن هذا الصدع وذاك، وليس غيره أو غيرهم، سيحفظ التاريخ في ذهنه؟ وينطبق الشيء ذاته على أناسنا، صبياننا. كانت مدوناتنا مليئة بالحكايات، والأحداث المتواترة التي تتناول العجائز، اللواتي لم يتفقن معنا على أية كلمة اتفقنا عليها.

علينا أن نفسر حقيقة أننا نحن والصدوع حفظنا المدونات، وبكل ما استلزم هذا من عناية وانتباه – وهنا أراهن – لعهود. لزمن طويل. ثم ماذا حدث بعدها؟

يفكر بعضهم بأن الحكاية استمرت ولم تنقطع دون أن يتغير فيها الكثير، فقد وقع المؤرخون لفترة طويلة في النمط الذي يشير غالباً إلى مرور الوقت. حينما تسمع عبارات مثل " اعتادوا على...." كانوا في عادة...."..." سيذهبون (يأتون، يفعلون، يقولون، يتفقون على....)"، فهذه العبارات تشير إلى السلوك أو الفكر الاستمراري. بالنسبة لي أتفق مع بقية المؤرخين بأن زمناً طويلاً مضى على رحيل أجيال من المؤرخين ومن الرواة، ولسبب ما لم تُبذل أية محاولة لإطلاق عملية إعادة تفعيل الراوي الاجتماعي.

لكننا كنا مخطئين، فقد كان هناك توقف حاد في حياة كلا المجتمعين لدرجة توقف لديهم التطور العادي والسلس.

في كلا التاريخين أول كلمة ذكرت للتعبير عن الكارثة هي " صخب " : " حينما بدأ الصخب...."، واستمر الصخب...." لم نكن نعرف ما الذي أوجد الصخب، حتى أن بعضنا أصيب بالجنون...."

***

" الصخب" في الحقيقة هو الريح، التي تهب علينا من الشرق، الريح العاتية، الريح التي لا تقاوم، التي جعلت الجميع يؤمنون بأنواع التدخل الخارق للطبيعة.

قبل أن تصل إلى شاطئ الصدوع، أو إلى وادي الصبيان، على هذه الريح أن تجتاح الجزيرة من أولها إلى آخرها، تحطم الغابات، وتضرب البحر بسياط التدمير. أنّت الريح وصفرت، تنهدت وصرخت، وكان الصخب، شيء لم يتوقعه أحد من الناس. فالريح التي عرفوها في حياتهم هي الرذاذ الخفيف للموجات، تمايل الأغصان وذبذبتها، لكن بهذا الشكل؟ هذا الصخب؟ وبقينا لفترة طويلة نسأل ما هذا؟ ما الذي جعل الريح بهذه الشمولية بحيث تسوي الغابات بالأرض، وتسقط الصخور من الجبال، وترفع غيوماً من الغبار السام، وتمضي وهي تئن وتصرخ – ولا نعرف كم يستغرق هذا. فقد عشنا جميعاً كما أعتقد العواصف الكبيرة، وربما لم نشاهد أشجاراً تتهاوى. فما بال الطبيعة تبعث رياحاً كأنها الصخب ابتلعت جزيرتنا؟

في الملاجئ الهشة قرب حافة الغابة وجد الصبيان أنفسهم عاجزين حينما اقتلعت الريح ملاجئهم أو قذفت بها في النهر. فقد ضاق بهم الوادي الجميل ولم يجدوا فيه مكاناً آمناً. النسور لم تعد قادرة على الطيران، فقد قتلت جميعها أو أصيبت في هذه الأيام والليالي الطويلة من الصخب. زحف الصبيان يتسلقون الجبل، بطونهم التصقت بالأرض، وصلوا إلى القمة حيث أعشاش النسور المهشمة والطيور المصابة، شقوا طريقهم إلى الكهوف فوق الشاطئ حيث رحبت بهم البنات، وسعدن لحضورهم. أصيبوا جميعاً بالصدمة من خوفهم وعجزهم. فلم يكن لديهم أي تشخيص – أو أننا نعتقد ذلك – لهذه الريح، الصخب، ولم يصلّوا – كما أعتقد – لكينونة الريح. وصل الجميع إلى الكهوف بمن فيهم الذين لم يغادروا الشاطئ أبداً، ارتجفوا وبكوا سوية. لم يكن هناك أي ذكر للعجائز، كبيرات السن، من هنا نعتقد بموتهن جميعا، ولم تصل أي من الشابات إلى مقام ومنزلة العجائز. هذه الكهوف القريبة من البحر كانت

مليئة ومزدحمة بالناس الجائعين والخائفين، لم يستطيعوا الخروج إلى العاصفة ليصطادوا السمك، كما أنهم لم يستطيعوا إشعال النار. استمر الصخب ولم ينقطع، وبدت الجزيرة كأنها تطير في الهواء.

ما الذي سبب هذه الريح؟ ومن أين تهب؟ لم يُستأنف التدوين على الفور، لكن حينما بدأ المدونون، قيل بأن كل الصغار الذين ولدوا، كانوا أعزاء ومصونين، وكل رضيع خُصّ بشخص أكبر منه إما مراقباً أو مربياً. للقضاء على المجتمعين كليهما كان هناك تصور للرواة بإبادة كل الناس الذين يعيشون في الشواطئ والوادي بأقصر وقت ممكن. العاصفة الهوجاء – أو الصخب – يمكن أن تقوم بهذا. "أُعطيت الأوامر للرواة بأن يحفظوا في مدوناتهم بأنه " لا يوجد منا سوى القليل "، ولعل هذا للتذكير فقط.

منذ زمن الصخب – الريح الصرصر – كانت هناك مدونة جديدة في تاريخ الشاطئ والوادي على حد سواء : زرعت الريح الخوف في قلوب الناس الذين لم يعرفوا الخوف من قبل – هكذا بدا -. كانوا خائفين. فقد غيرهم الصخب جميعاً بما حمله لهم من مفاجأة ودهشة. وقد حدثت بطبيعة الحال أشياء سيئة قبل الموت والغرق، بدايات غير محمودة للذكور، لكن حينما تعرضوا لهجوم الطبيعة الإجرامي، هل تعرَّض له بالضرورة أصدقاؤهم من قبل؟ " فما حدث قد يحدث ثانية ". الصخب، الريح علمتهم جميعاً ما هم عليه من عجز.

رجع الصبيان إلى الوادي بالسرعة الممكنة. وقد دُوِّن بأنهم لم يتحملوا إشراف النساء ونظامهن، وأحسوا بعدم التقدير لهم أيضاً. حينما كان الصخب في أشده لم يأكل أي منهم لأيام عديدة – وربما لأسابيع – فقد زحف الصبيان على بطونهم إلى الشاطئ لجمع السمك المتطاير من غضب الأمواج. أضرموا النيران الملتهبة في الكهوف الخاوية وطهوا السمك. وبعض الحيوانات التي هربت من الريح وصلت إلى الشاطئ مذعورة خائفة، قتل الصبيان منها بأقواسهم وأسهمهم ما فيه الكفاية لإطعامهم جميعاً. ولم تُظهر النساء أي إعجاب بهذا الذكاء، وكالعادة بدأ التذمر من قذارة الكهوف ورائحتها الكريهة.

وبالعودة إلى الوادي لم يجدوا الراحة التي ألفوها من قبل.

الغابة الكبيرة التي كانت هناك شاهداً على الوفرة، سُويت بالأرض من الريح. ومن الصعب اليوم السير فيها، فالجذوع والأغصان المترامية جعلت أجزاء منها يصعب اختراقه. تألمت الحيوانات وتألمت معها الطيور أيضاً. وحينما نزل الصبيان من الجبل لم يتعرفوا بسهولة على مكانهم. فالأكواخ والملاجئ قذفت بها الريح، أو سيطرت عليها الحيوانات لتجد ملجأ لها. وبدا الوادي كأنه مليء بالروث والتربة المبعثرة. وظهر طريق من الغابة المدمرة إلى حافة النهر مشت عليه الحيوانات لتشرب، فقد تناثر الماء على سرير النهر من شدة الريح، وخرجت المستنقعات والقصب والعشب من الأمواج الضحلة.

لم يرجع الصبيان إلى الكهوف، لكنهم حاولوا نصب مخيماتهم في المكان الصحيح. وحينما أخذوا السمك إلى مكان النسور لم يأت أي منها مسرعاً. وابتهجوا بجلب الطعام لها – فقد كسرت الريح أجنحتها وأرجلها. فالصبيان الذين لم يخافوا يوماً من هذه الطيور الكبيرة، حاولوا مساعدتها، حتى أنهم بعثوا رسالة إلى الكهوف يطلبون فيها مجيء من لديه الخبرة في جبر الكسور. منذ ذلك الوقت نظرت النسور إلى الإناث كأصدقاء لها كما الصبيان.

ومنذ ذلك الوقت بدأ الاهتمام بالأطفال، الصدوع والنوافير على حد سواء – لكن قد تكون اللحظة التي نستعيد فيها عبق التاريخ. " الإشاعة التي تقول حينما ولدت الذكور الأوائل سموا بالوحوش، وسيئت معاملتهم أحياناً بل إنهم قتلوا، يجب أن تبقى مجرد إشاعة. فالحكاية تعبر عن شيء من الحقيقة السيكولوجية الدامغة. يعتقد الآن بأن أسلافنا الأوائل كانوا ذكوراً، وإذا سأل أحدهم كيف أعادوا خلق أنفسهم، عندها سيكون الجواب بأن النسور وضعتهم من بيوضها. بعد هذا كله، احترام الطيور الكبيرة الذي تناولته مئات الأساطير التي تتحدث عن أصلنا لم يأت من فراغ. أن نعتقد بأن النسور، أو حتى الغزلان، كانت أسلافنا، أسهل بكثير من أن نعتقد بأن بدايات الناس كانت إناثاً، وجاء الذكور

كمنجز لاحق. إذاً، لماذا يمتلك الذكور أثداء وحلمات إذا لم تستخدم هذه الأثداء والحلمات بشكل عملي في يوم ما؟ يمكنهم الإنجاب من سراتهم. فهناك احتمالات عديدة، كلها تحمل مصداقية أكثر من أن الإناث جئن أولاً. وهناك شيء ضمني لا يصدق عن الذكور كمخلوقات لاحقة : من الواضح بأن الذكور هم الأوائل بطبيعتهم، وطبيعة تصميمهم".

فهذا الجزء يرجع إلى زمن متأخر كثيراً عن أي شيء لدينا. إنه من تاريخنا – تاريخ الذكور ".

هناك موضوع ثابت في كل المدونات بعد الصخب، هو معرفة التهديد، والخطر المتأصل والحتمي والملازم: الخوف على الرُّضع والأطفال الصغار.

فقد مضى زمن طويل، حينما بدأ الصبيان الصغار يخافون مهاجمة بعض الإناث. حينما ولد الوحش الصغير لم تكن هناك حاجة ملحة لأخذه إلى الوادي ليترعرع هناك. فمنذ نشأتهم الأولى برهن الصبيان على مقدرتهم على الاعتناء بالصغار – فهم الذين علموا الغزال كيف يطعم الرُّضع، وكان الصبيان الأكبر سناً مسؤولين عنهم. فقد حرس الصبيان أحياناً الصدوع الصغيرة أيضاً: غالباً ما تؤخذ بنت صغيرة أو أحياناً بنت أكبر منها إلى الوادي، حينما يحين زمن تزاوج أمها، تتوسل لتترك هناك. ففقد استمتع الأطفال والصبيان والبنات في الوادي، وقد فضل بعضهم العيش قرب البحر.

فقد وجد الصبيان والبنات على حد سواء كل العز والدلال، والمراقبة.

تخلت الإناث عن قابلية الإخصاب من الريح منذ زمن بعيد، أو من الموجة التي تحمل الخصوبة في صلبها، فلم يلقحهن أحد سوى الذكور. وقد استغرق هذا بعض الوقت لمشاهدته من قبل الذكور والإناث. ولا بد أن تكون هناك خاصية، حينما استوطنت هذه المعرفة وبشكل مؤلم : فالإناث يجب أن يعتمدن على الذكور لإنجاب الأطفال. فهل هذا يعني بأن كليهما فهما الوسائل التي أودعت الصغار في رحم النساء؟ وهل استمرت

الأفكار حول تلقيح الريح والأمواج في الإحساس العام، ثم – فجأة أصبحت الحقيقة معروفة؟ وحينما فقدت الإناث سلطتهن على الحمل، لا بد أن يكون هذا تخلياً عن الاعتقاد بأنفسهن، وكيف يمكن ألا يكون هذا مؤلماً؟ فأنا ميالة للاعتقاد بأن الحقيقة استوطنت عند الطرفين في الوقت ذاته، أو على الأقل في زمن معقول. مع ذلك، من بداية هذه المدونة (التي يستفيد منها الطرفان) كان القدوم المفاجئ للمعرفة وللفهم شائعاً، وكذلك كيف كانت الطبيعة تدير نواميسها. وفجأة اختلف واحد أو اثنان أو مزيد من الأفراد، فكروا بشكل مختلف، انصاعوا للدوافع الجديدة لديهم. وهكذا خُيل إلي، بأن المعرفة التي كانت (ذات مرة) من ترتيبات الذكور البشعة ووضعت الأطفال داخل الإناث، حدثت جميعها في وقت واحد. وفجأة أصبحت الحقيقة ساطعة.

القلق والاضطراب من قلة الأطفال، ومن الضعف الذي أصبحوا عليه جميعاً – في قصص الذكور وفي قصصنا – استمر التذمر من النق المتواصل للإناث. اكتشفت الإناث حاجة الذكور، وعلينا أن نتساءل الآن إن عبّر هذا عن استياء عميق – لأن الإناث اعتمدن بشكل كبير على الذكور.

في حين استمر هذا كله على النموذج القديم (يمكن تسميته نموذج ما قبل الصخب).

وُلِدَ كل الصغار في الكهوف فوق البحر، لعبوا في الأمواج وكانوا آمنين. فقد عاش معظم الإناث في الكهوف، لأنهن لم يحببن الوادي، وعاش معظم الذكور في واديهم وكانت هناك زيارات متواصلة. كانت البنات تذهبن إلى الوادي كلما أردن، وأمضى الذكور وقتاً في الكهوف. صغار الذكور الجُدُد لم يُربّهم الرجال، ولكن كانوا مع البنات الصغار. فالكهوف التي تزخر بالأطفال الصغار من ذكور وإناث، لا يبدو أنهم يختلفون كثيراً عن تشكيلة أطفالنا. ذهب الأطفال من صِبيان وبنات إلى الوادي، فقد كان الوادي مكاناً عجيباً ومدهشاً للبنات والصبيان الصغار.

لم تحب النساء أن يكون الأطفال في الوادي – وهنا تبدو شكوى ثابتة أخرى منهن. فقد تخلص النهر الكبير من الصخب، وجرى بسرعته وقوته المعهودة، وكان الأطفال في خطر. فالأكواخ والملاجئ التي بنيت حديثاً كانت كما هي دائماً مغبرّة ومتسخة، وإن استمتع فيها الأطفال، إلا أن النساء لم يرتحن لهذا، وحاولن إبقاء الأطفال معهن على الشاطئ. لكن تغير هذا، فقد ظهرت عادة ترك الصبيان لكهوفهم وأمهاتهم، والانضمام إلى الرجال حينما يصبحون في سن السابعة. وقد وصف الصبيان الكهوف والشاطئ بلغة لم نألفها من قبل، ووصفوا الكهوف والشاطئ وأمهاتهم بالنعومة والطفولة. ونُظر إلى النهر الكبير ومخاطره على أنه أساسي وضروري لنمو الصبيان. وكان على الصبيان جميعاً ترك الكهوف حالاً وتعلم كيف يواجهون مخاطر التيارات النهرية الباردة، العميقة والمميتة. وحينما مات الأول وتبعه الثاني، اعتقد الذكور بأنه خطر جديّ.

***

بعض الأحداث في هذا الصيف تجعلني استأنف تعليقاتي.

سأمهد بما سأقوله للتذكير بأن أهالي إسبارطة أبعدوا الأطفال الذكور عن أمهاتهم في سن السابعة.

خرجت أنا وتيتوس إلى بيتنا في وقت باكر من الصيف، متوقعين ألا نرى جوليا وليديا حتى أوائل الخريف الباكر، لكن جوليا بعثت لي رسالة بأنها كانت تنوي الذهاب إلى حفلة عرس في مزرعة قريبة من بيتنا وبأنها ستقوم بزيارة مفاجئة لنا. زوجها الجديد كان إسمه "ديسمُس"، وكانت جوليا عشيقته لسنوات. تزوج ديسمس من لافونيا التي رغب بزواجها، فهي امرأة ذات منزلة رفيعة. أرسل ديسمس عربة ليأتي بجوليا إلى العرس، وفي مساء يوم ما تكللت هذه المركبة الجميلة وتزينت وأوصلت ليديا إضافة إلى جوليا. خرجت النساء وخرجتُ معهن لاستقبالهما. هرب تيتوس بمجرد مشاهدتهما، لكن ما إن شاهد أمه وأخته حتى توقف، وتسمر يتجهم

بهما : كانت الشمس في عينيه. لكن ليست هذه هي المشكلة : فقد شكلت جوليا وليديا ثنائياً باهراً. لبست جوليا رداء بلون وردي، ولبست البنت الصغيرة رداء بنفسجياً فاتح اللون، صممته لها أمها. الآن بدت جوليا امرأة رقيقة، أما تلك البنت التي يبدو عليها الضعف واللطف فقد زُيّنت أيضاً. شاهدت جوليا صبياً بهي الوجه، يحدق بها. لم تعرف للوهلة الأولى بأنه ابنها، الذي لم تشاهده منذ سنة أو يزيد. أول ردة فعل تجاهه كانت مغازلته، فقد ابتسمت له مقرة بجاذبيته، لكن توقف هذا الدافع بمجرد مشاهدتها لوقفته. كان عنده نصف استدارة، بيدين مسبلتين، وبدا جسمه كأنه على وشك التحليق والابتعاد.

وقف بجانب أمه وأخته مبتسماً. انظر إلي ! انظر إلي فقط. يبدو أنك لم تعرفني، أليس كذلك؟ هذان الاثنان كانا لك على الدوام صديقين حميمين حتى الصيف الفائت، حينما بدت جوليا وكأنها على وشك الدخول طوال الليل في منحة طبيعية قديمة – المعرفة الجنسية التي جاءت حديثاً، الفهم الغريزي لنفسها ولجنس الذكر. فابتساماتها لأخيها لم تقر بصداقتهما، لكنها أقرت بأنها في سن البلوغ وعليه أن يميّز هذا. فهل من هوة أكبر من صبي في الثالثة عشر، وأخته في سن الخامسة عشرة، وهي امرأة مكتملة؟ ذُهل ولدي، وكأن ابتسامات المرأتين كانت سهاماً شُذّبت بالسم. فقد توقف ولم يستطع الحراك.

في هذه الأثناء شلت بالمقابل حركة جوليا. فهذا ابنها، هذا الصبي الجميل. ولم تعرف كيف تتصرف. بعد ذلك تقدمت خطوة نحوه، وأدخلت يدها بشعره – يد بيضاء جميلة لمعت منها خواتم زوجتي الأولى وخواتم أمي كذلك. تراجع الصبي خطوة إلى الوراء متجهماً. كان يساويها في الطول.وكانت عيناه بمستوى عينيها السوداوين الجميلتين المحدقتين القويتين الرزينتين – هل هما تتهمان؟ فقد تنكر لها بكل تأكيد وتنكر لملاطفتها السخيفة. أعتقد أنها كانت تشعر، كما شعرت أنا من قبلها منذ سنوات طويلة، بأنه ابنها وبأنها أضاعت كل هذه السنوات التي كان يمكن أن تتعرف عليه فيها. لا أعرف : هي لم تقل هذا قط، لكنها

كانت بكل تأكيد نادمة، وهي تقف هناك. اغرورقت عيناها بالدموع. في هذه الأثناء، كان حصان العربة خلفها تماماً يضرب قدميه بالأرض ويهز رأسه : كان العنان مشدوداً. أومأت لسائق العربة لكي يطلق عنان الحصان، وشاهدتُ بأن جوليا في اللحظة ذاتها، قد شاهدتْ عدم ارتياح الحصان، وربما عالجت الأشياء بنفسها. فقد اجتاحها العار، ومزيج من الندم، تقف هناك، هذه المرأة الجميلة، تحت أشعة الشمس المحرقة. أمسك العبد المظلة بقوة، لكن الشمس كانت تلفح خديها.

قلت دائماً بأنها صاحبة القلب الطيب، وهي امرأة لطيفة، واعتقد أن أصحابها الحاليين سيضحكون حينما يسمعونني أقول هذا. فهم يعرفون المرأة التي تصفق للدم في حلبة الصراع، وآلام الاحتضار للحيوانات والمتصارعين. وعلى الرغم من ذلك، شعرت في ذلك المساء بهذا الحصان الذي سيئت معاملته.

أكانت بهذه الصورة من الهشاشة والعجز؟ - وقمتُ مندفعاً لفعل شيء خططت أن أقوله لها، وحدها.

كنت أعتقد أنها مخطئة في موافقتها على الذهاب إلى هذا العرس، وبخاصة حينما اقترح هذا الزوج الجديد إرسال عربة صغيرة وأنيقة جداً. جوليا ستتألق في هذا العرس، بغض النظر عن عدد النساء الجميلات هناك. تقدمتُ خطوة إلى الأمام، ووضعتُ ذراعي حولها وهمست في أذنها الظاهرة تحت إحدى التسريحات المعقدة البشعة التي هي من صرعات اليوم، " احذري أيتها الحجلة الصغيرة، احذري يا جوليا ".

سمعتْ ليديا هذه الكلمات. ولا أعتقد أن أحداً من الأطفال شاهد كثيراً من اللحظات الرقيقة من آبائهم. كانت جوليا حذرة ألا تزعج خصلات شعرها المعقدة، فقد استجابت وهي تذوب في عناقي (سأقول كما تقول الابنة وليس كما تقول المرأة) وهمستْ قائلة " شكراً لك يا عزيزي، شكراً جزيلاً لك " – لمعت عينا ابنتها – الغيرة، هذه العاطفة البدائية جداً، غيرة الأم وابنتها. مدت ليديا يدها وكأنها تريد أن تسحب أمها مني، لكن أنزلتها. وقف الصبي في هذه الأثناء يحدق بنا. لو كنا في

خصوصية لكان علي الاستمرار، " هذا لا يخفى على أحد يا جوليا أن تعاقب الزوجة الجديدة أو تقتل التي سبقتها : " لكنني كنت أشاهد جوليا تفكر بعمق وقد تركتني ألمس خصلات شعرها السوداء الملفوفة.

(لافونيا الزوجة الجديدة توفيت في حادثة ولادة في ربيع العام التالي)

تقدمت جوليا نحو العربة والدموع تذرف على خديها الورديين، وليديا التي يُحس بوضوح أنها لم تفهم الحالة جيداً، جاءت تعانقني. ولم يكن هذا زيفاً أن أنسجم جيداً مع ليديا الصغيرة - لكن ليديا الصغيرة لم تكن حاضرة هنا في هذا المساء، وإنما حضرت هذه المرأة الشابة الجميلة، التي رجعت إلى طفولتها بلحظة. وما إن شعرت بنفسها أنها وليدة شهور قليلة حتى ذهبت إلى أخيها بدون غنج أو غزل، ولكن بعثت إليه بنظرات على أنه صديق – كأخت تحبه. لكن تيتوس لم يعرها أي انتباه. لم تتقبل ليديا هذا، وهزت رأسها وأصبحت على وشك العبوس، لكنها دخلت العربة أيضاً، وذهبت الاثنتان إلى البيت المجاور. لم يكن بعيداً : يمكن الوصول إليه مشياً على الأقدام.

وقفتُ هناك في ذلك المساء الجميل، تحوم النسور فوقي، وتزقزق العصافير في الأدغال المجاورة.

صرف الصبي انتباهه عن المرأتين بدافع عنيف للهروب، قفز، مرة ومرتين وأكثر – مضى هارباً في الحقول التي جفت من أشعة الشمس. هكذا أتذكر ذلك الصيف – الصبي في حركة مستمرة، يطير لوحده أو مع صبيان من رعاة الماشية، أو مع أبناء العبيد في المنزل. لعبوا جميعاً مع بعضهم البعض، لكن ما كنت أرقبه لم يكن لعباً.

أحبت خادمات المنزل تيتوس فقد عرفن كل شيء عن حياته، ويمكن القول بأنهن كن أمهات أخريات له. شاهد بعضهن تلك اللعبة الصغيرة بجانب العربة. وعرفن كل ما يعني هذا – فالعبيد والخادمات يعرفون أكثر مما تتخيل. أردن أن يعوضن الصبي عن أمه المهملة، لكن وقتها لم يكن بحاجة إلى الحنان. لدى مراقبة أنشطته العنيفة، وهو

يخاطر في تسلق التلال التي عششت فيها النسور، وسباقات الجري مع بقية الصبيان، وهناك على قمة الأشجار العالية صَعُبَ علي مراقبة القفزات والحركات البهلوانية والمسابقات التي وضعوها لأنفسهم، شعرت وكأنه يحاول أن يجتاز شيئاً أو شخصاً ليحرر نفسه. ذكروني مرة حينما أُرسل بعض العبيد لجلب السمك من المستنقع وكان الذباب يبحث عن طعام له هناك. وكان العبيد يرقصون ويقفزون داخل غيمة كثيفة من الحشرات يسحقون رؤوسها وأيديها وأرجلها.

يمكن أن تتخيل بأن مادة صمغية غير مرئية كانت تهاجم ولدي وهو يحاول أن يخلص نفسه منها.

فقد أصبح نحيفاً وهزيلاً في ذلك الصيف، ولم يعد طفلاً ولكن أصبح شاباً قوياً، ورجلاً.

رفض أن يشاهد أخته، ولم يكن في البيت، حينما وصلت جوليا وكانت مستعدة لمشاهدته.

دفعني هذا الصيف لأن أفكر بطفولتي، فقد كنت واحداً من ثلاثة إخوة، أكبر من البنت الصغيرة، التي ولدت متأخرة في حياة أمي الإنجابية. نحن الصبيين أشفقنا على البنت، وجعلنا منها ألعوبة لنا – وقد أهملتْ حينما وقفت في طريق ألعابنا. فقد كان صيفاً ثقيلاً على صبي مثلي أكبر من أخته المحبوبة.

حاولت أن أكون دائماً قريبة منه وحاولت أن أريه – بصمت – كيف أشعر تجاهه. وكذلك فعلت الجواري والعبيد – من النساء. كان صبياً مؤدباً، وطيب القلب، لم يتمرد عليهن، يتقي شرهن، يهرب منهن، ويصد وجهه عنهن دائماً.

التقطت في مساء ما طاقة صغيرة من الأزهار، ونزلت ماشياً إلى تمثالنا آرتميس، في بستان تقاطعت عنده الطرق، وحينما شاهدت تيتوس يمشي خلفي، ينظر ليرى ما كنت أفعله، أومأتُ إليه فهز رأسه، لكنه ظل خلفي، أسمعُ وقع خطواته على أرض تصلبت من الجفاف. عندما

كنت صبياً (مثل والدي)، أحببت ديانا، البنت الغلاميّة[1] التي فكرت بها كزميلة اللعب التي تفهمني جيداً. تركتُ لها هدايا صغيرة، على أمل أن أرجع إليها وإلى بناتها في يوم ما، وتتعرف علي. وجدتها فيما بعد صغيرة جداً علي، وأحببت أرتميس. حينما وصلت التمثال، انحنيت ووضعت طاقة صغيرة من الزهور عند قدميها. كنت آمل أن يشاهدني تيتوس ويفهم ما أشعر به. لم استطع أن أقول له بأن أمك وأختك ليستا الممثلتين الوحيدتين لجنس الأنثى.

كان يقف بجواري، ينظر معي إلى أرتميس الجميلة. كنت أقول له في نفسي ليست المشكلة في الصعوبة التي أصبحت عليها الأشياء، يمكننا الاعتماد دائماً على شيء لا يتغير أبداً. فآرتميس الباسمة الرحيمة ستظل هنا إلى الأبد. وليس لنا أن نتخيل غيابها في يوم ما. فأنا لم أُظهر الكثير تجاه جونو، ومينيرفا، وهيرا، فهم بعيدون جداً عني. وسيبقون أيضاً في فردوسهم دائماً. لكن أشعر بأنني قريب من آرتميس قربي لأمي أو لزوجتي الأولى البائسة. انظر يا تيتوس وتذكر: إنها هنا، ستبقى دائماً هنا.سيبقى تمثالها هنا باسماً إلى الأبد.

* * *

تغيرت الحياة على النهر مع مرور الزمن. وصلت القوارب، التي لا يتعدى بعضها جذوع الأشجار أو حزم القصب. كانت هناك المهرجانات على النهر التي شاركت فيها جميع الإناث، وكان هناك الرقص والولائم. فالمهرجانات التي تحمل معها إحساساً " بأننا نقيمها دائماً بهذه الطريقة "، لا يمكن أن نتخيلها كما كانت في الأيام الأولى للناس الآن تجد الولائم التي تأخذ فيها النار دوراً مهماً، وطهي اللحم الذي جيء به من الغابة – نحن نتحدث عن عصر، أو عصور خلت.

---

(1) غلامية : تتصرف كما الغلمان

اليوم التقى شباب هؤلاء الناس من ذكور وإناث دورياً عند الصخرة القاتلة، التي نُسي تاريخها المروع منذ زمن بعيد، وأقيم عليها المصارعات والسباقات وكل أنواع الألعاب البهلوانية، ولم يعد ممكناً أن نتخيل الإناث الناعمات والسمينات والبطيئات من العهود الأولى يتصارعن أو حتى يركضن. أعتقد، يتوجب علينا الافتراض بأن بنية أجسامهن قد تغيرت، فأجسام البنات القوية التي سبحت بسرعة تفوق سرعة مشيهن، نحلتْ الآن وأصبحت رشيقة ومرنة.

في غضون ذلك - كم كان هذا الغضون طويلاً – طالب الصبيان الصغار جميعهم بأن يصبحوا جزءاً من الحياة النهرية، فهم ليسوا كصبياننا المدللين الذين يرقبهم عبيدهم دائماً، وربما يتلقون ابتسامات متسامحة وهم يقومون بلعبة الجنود والجحافل الصغيرة التي تختبر قوتهم. فهؤلاء الأطفال منذ نشأتهم عرفوا طريقهم إلى الجبل. فلا وجود "لميري" وأحفادها الذين يقولون " نحن لا نسمح بهذا ". فكيف لهم أن يُعززوا الممنوعات لديهم؟ فالصبيان الصغار الشجعان الذين لا يزالون في عمر الورد، شقوا طريقهم إلى الوادي، ولم يعبؤوا بتوبيخ النساء ولومهم.

كانت الأشياء دائماً أكثر سهولة في الوادي. فالآن هناك أعداد متساوية من الصدوع والنوافير – علينا أن نستنتج هذا - فقد تحرر الصبيان من القلق والحاجات الدائمة لديهم، التي لم يفهموا أسبابها. وهذا لا يعني أننا نستطيع الآن أن نقول ما فهموه وما لم يفهموه. فكيف ننظر الآن إلى كلمة " يفهم "؟ شيء واحد يقال، " نحن نعرف بأن الصدوع تأتي إلينا، وقمنا بألعابنا وأنجبن بعدها الصغار ". أجل، لكن هذا بعيد كل البعد عما فكرت به البنات. يجب أن يعرفن أنه بدون " الألعاب " التي يلعبنها مع الصبيان لن يكون هناك صغار. في زمن الريح العاتية، الصخب، استمر القليل من التزاوج، وعلى الصدوع أن تلحظ، بأن الصبيان إذا لم يقوموا بهذه الألعاب، لن يكون هناك إنجاب للصغار حينما نتوقع انجابهم بشكل منطقي. هل قالوا " تسعة أشهر " أو أي شيء من هذا القبيل؟ لا نعرف، لكنهم عرفوا بأن هناك فترة من الزمن بعد التزاوج، ثم يأتي الصغير ؛ بنت أو صبي.

كما كان هناك شكاوي مستمرة من الصدوع بشأن المخاطر التي يتوقع أن يواجهها الصبيان، وهناك أيضاً شكاوي من الصدوع بشأن النهر الكبير تحديداً. فقد قالت النساء بأن الصبيان الصغار يجب ألا يقربوا النهر.

عجباً، كيف كرهت الإناث ذلك الوادي النهري. يأتي هذا واضحاً ومثبتاً من سجلات وأغاني ذلك الوقت. وأكثر ما كرهن النهر نفسه، الذي شكل خطراً عليهن، فضلاً عن الناشئة والأطفال الصغار. فكرة " لماذا نحن قلة، ولماذا نموت بسهولة " – كلمات أغنية – تتكرر. فقد توفي الكثير في النهر.

كان النهر يجري سريعاً، وكان عميقاً، وبارداً، ولكي يستحموا فيه، يتوجب عليهم جميعاً باستثناء الشبان الأقوياء، أن يحصروا أنفسهم في خليج أو فتحة تتباطأ فيها المياه وتتكاسل وتصبح ضحلة. فهؤلاء الناس الذين ولدوا على حافة البحر، كانوا دائماً داخل الماء وخارجه، شعروا بالماء كما شعروا بالهواء تقريباً، حميداً وآمناً، وبالبيئة المناسبة لهم. الآن عرفن بأن الماء عدو لهن. بإلحاح الصدوع، وُضع حراس على ضفاف النهر لمنع الأطفال الصغار من الخوض فيه. قام بهذا الصبيان الأكبر سناً بمحض إرادتهم. فقد كانوا قريبين من الأطفال الصغار قربهم من الإناث. ألم يُرَبّوا الكثير منهم بمساعدة النسور؟ ألم يعلموا الغزالة كيف تطعم الصغار؟ ليس صحيحاً أنهم لم يعرفوا كيف يعتنون بالأطفال الصغار، لكنهم كانوا بالأحرى غير مبالين، فقد اشتكت منهم الإناث، فالصبيان كانوا كثيري النسيان. بدأ الصبيان الأكبر سناً لعبة مع صبي صغير حاول الوصول إلى المياه المغرية، لكن أصبحت اللعبة عامة مع دخول صبيان صغار آخرين، وسَيُنسى أول صبي صغير أو حتى يضرب ويدفع به في الماء. نصحت الإناث الصبيان، وهن يحاولن تعليمهم الثبات على مبدأ العناية. في النهاية دخلت الإناث في الحراسة على ضفاف النهر : لم يثقن بالصبيان في تذكر واجبهم.

اعتقدت الصدوع لبعض الوقت بأن الصبيان متخلفون عقلياً : ليس لديهم ذاكرة طبيعية. تطورت هذه الفكرة، إلى أن الصبيان " ولدوا طبيعيين لكنهم لا يفكرون بعد ذلك بأي شيء سوى نوافيرهم ".

إحدى الألعاب التي طورها الصبيان سببت مشاجرة عنيفة.

الأطفال الأكثر مغامرة، وهذا لا يعني بالضرورة الكبار منهم، ابتعدوا عن الخليج الآمن، وألقوا بأنفسهم في أمواج النهر السريعة. حملهم النهر إلى أن وصلوا إلى جزيرة صغيرة لا تبعد كثيراً عن مصب النهر. صعدوا إليها، وأخذوا قسطاً من الراحة، ثم سبحوا للوصول إلى الضفة، سباحة خطيرة، رجعوا ونزلوا للسباحة في المياه الضحلة، نزلوا ثانية للسباحة في الأمواج السريعة الباردة. أحياناً إذا كان هناك جذع أو غصن شجرة يطفو على سطح الماء يتمسكون به ويستخدمونه مطية لهم في متابعة مسيرهم. الإناث لا يفعلن هذا، والمقصود هنا، الإناث الأكبر سناً، وإن لحقت بهن الصدوع الصغيرة. ما كان تعارضه الصدوع هو السماح للصبيان الصغار الالتحاق بهم. فالنهر خطير جداً، فهناك طفل صغير فقد السيطرة على دعامته وغرق.

هناك ذكر للحداد على هذا الطفل، الذي يختلف في حدته كثيراً عن الموقف المهمل وغير المبالي تجاه العديد من الوفيات السابقة. هذا الطفل عُرفت قيمته. فالطفل الميت لم يترك في الماء، بل تمت إعادته من الجزيرة الصغيرة التي علق فيها هناك بغصن شجرة تحت الماء إلى الضفة الرئيسية. دفن الطفل عند حافة الغابة ووضعت الحجارة فوقه لمنع الحيوانات من إخراج جسده.

الآن تجد هناك ذكراً للحيوانات الكبيرة التي خرجت أحياناً من بين الأشجار.

بعيداً عن النهر الخطير، ظلت النيران مشتعلة ليلاً ونهاراً، بسبب هذه الحيوانات، التي تخاف النار، والنيران أيضاً لها حرّاس.

الشيء الجديد الآن هو الإشارة الدائمة إلى الخطر والتهديد : " لماذا نحن قلة، ولماذا نموت بسهولة؟ "

ولهذا السبب نعتقد الآن بأن هذا العصر استمرار لزمن طويل : يكفي لكي نطور عادات ومشاعر وأفكاراً جديدة.

ما هو شعورهم حينما دفنوا هذا الطفل الصغير؟ وكيف كان شعورهم حينما توفيت كبيرات السن؟ وهل وضع شيء من السمك في قبر الطفل زاداً له في رحلته إلى عالم الآخرة؟ وهل يؤمنون بعالم الآخرة؟

حينما توفي هذا الطفل نتيجة إهمال الشبان – هكذا فكرتِ الصدوع – طلبت بنات من الشاطئ بإجراء حوار مع الصبيان يُؤكّد فيه على القرارات المتخذة من أجل السلامة.

اقترح الرجال اجتماعاً في مكان معين على الشاطئ. يسبق هذا اللقاء وليمة. كان هناك مزيد من الحماس والمتعة، استمرت " الألعاب " طوال الليل، وكان البدر يرقب لهوهم. في تلك الليلة يسهل الاعتقاد بأن القمر كان قد ملأ أرحام الصدوع قبل مجيء الصبيان. لم ير النوم الكثير منهم، ولم تتوقف محاولة البنات إغراء الصبيان بمزيد من " الألعاب " حتى طلوع الشمس. وكان هناك شعور مضاد حينما قال لهم الصبيان بوجوب الانتقال إلى الشاطئ الذي حدد مكاناً للتشاور معهن. في الواقع لم يكن هناك أحد ، فالتسلية كانت مثار اهتمام الصبيان وحدهم، وكانت المفضلة لديهم في ذلك اليوم، لأن المد المرتفع طال المزيد من الحجارة التي يحتاجون إليها للقيام برياضة معينة. الوصف الذي قدمته البنات لهذا اليوم كان غاضباً وساخطاً، لكن تعليل الصبيان يقول بأن البنات لا يعرفن سوى " التذمر ".

هذا ما حدث

هذا الشاطئ البحري يختلف عن الشاطئ الصخري الذي عرفته الإناث جيداً، فقد كان حافة طويلة من الرمل الأبيض وعليه الحجارة، التي صقلها البحر وأصبحت ذات ملمس ناعم – قامت الإناث بلمسها واللعب بها، وتساءلن كيف يمكن ربط بعضها ببعض ليصنعن منها قلائد وحلياً يتزيّن بها.

في غضون ذلك، وقف الرجال في المكان الذي توقفت عنده الأمواج، يقذفون الحجارة على مستوى خفيض يلامس الأمواج، لتقفز مرة ومرتين وثلاثة، حتى تخترق الحجارة الأمواج. قالت النساء : " ماذا تفعلون؟ " أجاب الرجال، " تلك هي أفضل الظروف التي نمر بها "، وإن، " كنتن لا تكترثن بها، فلن نضيعها.". أجل لكننا هنا لكي نناقش سلامة الصبيان الصغار. "، " حسناً إذاً انتظروا. "

استمروا بقذف الحجارة، وكل منهم يبدي إعجابه بمهارة الآخر، في حين بدا على النساء الارتباك في بادئ الأمر، ثم بدت عليهن الدهشة، ثم الإهانة. تساءلت النساء " ماذا يفعلون؟ ". " لعلهم يريدوننا أن نبدي إعجابنا بهم. " كان الرجال عراة، باستثناء مآزر صغيرة من الريش. كان هذا تحدياً، ودعوة لهن، كما نظرت إليهم بعض البنات، حاولت البنات سحب الصبيان من ألعابهم، ليلعبوا معهن. لكن لم يبد عليهم مشاعر محاولتهم إثارة إعجاب البنات بهم، لهذا تم استيعابهم في قذفهم للحجارة. قال صبي " ثلاثة....أربعة.....خمسة....."، لكنني " قذفت ستة "، وقال آخر، " لا ليست ستة إنما خمسة ".هكذا كان مزاحهم، يتنافسون على قذف الحجارة فوق الأمواج، يختبرون مهاراتهم وطمأنينتهم بقذف الحجارة. كانت النساء يفكرن بأن الملل سيلحق بهم عاجلاً. ما الغاية من فعل هذا؟ ماذا يعتقدون أنهم يفعلون؟ " لكن الرجال استمروا بهذا اللعب. كان الجو دافئاً ثم أصبح حاراً. وكانت أشعة الشمس تجلدهم بسياط من السماء الملتهبة. تراجعت النساء إلى بقع من الظل، جلسن هناك يرقبن وأذرعهن تلف أرجلهن. أي مهارة وأي تركيز هذا الذي أوجده الرجال في ألعابهم. وما الهدف من كل هذا؟ وهل تم تبادل الفكرة بين النساء في نظراتهن الحزينة. الوقت منتصف اليوم، وهو الزمن الذي أرادت فيه النساء البحث عن ظل، أو ربما البحث عن كهف، للنوم أو للعب. ثم أوقف الرجال لعبتهم، كأنهم تلقوا إشارة واحدة، وبدؤوا لعبة أخرى. انحسر المد وبدأت تتكشف قمم الصخور السوداء الطحلبية الزلقة. كان الرجال يقفزون ومعهم الصبيان الصغار من صخرة إلى صخرة، قفزات جريئة نجحوا في

معظمها وإن بدت مستحيلة. فإذا سقطوا في البحر، وأصيبوا بجروح، يتوجب عليهم الاستمرار في لعبة النزف. استمروا في مشاهدتهم من الذي يقفز لمسافة بعيدة، ثم لمسافة أبعد، ثم الأسرع، والأكثر مهارة.

أصيب صبي صغير بجرح في ركبته، جاء إلى النساء لتضميدها بالطحلب البحري، ورجع بعد ذلك على الفور إلى الآخرين.

سجلت النساء نقطة على الرجال حينما شاهدوا الطفل النازف لكن لم يجد الرجال فيه أي برهان على إهمالهم، وأشاروا بأسلوبهم بأن النساء كن – كعادتهن - لا يتحلين بالمنطق.

تجولت مجموعة من الشبان دون أن تلقي بالتحية على النساء أو حتى التظاهر بمشاهدتهن. جر الضوء ذيوله من السماء، ونظرت النساء لتشاهد الشبان وهم يرجعون، لكن قالت أخريات بأنهم في حفلة صيد، وقد لا يرجعون في تلك الليلة.غالباً ما يجلس الصيادون في أماكن مناسبة للاستفادة من الصباح الباكر، حينما تخرج الحيوانات من بين الأشجار لتنزل إلى الجداول وبرك الماء.

ليس هناك أية أشارة على انطلاق النقاش الموعود : لا بد أن تطرح حادثة الصبي الصغير المصاب بدلاً من اللوم الذي خططت له النساء.

في تلك الليلة لم يكن هناك وليمة. كان هناك تزاوج، لكن لا شيء مما حدث في الليلة الماضية، مع أن القمر وقف هناك فوقهم.

استيقظت النساء في الصباح الباكر ليجدن المكان قد خلا من الرجال. فهل يصعب تفادي فكرة أن الرجال ما إن شاهدوا النساء، إناثهم، نائمات وصامتات حتى انسلوا صامتين وهربوا؟ أجل هذا ما فعلوه بكل تأكيد.

قررت النساء الانسحاب، وعدن من الشاطئ إلى المكان الخاص بهن، حزينات وخائبات ومخذولات، وإن جاءت بعض حفلات الصيد لاحقاً بذبيحة لهن، وأعددن أجزاء منها لطهيها على النار. وقد بدا هذا كأنه اعتذار لهن.

حدث شيء من هذا القبيل أكثر من مرة، والتعليقات التي اؤتمنت لدى الرواة تضمنت ملاحظات عن البنية العقلية للرجال. استمر التأمل. هل كانوا مجانين؟ من الصعب مشاهدة يوم كامل من قذف الحجارة على الأمواج بأنه فعل عاقل. كلا، فقد كانوا – على الأقل في أوقات معينة – مختلين عقلياً. هل أثر عليهم البدر؟ فإذا كان البدر قد نظّم الخصوبة والحيض لدى النساء، عندها سيعاقب البدر العقول السليمة بالجنون. وقد اتفق في نهاية المطاف بأن الرجال إن لم يكونوا مجانين، فإنه ينقصهم الفهم.

وهناك بعض البنات اللواتي رفضن مغادرة وادي الرجال، وقلن بأنهن أحببن الحياة هناك. لكن رجعت واحدة وتبعتها أخرى، رجعن غاضبات وخائفات بسبب حملهن، وما إن انتفخت بطونهن حتى قيل لهن بأنهن غير مرغوب فيهن، وإن استفدن منهن في تقطيع الذبائح، وإشعال النار، وتنظيف المكان، ومخلفات الولائم. قيل لهن " ارجعن إلى مكانكن "، وإن أراد بعضهن عدم الذهاب. فشاطئ النساء، وما يضم من إناث حوامل، ورضّع، وأطفال صغار لم يكن هادئاً، وإن توفرت فيه وسائل التسلية للصغار والناشئة داخل وخارج الأمواج، فأطفال الماء لا يختلفون عن صغار الطيور البحرية أو جِراء البحر. ولا يمكن أن تنسى الأمواج المتلاطمة الباردة ما تقدمه من إغراء للكبار.

لكن الفارق بين شاطئ النساء ووادي الرجال كان صعباً على بعض الإناث، يصعب تحمله.

وليس صحيحاً بأن الرجال لم يأتوا لزيارة النساء في كهوفهن بتهويتها الجيدة، أو أن النساء لم يذهبن لمشاهدة الرجال.

ثم حدثت المواجهة التي أخرجت الذكور من واديهم إلى الغابات.

كان الشبان يوجدون لأنفسهم دائما مفاخر وتحديات كبيرة، جاؤوا بشيء دفع "مارونا" "التي أصبحت نصف مجنونة من الغضب"، بالصعود إلى "هورسا" في الجبل. "مارونا" اسم يظهر الآن وكذلك اسم "هورسا". ولا نعرف إن جاءت هذه المقاطع من مار....مارو...."ميري" وما شابه ذلك، لتمثل فرداً، أو كما نعتقد، لتمثل حالياً زعيمة النساء.

ذهب الشبان جميعاً إلى الصدع ومعهم حبل الغابة – الجانب السفلي من لحاء الأشجار – وقد ربط أحدهم خصره بالحبل، وقفز نازلاً إلى المنصة حيث شلت قواه حالاً من أبخرة المعظمة (المكان الذي تلقى فيه العظام – المترجم). كانت اللعبة أن يقوم هؤلاء الشبان الذين يقفون على الحافة، وينظرون إلى المنصة بسحب الشاب قبل أن يغمى عليه. فعل هذا جميعهم، الواحد تلو الآخر، ومن لم يحاول لا يعدّ بالغاً.

ذهبت "مارونا" لوحدها ووجدت "هورسا" يدخل الغابة ليصطاد.

يقول سجلنا بأن "مارونا" هاجمت "هورسا" جسدياً وأرادت تقييده. سجلهم يقول بأن "هورسا" لا يعرف أنه مذموم في أي شيء، إلى أن صرخت في وجهه لأنه لا يفكر بأعماله مطلقاً، ولا يفكر بالعواقب....فكلنا يعرف بأن الصبيان الصغار يقلدون الكبار في كل شيء، وحينما حاولوا القفز إلى المنصة، استخدموا في البداية حبلاً من الطحالب البحرية الذي لا يكفي بكل تأكيد للإمساك بهم، وكانوا أطفالاً أيضاً، ليس لديهم القوة الكافية لتحمل الأبخرة مطلقاً، هذا إذا لم تصل بهم طريقة شد " الحبل " إلى السقوط في الخليج.

صاحت "مارونا" " أتحاولون قتل جميع أطفالنا؟ " أما "هورسا" الذي لم يفكر حتى هذه اللحظة بأن الصبيان الصغار سيحاولون تقليد الكبار، صاح بأنه لا حاجة لصياحها وصراخها، فهو سيتأكد بنفسه فوراً من توقف هذه الممارسة.

هل اعتذر "هورسا"، واعترف بأنه عديم التفكير؟ - لأنها بطبيعة الحال كانت محقة. لا يمكن أن أشاهد "هورسا" وهو يعترف بخطئه، لكن يقول سجلنا بأن "مارونا" كانت " مسالمة "، وقد وافق على وضع حارس للصدع **ليلاً** ونهاراً، للتأكد من عدم صعود الصبيان الصغار إلى هناك.

سألت "مارونا" وهي تبكي " ألا تهتمون بنا؟ "

هذا ما كسب تفحص مائة معلق. ماذا قصدت بـ " نا "؟ فالكناية هذه عن " الناس " بدت وكأنها سقطت منذ زمن بعيد. هل قصدت بأن

الرجال لا يكترثون بالمحنة التي تتعرض لها النساء؟ أم أنها قصدت الصبيان الصغار؟ (غُرر بالقليل من البنات في محنة الأبخرة – قالوا بأن هذا تدنيس للمقدسات، وبأن الصدع شيء مقدس."، هذا النوع من الكلام لم يدون عن الصدوع، وعلينا أن نفكر بأنهم كانوا يخترعون موجبات دينية لانتقاد الصبيان)

هل لدى هؤلاء الناس من نساء ورجال أية فكرة عن أنفسهم كونهم الناس الوحيدين الأحياء، كما أشارت الأغنية، " لماذا نحن قلة، ولماذا نموت بسهولة؟ "، ليس هناك تدوين في أي مكان عندهم أو عندنا، يشير إلى أنهم كانوا يعتقدون بوجود أناس آخرين يشبهونهم أو حتى لا يشبهونهم في مكان ما على جزيرة أخرى. وقد بدا كأنهم يعتقدون بأن جزيرتهم هذه جزيرة، مع أنني أتساءل، ما هي فكرتهم عن الجزيرة. فالأرض أو الجزيرة فيها أراض أو جزر أخرى، وسوف نشاهد بأن "هورسا" سينطلق حالاً للبحث عن شواطئ أخرى، إن لم يكن عن أناس آخرين.

نعود إلى ما قصدته بـ " نا "؟ فهناك بكل تأكيد إشارة إلى وعي التهديد أو العديد منه.

هذا السؤال وصل إلى "هورسا"، وقد دوّن بأنه فكر به. فهناك مساحة واسعة للتفكير به : فقد استسلم على الأقل اثنان من الشبان لروائح الصدع الكريهة، وسقطا في أعماقه. وغرق أكثر من صبي صغير في النهر الكبير، والانطلاق إلى الغابة كان ضرورة أمنية بقدر ما هو حاجة لتجنب النقد المستمر ل"مارونا".

كان "هورسا" شاباً بقدرات متميزة، وقد سيطر اسمه على هذا الجزء من قصتنا. فهناك برج (كواكب) يدعى "هورسا"، وحينما نفكر كيف بدأت الأسماء، قد نسمع أحياناً بكل سهولة، عواء الذئب، ودمدمة الدب. الحيوان المألوف ل"هورسا" كان الأيل، لهذا يمكن أن نسلي أنفسنا ونحن نفكر بأن سليل الغزال أصبح "هورسا"، وهو اسم صياد مشهور.

حينما ذهبت النساء إلى الوادي كعادتهن، كان الرجال قد ذهبوا. وأصبح رماد النار الكبرى بارداً. لم تكن النسور قابعة في أماكنها مثل الآلهة الحارسة، كما بعثرت الحيوانات قطع السمك الصغيرة والعظام

عندما وقفن في المكان وتجولن فيه وهن خائفات وبائسات. جاء نسر محلقاً ليهبط في مكانه. " حسناً، أين هن؟ ألا تشاهدونهن؟ علينا أن نجدهن "، لم يظهر على الطير بأنه كان يتمنى لهن الشر، لكنه لم يقم بأية محاولة ليريهن المكان الذي ذهب إليه الرجال، ونهض يرفرف عائداً بتؤدة إلى وكره على قمة الجبل.

قالت الإناث الشابات بأنهن سيذهبن ويبحثن عن الرجال، فهم بكل تأكيد لم يبتعدوا كثيراً عن الشاطئ. ومن غير المحتمل أن يترك الصبيان الشاطئ ويذهبوا إلى الداخل، لكن كان هذا كلامهن المفضل – كلام النساء. وكان هناك سبب آخر لعدم ابتعاد الرجال : ذهب الصبيان الصغار الذين يعيشون هنا في الوادي مع الرجال، وهذا يعني أنهم يجب أن يكونوا قريبين جميعاً. قالت الإناث العجائز بأنهن سينتظرن عند حافة النهر لأيام قليلة،ويرقبن، عندما انطلقت الشابات يبحثن عن النيران على امتداد الشاطئ، فالنار تعني وجود الرجال هناك.

أجل، وجدوهن ينظرن من مرتفعات شديدة الانحدار إلى الشاطئ الذي كان فيه الرجال، والصبيان– الذكور جميعهم – الذين ما إن شاهدوا النساء، حتى أطلقوا صيحات الترحيب والابتهاج المشوبة بأصوات - السخرية؟ أجل. البنات اللواتي تحدثن عن هذا الوصول قلن أيضاً بأنهم انزعجوا من النقد، وأنها ليست المرة الأولى التي يُسخر فيها من النساء اللواتي رحبن بوصولهم. بالنسبة لي– أنا الذكر، وإن جئتُ متأخراً - ما حدث كان واضحاً لي جداً.أجمعت الإناث على النقد والشكوى من الصبيان – يجب أن أدوّن، وإن كنت صغيراً، وآمل ألا تكون إضافة تافهة للتاريخ، فهي دائماً فكاهة صغيرة حينما يلتمس أحدنا التغيرات الملحّة دون سابق إنذار– حسناً، ما إن نزلت النساء من الجروف إلى الرمال البيضاء حتى حدثت تزاوجات ومقابلات عديدة داخل الأمواج المتكسرة

وخارجها. فقد وقف الشبان يرقبون، وربما يجربون أفكاراً خاصة مع بعضهم البعض، كما تفعل الحيوانات أحياناً.

كان هذا في النهار، أما في المساء فقد رجعت مجموعات الصيد من الأشجار تحمل معها لحوم الذبائح المقطّعة، وحدث مزيد من الممارسات الجنسية.

كانت النساء متأهبات لانتقاد الرجال لأنهم أخذوا الصبيان الصغار معهم في هذه الحملة، لكن أخطأت النساء بشيء واحد. فهؤلاء الصبيان في سن السادسة والسابعة، لم يعودوا صغاراً أو ناشئين، وليسوا بحاجة للتخفيف من طريقة الركض أو التسلق نتيجة صغرهم.

لم يعامل الرجال الصبيان الصغار بطريقة تختلف عن معاملة أنفسهم، وعلى النساء الاعتراف بأن هؤلاء الصبيان الصغار كانوا بسرعة وشدة الرجال. هذا الاعتراف يعني لاحقاً، انحسار القلق لدى النساء، حينما كان الصبيان الصغار يتلهفون للرحيل والعيش مع الرجال.

جاءت العجائز الأكبر سناً ليوم أو يومين، وكان هناك لقاء موسعاً وطويلاً، تميز بالابتهاج والألعاب الكثيرة.

ثم رجعت النساء إلى شاطئهن ودخل الرجال إلى الغابة.

علينا أن نعترف هنا بأنه مرّ زمن طويل، عصر – كم طوله؟ – عندما كانت هناك مجموعات من الذكور في أجزاء مختلفة من الغابة، حيث الأنهار المناسبة، أو الفُسحات المغرية. ذهبت النساء لزيارتهم، حينما قالت لهم طبيعتهم بأن الوقت قد حان. ومن الواضح الآن أننا نتحدث عن مجموعة من السكان – عدد قليل من الإناث على شاطئهن، وبعض الرجال في واديهم. ما عددهم؟ لم تكن هناك طريقة للعد، وبخاصة حينما عُرف أن هناك دائماً بنات بين الرجال، ولسن إناثاً زائرات، وإنما بنات قررن بأنهن يفضلن صحبة الرجال. هؤلاء الإناث كن عاقرات لسبب ما، لكن كن متأكدات من قدرتهن على الإنجاب، وهذا يعني أنهن لن يزعجن الرجال بصغارهن. ونحن نعرف بأن بعضهن تخلص من صغارهن

عمداً حينما ولدن. من نحن الرومان حتى ننتقدهن، ومن قام بهذا في زمن لاحق، تاركاً أطفاله غير المرغوبين على سفوح التلال ليلقوا حتفهم؟ هذا الفعل يشير إلى حقيقة واحدة : هؤلاء الناس لم يعد ينتابهم الخوف من قلة عددهم. ولم تعد الأغنية موجودة " " لماذا نحن قلة، ولماذا نموت بسهولة؟ ومضى على الصخب زمن طويل أيضاً.

من حسن الطالع أو من سوءه، أننا نحن البشر نمتلك دائماً في هذا العالم، المقدرة العالية على الإخصاب، والولادة والتكاثر. فقد ولد من الصغار أكثر مما نحتاجه. إنه أسلوب الطبيعة، أليس كذلك؟ فهي التي تعطي وتمن علينا، دائماً في كل شيء.

أعتقد أن علينا هنا أن نواجه سؤالاً بعينه، وإن بدت الإجابة عليه مستحيلة. أين هي هذه الجزيرة التي زحف إليها أجدادنا الأوائل (كما نعتقد) من البحر وكانت سبباً في مجيئنا؟ حاول الكثيرون البحث عن الجزيرة وعن مكانها. وكم مساحتها؟ أهي مثل صقلية؟ كلا، فهي صغيرة جداً بكل تأكيد. أهي جزيرة كريت؟ لكننا نعرف بأن كريت شهدت زلازل وغزواً من البحر. فهل جاء أحدهم بحزمة من الكتابات القديمة إلى روما من – إحدى جزر الأرخبيل في اليونان؟ ما يدحض هذا السجال هو المناخ، فلا يوجد في السجلات ذكر للشمس الحارقة، والحرارة المرتفعة، والغبار الشديد في فصول الصيف التي تأتي مع الجفاف. لكن كل ما يعنيه هذا، هو أن هؤلاء الناس لم يجربوا شيئاً يختلف عن الشيء الذي عرفوه، ولم يفكروا بأن هذه الإضافات تستحق التدوين – مع أنهم دونوا الصخب، العاصفة الكبرى. ولم تكن جزيرة باردة : لم يلبسوا سوى أكاليل الطحالب البحرية أو المآزر الرجالية المصنوعة من الورق والريش. هكذا كانوا عراة أو شبه عراة. ولنفترض بأنهم من البشرة السمراء، فكل السكان الذين عرفناهم من البشرة السمراء أو الصفراء الضاربة إلى السمرة. وإن وجدت ألوان أخرى للشعر والعيون، فلا يوجد سبب عندهم لمعرفة أي شيء عنها. فربما هم من ذوي العيون العسلية.

هذه الهمسات من زمن الماضي، الماضي المجيد، وهذه الأصوات التي تردد ما تقوله الأصوات الأخرى، علينا أن نعترض عليها بما نمتلكه من معرفة، وما خضناه من تجربة – وستختفي أسئلتنا، كما تختفي الحجارة حينما تسقط في بئرعميق. مع ذلك، نحن الرومان لم نعرف دائماً أنه على شمالنا يوجد أناس من ذوي الشعر الحنطي والعيون الزرقاء أو الرمادية.

هل نفترض بأن المناخ السائد في ذلك الزمن قد تغير، ولم يعد لدينا شيء يدل عليه؟ الشواطئ المعتدلة المعطاءة التي عاش عليها الناس لعهود طويلة، تطورت بتؤدة من – لكن لا نعرف – إلى....نعرف يقيناً أنهم أطلقوا على أنفسهم اسم الناس، وكأنما لا يوجد أحد غيرهم في هذا العالم. لكن تلك هي الحكاية الشائعة لبدايات الناس.

بلاد الإغريق القديمة التي كانت في يوم ما غابة سوداء، تتحول اليوم في عصرنا هذا (نسبياً) إلى تلال صخرية جرداء. فكيف نعرف بأن الأرض المباركة لهذا الشعب العريق هي ليست اليوم عبارة عن بروز صخري قاحل – وليست أبعد من المكان الذي قد يسافر إليه بَحارتُنا.

حينما وصلت قصتنا إلى هذه النقطة، كان هناك مجتمعات عديدة منفصلة عن بعضها، وليس على حافة البحر، لكن في الداخل في الغابات، وهي دائماً بجانب الجداول والأنهار. كانوا يتقاتلون أحياناً.على ماذا؟ بكل تأكيد لا يتقاتلون على الغذاء – فالغابات مليئة بالغذاء. كلا، إنه المكان. فهناك أجزاء كبيرة من الغابة عبارة عن مستنقعات وسبخات خلّفها الصخب، تلك العاصفة القوية التي أسقطت الأشجار مثلما ينفخ أحدنا البذور بقصبة. جذوع قديمة متعفنة في ماء ملوثة – لهذا لم نجد في الغابة ما يكفي لسد حاجة أي منا. وهنا علينا أن نتذكر ثانية بأن هذه المجموعات التي نتحدث عنها ليست مجموعات صغيرة وإنما هي عدد كبير من الناس.

أحياناً كان يتقاتل زعماء مختلف المجتمعات، ووقعت الكوارث، وأرسلت النساء احتجاجات وتحذيرات – لكن "هورسا" هو من يوقف القتال، فنحن نعرف بأنه زعيم شجاع وطيب، لكن قد تجد أكثر من

"هورسا"، كل واحد منهم يخلع الآخر، ويبقى "هورسا" اسم الزعيم الرئيسي.

في غضون ذلك، حكمت "مارونا" شاطئ الإناث، ولم تحكم بالطريقة البليدة للعجائز، وإنما بالحماس- كما أُشير - وغالباً بنفاد الصبر. "مارونا" هذه شقت طريقها مارة بالمستنقعات والسبخات حتى وصلت الجزء من الغابة الذي يحكمه "هورسا"، وقد توقف القتال بسبب توبيخها لهم. هذه إشارات إلى المتعة التي يجدها الرجال في القتال، فهم يستخدمون ذكاءهم ضد بعضهم البعض.وحينما تقع إصابات بين صفوفهم تنقل إلى شاطئ النساء للمعالجة.

قبل أن ينطلق "هورسا" في رحلته، كان هناك شجار عنيف بين "هورسا" و"مارونا". تقول السجلات السابقة بأن هذا الحدث يشير إلى غضب الرجال، وغضب النساء، معتمداً على جنس المتحدث. فالغضب كان موجوداً، لكن لم يفهم أو يُبلغ عنه بشكل صحيح، باعتباره المجابهة الحاسمة الوحيدة. أتذكرُ القناعة، والشعور- لم يحمل المؤرخ شيئاً من هذا لحظة إدراك الحقيقة - الحقيقة التي يمكن أن تؤجج الخلاف في المشاجرات، التي لا يمكن لأي طرف أن ينساها أو يصفح عنها بسهولة. فقد تعاقبت الشكاوى من كلا الطرفين، ووصفت النسخ كلها الشيء ذاته على اختلافها، أضعاف مضاعفة من " الغضب " الذي لا مبرر له. " طبعاً، كيف لي ألا أرى هذا من قبل " - قلما تأتي البصائر واضحة ونقية للوصول إلى الحكم. إحدى المشكلات هي أن نسخة الرجال مقتضبة جداً. وكما هو معتاد حينما جاءت "مارونا" وأرسلت لنا شكاوى البنات الزائرات، كانت تقول لنا الأشياء نفسها، ولا تختلف بشيء عن رسائل البنات، كان الرجال لا يشعرون بروح المسؤولية، وطائشين ومهملين لحياتنا ولسلامة الصبيان بخاصة. وقد سلمنا بأن ما نفسده نحن تصلحه النساء. هذا كل ما نجده حقيقة في نسخة الرجال. " وهكذا قرر "هورسا" الرحيل ليجد مكاناً بعيداً عن "مارونا" بحيث يستحيل عليها اللحاق بنا.

***

هذه هي الفكرة على ما أعتقد.

كنت ماشياً منذ أيام قليلة مع فيلكس، العبد الذي عندي، الذي أقام تمثالاً جميلاً لديانا وأرتميس،وقد شاهدت منظراً جميلاً حينما كنت على سفح التل وهذا ما دفعني للتفكير ببناء منزل في هذا الموقع الجميل. أجل لدينا منزل جميل في عزبتي هناك، لكنني أجد المتعة في التفكير بمنزل أجمل. تجولنا قليلاً في المكان، ووجدنا بأن هذا المكان أفضل من ذاك – ولم نقل أكثر من هذا. وصلت جوليا هذا اليوم دون سابق إنذار إلى منزل البلدة، وقالت بأن لديها أخباراً عاجلة. ويمكن لأحدنا أن يفهم من وجهها، بأنه من الأفضل ألا نستمع إليها – كانت "لولا" ترتب الغرفة المجاورة. أمسكتُ بذراع جوليا وسحبتها إلى الساحة،وهناك قالت : " أخبار جدية، أين لنا أن نتكلم؟ " فقد عرفنا بأن "لولا" تستطيع الاستماع لو أرادت، وكان هناك عبد عجوز يجلس بجانب الجدار. مشيت معها إلى شجرة التين، المكان الذي لا يستطيع أحد أن يسمعنا.

" عليك ألا تشيّده، يا عزيزي، يتحدث الجميع عن منزلك الجديد، وبمجرد التفكير به ضرب من الجنون ". كنت معجباً بزوجتي الجميلة، وإن كنت لا أسمع منها سوى الكلام الفظ أو المتعجرف. جوليا كانت فاتنة دائماً، ولا تناصر التوبيخ. " لكن جوليا، كيف يمكن " لأحدنا " أن يتحدث؟ أكاد أجهل نفسي – ذكرتُ إمكانية ذلك لفيلكس فقط، هذا كل شيء. " وقفتْ تتفحص المكان، تبحر عيناها في وجهي، دون أن تشكك بي، لكنها مرتبكة. وكنتُ مستعداً للسخرية من كل الإشاعات، لكنها صاحت وقتها " أجل، انتظر، فهمت." حرر والدي اثنين من خيرة عبيده. أحدهما يبيع أحشاء المواشي قرب السفن، والآخر يبيع فطائر اللحم في مكان غير بعيد عن ساحة المُصارعين. كان الاثنان ودودين لعبيدنا. جاء فيلكس إلى منزلنا في البلدة منذ أيام قليلة، وقال بأن سيده يفكر في بناء منزل جديد، وهكذا انتشرت الشائعة – وبسرعة البرق – من هذا المنزل : " نعرف جميعاً كل شيء عنه، وصدقيني أنت لم

تكوني حكيمة هذه المرة. " اسم جوليا المحبوب لدي هو حكمة الأب، وهذا منذ الأيام الأولى لمجيئها إلي.

أخبرتها بأن أساس هذه الإشاعة ضعيف – فأنا حقيقة لم أخطط لبناء هذا المنزل الشهير. كانت مجرد نزوة.

صاحت، " نزوة ! " ونظرتْ من حولها كأن شخصاً آخر دخل الساحة، اقتربت مني، ووضعت ذراعيها حولي– بادرة زوجية، لكن ندرتها ستباغت العبد المراقب وتدخله في الشك. قالت لي جوليا وهي تدني فمها من أذني " اسمع، هل نسيت؟ كأنك حالم عجوز هذه الأيام، لعلك لم تستوعبها. " وبدأت تهمس في أذني أسماء الناس البارزين الذين استردوا منازلهم وعقاراتهم وقطعانهم وأطباق الذهب والفضة لديهم التي صادرها آخر مستبد عندنا، " أتريد حقاً أن تُضيّع هذا المنزل بتقديمه إلى نيرون؟ " قالت هذا وقد أخفضت صوتها المنخفض أساساً حتى كاد يتلاشى مع تنفسها. " نيرون شخص سيء، هو سيء دائماً. هل تقصد بأن رأسك العجوز الأحمق لم يعترض يوماً على بنائه، ولم يقل لك إنك ما إن تبدأ بهذا المنزل الجديد الأنيق حتى يعده بمثابة دعوة للاستيلاء عليه؟. الآن أطلقت سراحي، بدأتْ تعدّل ردائي، وأخرجتْ مشطها الفضي من مكان ما في ثوبها، وبدأت تمشط لي شعري. فقد مضى زمن طويل منذ أن حدقت لأول مرة عن قرب في وجه زوجتي. كنت أنظر لأشاهد إن كانت الحياة الشهوانية السريعة التي تعيشها قد ظهرت على قسمات وجهها الجميل. وكان هناك خطوط حول عينيها تدل على التعب، ليس بالكثير. قالت له بصوت خفيض " حينما سمعتهم يتحدثون جميعهم في الليلة الماضية، عرفتُ بأن علي المجيء لكي أحذرك ".

من " هم " هؤلاء؟ - لكن خطرت على بالي فكرة جميلة. همستُ في أذنها" أأنت حذرة يا جوليا؟ "

هزت برأسها وابتسمت. "أنت أحياناً كأنك شيء قديم أحمق " همستْ وقد هزني كلامها قليلاً.

همستُ قائلاً " لكن يا جوليا، هذا المنزل ليس له وجود إلا في مخيلتي ".

" من الأفضل أن تخبر "لولا" بأنك فكرت في بناء المنزل، لكن قال فيلكس بأن ماء النبع غير كافية في الصيف. لا، انتظر لحظة، ليس لديك الآن ما يكفي من المال من أجل البناء، يمكن أن تفكر ببنائه خلال سنة أو سنتين ".واقتربت مني ثانية لتهمس " لا يمكن أن يبقى إلى الأبد، أليس كذلك؟ "

والآن ابتعدتْ عني خطوات قليلة، وقالت بصوت عال " هناك، كما ترى، شيء جديد، وقد أردتَ مني أن أستمر في النظر إليك. انظر إلى هذا الرداء. سأجلب لك رداء جديداً في زيارتي القادمة. "

قلتُ لها " آمل أن يكون في القريب العاجل "، ضحكتْ ضحكة فيها شيء من الأسف والانزعاج. أحب أن أرى جوليا تأسف أحياناً لأنني رجل أكبر منها بكثير. ويجب أن يكون لدي على الأقل غيار أنيق لقطعة الثوب الخليعة التي لفتني بها. ثم رجعنا يداً بيد إلى المنزل الذي يمكن أن نشاهد فيه وجه "لولا" من النافذة. قالت جوليا بصوت عال " عجباً، يا عزيزي، أشفق عليك لأنك بحاجة إلى نقود، وخاصة حينما كدتُ أطلب منك مبلغاً كبيراً. عند "ليبتُس" بعض المنازل وهو يريد بيعها. عجباً يا "لولا"، أنت هناك ". قالت بصوت عالٍ " مشكلتك يا عزيزي أنك لا ترى عواقب أفعالك، كان لي أن أخبرك بألا تضع نقودك في تلك السفينة الذاهبة إلى "ثيسالي". فقد غرقت، ألا تعرف هذا؟ غرقت وفقدت كل حمولتها."

ذهبت معها إلى الباب الخارجي، حيث ينتظرها الكرسي مع عبيدها. ابتسم كل منا للآخر، متآمرون ودودون، نزلت الكرسي وذهبت. وهكذا ،ستصبح فاقتي هزواً في المساءوذهبت إلى دراستي مفكراً بأنني لم أسمع من جوليا أبداً هذه النبرة من همساتها الساخطة علي تحت شجرة التين. هل هذا حقاً ما كانت تفكر به تجاهي، أهي حكمة أبيها؟ أخشى أن أفكر بهذا أيضاً.

* * *

تحدثت "مارونا" مع "هورسا" كما لو أنه طفل – حسناً، يمكن أن يبادلها الشيء نفسه. فالنساء يُسكتن الرجال دائماً بالتوبيخ ووضع اللائمة عليهم، حينما وصلت "مارونا" ذات مرة إلى مخيم الرجال كانت غاضبة، لقتلهم بعض الصبيان الصغار أثناء القتال. في الوقت الذي كان فيه القتال مستمراً، كانت تتحدث إلى النساء جميعاً وهي تشير إلى أن الرجال استسهلوا هذا، لأنهم لم يبذلوا جهداً كبيراً في رعايتهم حينما كانوا صغاراً، في حين بذلت النساء جهداً كبيراً في رعايتهم وتغذيتهم وتربيتهم. قالت "مارونا"، إن قتل أحدهم لا يستغرق سوى لحظة واحدة، وهذه اللحظة تنهي سنوات من الجهد الكبير.

في زماننا الحالي التزمت زعيماتنا الرومانيات بإبراز النجاحات التي حققها أبناؤهن كجنود. أنا لم أسمع أحداً هاجم شكوى "مارونا" علانية، فإنجاب طفل يناسب جحافل الجيش قد يأخذ سنوات عديدة، لكن يقلن أحياناً إن هذا الشيء مرتبط بأزواجهن – كما أعلم.

" إذاً، من الذي قام بهذا الجهد الكبير يا "مارونا" الموبخة؟ أليس أنتِ؟ تأكدي بأنك بعيدة كل البعد، حينما يكون هناك صغار لتربيتهم والاعتناء بهم ".

الآن سأقول لكم تاريخاً. حينما كان الصبيان في سن السابعة، وربما في سن أصغر، شقوا طريقهم في الغابات للبحث عن "هورسا". استمر هذا البحث لفترة طويلة حتى كاد أن يصبح عادة عندهم. وكان هناك ممر بين الشاطئ ومستوطنة الغابة، يفصلهم عن المستنقع والسبخة والطين، وهو ممر آمن، ومعد بحيث لا يمكن أن يسير عليه طفل لوحده. كانت البنات يسافرن دائماً على شكل جماعات، وهذا ما دفع الصبيان الصغار للقيام بالشيء نفسه. وكان هناك الكثير من الحيوانات، وقد اختطفت أكثر من مرة صبياً صغيراً لم يصطحبه أحد. طلبت "مارونا" من "هورسا" بأن يُؤكد على الصبيان الذين يغادرون شاطئ النساء بضرورة الانتقال علانية وبهذا يمكن اصطحابهم. فضحك "هورسا" وضحك معه كل الرجال. وهذا يعني بالنسبة لهم، أنها لم تفهم شيئاً عن الصبيان وعن

مشاعرهم – بل لم تفهم شيئاً عن مشاعر الرجال. طبعاً هناك حاجة لتسلل الصبيان من هذا الشاطئ المكتظ، والمليء بالأطفال الصغار و"الرضّع"، وهذه هي الفكرة برمتها – فإذا هرب الصبيان تحت أعين النساء، فلن يكون هناك شيء يُسخر منه.

سأل "هورسا"، " ألا تشاهدين ذلك؟ وقال بأنها كانت حمقاء.

الصبيان الصغار الذين شعروا بأنهم ليسوا صغاراً بعد هذه اللحظة، زحفوا من شاطئ النساء، ونظروا إلى هروبهم على أنه " ذهاب إلى الغابة ". فالأشجار كانت قليلة قرب الشاطئ، وشيء رائع أن تشاهد وصول دفعة من الصبيان تجنبوا محاولة النساء الاحتفاظ بهم لفترة أطول. وحينما شاهدوا الساحات الواسعة في الغابة، دهشوا لهذا السخاء – اعتلوا الأشجار حالاً. الغابات تغطي الجزيرة بكاملها – إن كانت واحدة – ما عدا الأماكن التي انتشرت فيها المستنقعات والسبخات. وكان هناك فائدة عملية من ذهابهم إلى الأشجار : بعض الحيوانات المفترسة لا تستطيع التسلق، أو أنها لا تستطيع التسلق بسهولة إلى هذه المظلة الكثيفة من الأغصان والأوراق. كان الصبيان في مأمن أكثر من الشبان الذين أمضوا جلّ حياتهم على الأرض، أو ذهبوا في رحلات الصيد.

هناك تقارير تقول بأن بعض مجموعات الرجال عاشت حياتها كلها على الأشجار، لكن هذا لا ينطبق على أناس "هورسا".

فالصبيان في سن السابعة وما حولها أمضوا معظم أوقاتهم على الأشجار. من منهم يستطيع أن يقاوم أشجار الغابة الحقيقية؟ كانت حياة جيدة. نزلوا إلى الأرض ليشاركوا في الوجبات والولائم والرحلات. أقاموا المنصات على الأشجار، وصنعوا كل أنواع البكرات والأراجيح، وشقوا الطرقات. فقد علمتهم الحياة الاعتماد على الذات وعلى المهارات الجسدية. وقعت هناك حوادث بطبيعة الحال، وهذا هو السبب الآخر الذي جعل شكاوي النساء مزعجة جداً. قالوا حينما يسقط أحد الصبيان وتتكسر ساقه أو ذراعه، يرجع الرجال إلى شاطئ النساء لمعالجته. ألا يستطيع الرجال مراقبة الصبيان الصغار لمنع حدوث مزيد من السقوط – وحتى

بعض الوفيات؟ كانت هذه صفعة للرجال في غير محلها. الصبيان سيخاطرون، ولا بد من وقوع الحوادث. فما هذا القلق الغريب الذي يساور النساء من أجل الأمان؟

حدثت مواجهة أخرى بين "مارونا" و"هورسا" تحمل معها الغضب والاتهامات والمرارة. فلم يكن هناك شيء يمكن أن تقوم به النساء. فالصبيان في سن السابعة أو قبل ذلك، يتهيئون للهرب واللحاق بالرجال.

قام الذكور جميعهم برحلات مبكرة إلى الغابة، فكل الرجال لديهم ذكريات عن شاطئ النساء المحصور والمزدحم جداً.

أشار "هورسا" إلى وجود أنواع مختلفة وعديدة من الشواطئ، وليست بعيدة عن الشاطئ الأساسي، ولم تكن هناك حاجة لبقاء الإناث في المكان الذي كن فيه. أجل، كانت الكهوف مناسبة، ويقر الرجال بأنهم يكنون الإعجاب بهذه الكهوف، فذكرياتهم الأولى انغرست في الكهوف المجاورة للبحر. الكهوف في كل مكان كانت من الحجر الرملي الناعم، ويمكن الكشف عنها بسهولة. قال "هورسا" بأن الرجال سيبنون بيتاً جديداً للنساء، وكل جزء فيه لا يقل جودة عن الذي عندهم وبمساحة أكبر. لكن "هورسا" كان ضد الولع الشديد الذي عرفنه واعتدن عليه. قالت النساء " شاطئكم هو المكان الذي نشأت فيه الصدوع والذكور. ولن نغادره.

لم تسمع "مارونا" مباشرة من "هورسا" عن الحملة التي اقترحها. فالدردشة التي دارت بين البنات هي التي أثارت انتباهها. هل ذهبن مع "هورسا"؟ وهل ذهبن في رحلة قصيرة؟ لم تدر "مارونا" بأن الرحيل سيكون سريعاً، إلى أن سألت إحدى البنات، هل ستذهب "مارونا" معهم؟ فهمت مؤخراً بأن العديد من البنات سيذهبن معهم، وسيذهب كذلك كل الصبيان الصغار الموجودين مع "هورسا". وقد أصابها الفزع حينما فكرت بنتائجه. كما أنها لم تستوعب على الفور بأن "هورسا" لم يفكر بهذه النتائج. فالتخطيط على المدى البعيد لم يكن من مواهبه، لكن لنذكر إحدى المشكلات فقط : إذا ذهبت البنات سيحملن وسيصبحن عبئاً على

المسافرين. لهذا السبب كانت "مارونا" تعتقد في البداية بأن "هورسا" خطط لرحلة قصيرة.

ثم صعدت بعض البنات إلى قمة الجبل ليشاهدن إن كان أحد من الرجال في الوادي، وشاهدن شباناً بجانب النهر يصطادون السمك لتقديمه وليمة للنسور وليطلبوا منها بالمقابل الحماية في رحلتهم.

نزلت بعض البنات على الفور للانضمام إليهم. ولم تشاهد بعضهن الطيور الكبيرة عن قرب. خاف بعض الأطفال. لكن لم يخف الصبيان منهم، وكدسوا الأسماك، وغنوا للطيور وهي تأكل.

" نحن أطفال النسور
وأنتم آباؤنا ".

كان هناك الكثير من الأغاني للنسور، بعضها يقول إن أول واحد منا فقس من بيض النسور.

* * *

حسناً، لا تزال النسور تدغدغ خيالاتنا نحن الرومان. فهناك عش للنسور على البروز الصخري في منزلي الريفي، بعض العبيد عندي يأخذون لهم الطعام قرباناً للمكان. وهناك شيء في داخلي يستحسن هذه الأعطية كأنها واجب علي.

مشاعرنا تجاه النسور لا بد أنها نشأت في مكان ما. بهذا القول، هل لي أن أعلن القرابة لهؤلاء الأسلاف القدامى من الزمن السحيق؟ وهل نحن " أطفال النسر " أكثر مما نعرف؟ فأنا أعرف حينما تمر النسور الرومانية على شكل جحافل علي أن أمسح دموعي.

* * *

حينما رجعت البنات والأطفال إلى الشاطئ، وسمعت "مارونا" عن وليمة النسور، فهمت بأن هذه المغامرة التي قام بها صبيان "هورسا" فيها من الجدية أكثر مما تصورت. استدعت على الفور بعض البنات للذهاب معها، ولأن الصبيان الصغار سمعوا بأن "هورسا" غادر فرجة غابته، ولن يكون هناك مكان يركضون إليه إذا رغبوا بمغادرة شاطئ النساء. إضافة إلى ذلك، ليس من العدل أن يأخذ "هورسا" بعض الصبيان– ليسوا جميعاً أكبر من الصبيان الصغار – الذين ينبغي أن يتركهم خلفه. فقد كان لديهم نية الإقامة في الغابة وانتظار عودة "هورسا".

ركض الصبيان الصغار ومن ورائهم البنات و"مارونا". كانوا صبياناً صغاراً شداداً، أقوياء من السباحة، وكانت البنات قويات أيضاً. كم من الصبيان انطلقوا في ذلك اليوم؟ "عدد لا بأس به من الصبيان الصغار" هذا كل ما نعرفه. كانوا يأملون بالوصول في الوقت المناسب لكي يلتحقوا بالرجال، فقد سمعوا جميعاً بالأشجار التي تنتظرهم.

لم يشاهدوا المساحة الكبيرة في الغابة المليئة بالرجال والصبيان والشبان حينما وصلوا إلى هناك. فقد وقفت الأشجار الكثيرة والطويلة والقوية كأنها ترقبهم. وهناك شيء أكثر من هذا. الأكواخ والملاجئ الخالية تم غزوها، وانهار بعضها. وحوش سوداء كبيرة تحفر بخطمها وتشخر، فيلة لها أسنان حادة كالسكاكين. نعرف أنها الخنازير، كما أن الخنازير الصغيرة لا تختلف كثيراً عن الخنازير التي تتناسل عندنا، لكنها عملاقة وأكبر بكثير من خنازيرنا، وليست ناعمة وسمينة كالتي عندنا، وإنما نحيلة وسريعة وخطيرة. لم يتعلم هؤلاء الصبيان الصغار التسلق بعد، وقلما أدركوا الخطر الذي يحدق بهم. حاولت البنات اللواتي فزعن وتسمرن من الرعب، أن يسحبن الأطفال إليهم، لكن بلحظة هاجمهم قطيع وحمل اثنين من الصبيان الصغار من الفرجة المروعة. لم تتبعهم الخنازير ؛ لديهم شيئان لوليمتهم. ومع ذلك، كأني بهم يقولون " هذا مكاننا، ابتعدوا ".

ما هذه المراقبة التي أبقت الرجال والصبيان في فرجتهم. في الليل يألف المولمون وميض العيون الخضراء والصفراء كما يألف المشعل شعلته.

لم يكن هناك فقط هذا النوع الشرس من الخنازير، ولكن هناك نوع آخر كبير وماكر وقادر على هزيمة الخنازير الصغيرة، أو أكثر، ونعرف أن هناك الكثير منها في الغابة. وهناك الكلاب أيضاً، نوع من قطعان الكلاب. كل هؤلاء يرقبون ما يحدث في الفرجة ليلاً من خلف اللهب. دببة؟ نحن نعرف بأن هناك دببة.

* * *

يجب أن أتدخل ثانية، لأنني وأنا أروي حكايتي عن الغابات والوحوش والبراري، أدركت أنه لا يمكن أن نتخيل السبب الذي دفعهم للعيش دائماً على حافة الغابة الواسعة التي يمكن أن يقفز أو يثب منها في أية لحظة حيوان مرعب. بالنسبة لنا نحن الناس الأواخر لا تمتد خيالاتنا إلى الخلف كثيراً. منذ متى كان أي روماني يمشي في غابتنا يخرج عليه الدب والذئاب أو أي شيء يهدده أكثر من القط البري؟ أولادي، الذين يقاتلون مع الجحافل في الغابات الألمانية الشرسة، لا بد أنهم يخافون الوحوش البرية التي لا نسمع عنها إلا في أساطيرنا. فالحيوانات الخطيرة عندنا أصبحت وراء القضبان. أجل، الكثير منهم. ونذهب لنلعب هناك ونكسب الإثارة في مشاهدتهم. أجل، أذهبُ لألعب مع أختي "مارسيلا" التي لا تضيع أي مشهد مثير.كانت تحب أن أذهب معها، لأن هذا يبرهن بأنها ليست كما أقول لها دائماً عاشقة الإحساس. وجودي هناك إلى جانبها، يبرهن لها أنها إنسانة عاقلة وحضارية. فليس لي أن أجلس، حينما يؤتى بالوحوش لكي تتقاتل، أو يؤتى بها لتهاجم فريستها دون أن ينبض في أحدنا دم أو يخفق له قلب. حاولتُ الجلوس إلى جانبها وأن أبقى ثابتاً. في لحظة ما تجد نفسك صارخاً، تنهض على قدميك، تصرخ، رائحة الدم تجعلك متوحشاً. لماذا أذهب؟ في البداية أذهب لأختبر بنفسي، لكنني أعرف الآن أنني لستُ أفضل من ذلك الحشد الصارخ الذي يشتهي الدماء.

الشيء هو، ألا تذهب، وهذه الأيام حينما تنتابني رعشة العلم، لا أذهب إذا لم تقنعني "مارسيلا" بهذا. شيء ممرض، وكيف لأحدنا ألا يقول هذا؟ الكثير من الناس يقولون هذا، فالمشاهد قاسية وتجعل من كل مشاهد شريكاً في كل همجية مشينة ومع ذلك، قلها واعترف بها، هم سيذهبون.

استعجب وأسأل نفسي كثيراً، وأنا أقرأ عن هؤلاء الناس القدماء في غاباتهم، هل قلنا كل ما يمكن قوله عن الألعاب؟ وهل كل من يستمتع بالألعاب التي يشاهدها في حلبة الصراع لديه ضرب من الهمجية؟ لكن حينما نصرخ والدم يتدفق من فم الأسد أو النمر – أو أي حيوان بري تزخر به حلباتنا، ألا يوجد شيء آخر هناك؟ سألت نفسي، أهو الانتقام؟ منذ متى يعيش جنسنا في الغابات جنباً إلى جنب مع النمور والخنازير والذئاب وقطيع الكلاب، التي يقع فيها في كل لحظة ضحية لها؟ فلا يمكنهم التقدم خطوات قليلة نحو الغابة دون أن يلمحوا بعض الوحوش المفترسة، والأعداء المخيفين. وكم مات من أسلافنا وكانوا طعاماً لأعدائهم، الوحوش البرية؟ فهل نسينا كل هذا؟ نسيناه ربما لأنه كان مخيفاً، وبهذه الطريقة، أعتقد أننا نقوم بأشياء سيئة جداً تحدث معنا. فأنثى الذئب التي قامت بتربية رومانيينا السابقين، هذه المخلوقة الكريمة والمعطاء– ألم نختلقها لنعوض فيها عن التاريخ الطويل الذي كانت فيه الذئاب تغيرعلينا وتؤذينا؟ كانت النسور فقط كما أعتقد تحمل فكرة مغايرة عندها، تتجاوز إعجابها بكبريائها وجمالها – فالنسور تأخذ الصغار من قطعان البشر، يعتمدون عليهم في طعامهم، النسور قد تختطف طفلاً، هكذا سمعت في الأجزاء الموحشة من إمبراطوريتنا. واسترضاء النسور التي تنتمي إلى جوبيتر•، هو شيء احترازي، وصراخنا حينما يسقط الأسد ميتاً، أليس تعويضاً عن الزمن حينما كانت الأسود والقطط الكبيرة تقدمنا طعاماً لأشبالها؟

نجلس في حلباتنا في صفوف آمنة نأكل ونشرب، نرقب الوحوش

• جوبيتر : كبير آلهة الرومان

الكاسرة وهي تلاقي حتفها، لكن في وقت ما كانت تعني لنا الموت. نحن أناس أعزاء، نحن الرومان، وليس سهلاً أن نعترف بضعفنا أو قابليتنا للوقوع في الخطأ، لكن ربما صراخنا وهتافنا يُقر بهذا كله. نحن آمنون في مقاعدنا والحيوانات التي جيء بها من أفريقيا ومن الصحراء الشرقية هي اليوم تحت رحمتنا. فلا يمكن لأي منها أن يهرب من قفصه أو من محيط الحلبة، كل منها سيلقى حتفه ونحن نشاهده. والقليل من يفكر بأننا في يوم ما سنكون تحت رحمتهم. وحينما أفكر، في تلك الغابة التي عسكر فيها "هورسا" وهو يحرس الصبيان الصغار الذين تعلموا كيف يصبحون رجالاً شجعان، بحمايته وحماية مجموعة الشبان عنده، والعيون المخيفة لأعدائهم كانت تتقادح في الليل من الضوء المنبعث من النيران الملتهبة التي طالما أُشعلت لتخيفهم وتبعدهم، ويجري دمي بارداً. فهل نسينا تلك العصور الطويلة حينما كانت بعض الكواسر تقفز في أي لحظة من بين الأعشاب أو تسقط علينا من غصن شجرة؟ فصراخنا في الحلبة ما هو إلا صوت الثأر. أو أعتقد هكذا، حينما أضع نفسي في مكان هؤلاء الناس القدامى، الذين نسميهم متوحشين، وهم من جنسنا، وهم أسلافنا – وهم نحن. ومحاربونا القدماء وحدهم الذين قاتلوا في أشرس الأماكن من إمبراطوريتنا يمكن أن يتخيلوا ما أحس به أسلافنا، وهم يدكون تلك الغابات القديمة.

***

الآن ركضت "مارونا" وبعض البنات وبعض الصبيان الصغار حتى شاهدوا الرجال على الشاطئ الكبير، وهم يشعلون النار من أجل المساء.

وصلت النساء، وقد صرخن يتهمن الرجال الذين صرخوا بهم أيضاً. صاح الرجال بأن النساء البلهاوات فقط يفكرن بترك الصبيان الصغار يذهبون إلى فرجة الغابة حينما لا يوجد من يحميهم من الرجال. هذا شيء فيه مراوغة لأن "هورسا" ورجالاً آخرين عرفوا جميعهم " ثقافة " هروب

الصبيان من النساء. ومن السهل أن يستنتج "هورسا" بأن الصبيان الصغار سيهرعون إلى الفرجة ما إن يعرفوا أن "هورسا" قد غادرها. لماذا لم يترك "هورسا" بعض الشبان خلفه لحماية الصبيان؟ الحقيقة أن "هورسا" أصيب بالصدمة : فقد عرف أن هذه الحيوانات كانت تجوب وتطوف مكانه في الغابة، فكيف لا يعرفون كم كان عددهم هناك، فقد اصطادوا كما كانوا هم يصطادون بين الأشجار، لكن صدمتهم كانت، امتلاك الخنازير الكبيرة أماكنهم فور رحيلهم.

فقد اُختطف صبيان صغيران وأُكلا، وكان هناك المزيد من الصبيان الصغار الذين خافوا والتصقوا بالنساء.

استمرت المواجهة، في وقت توهجت فيه النيران على طول الشاطئ، وكان الضوء قد سحب خيوطه من قبة السماء.

لدينا نسخ كثيرة من هذا المشهد، من تاريخ الرجال والنساء على حد سواء. فقد وصفت "مارونا" بقامتها الطويلة وقوتها وبشعرها الطويل الذي تكدس ضفائر فوق رأسها. وهذا يشير إلى أنها تريد أن تبدو أكثر طولاً.

ولا نعرف ما تعنيه كلمة " طويل " بالنسبة لهم. ربما "هورسا" هذا الصياد الكبير، كان رجلاً صغيراً ونحيفاً وليس طويلاً وقوياً – فكما أعتقد، وكان لزاماً علينا أن نتخيله كأحد حرّاس الإمبراطورية الرومانية.

هذا هو الموضع الوحيد في كل مدوناتنا يذكر فيه الشَّعر. قد يكون لديهم شَعْر أحمر، فكل ما نعرفه، أنهم يشبهون أناساً من قبائل الغال (الفرنسية). وقد يكون جميعهم من ذوي الرؤوس الحمراء أو الشقراء. خلافاً لما اعتقده. فالشعر الأسود أو الداكن أو العيون السوداء أو الداكنة - هي السائدة.

لقد دُوّن بأن "هورسا" كان عنيفاً نظراً لانتهاكاته التي سُمع عنها حينما كانت "مارونا" تصرخ به. ولم يكن لديه أدنى فكرة حتى الآن عن التسرع الذي يعيشه. كان يرتب وليمة كبيرة لها وللنساء، في الوقت الذي كانت فيه المشاحنات مستمرة.

كانت "مارونا" تبكي من الغضب والإحباط والإذلال، وكانت متعبة : كانت طريقاً طويلة وجميلة من شاطئ النساء إلى هذا الشاطئ. قالت "مارونا" بأنها ستذهب إلى البيت الآن، وسوف تأخذ معها البنات – اللواتي لم يردن الذهاب بل البقاء هنا، ضيوفاً على الرجال الذين كانت تتشاجر معهم بكل قسوة. السبب الوحيد الذي دفع بها للذهاب إلى البيت هو أن "هورسا" كان يخطط للقيام بحملة طويلة. قال "هورسا" لا يمكن لأي امرأة أن تغادر قبل الصباح : هذا شيء خطير، وهل "مارونا" تعي ذلك؟

كانت تحاول أن تجعله يشاهد أشياء بعينها. هل تعتقد بأن البنات اللواتي سيذهبن معك سيحملن حالاً، وإذا تأخرت بالعودة سيكون لديك صغار تتعامل معهم؟

كلا، من الواضح أنه لم يفكر بهذا، بل جعلته يفكر به لأول مرة الآن.

" ألا تهتم بنا يا "هورسا"؟ ألا تفكر بنا؟ "

هذا الاتهام عذّب "هورسا" ثانية. برأيك، بماذا كان يفكر؟ قالت له: "أنت تعرف أنه بدوننا لن تكون هناك صغار جدد، وأنت تعرف هذا. يمكن أن تنطلق الآن – لكن من سيملأ أرحامنا؟ لن نجد أحداً. وهكذا لن يكون هناك صغار جدد يا "هورسا".

أُجبرت النساء اللواتي استمعن إلى "مارونا" على الوقوف إلى جانبها، حتى وإن فهمن هذا لتوهن. وقفن هناك، تحدق النساء بالرجال، فكل رجل هو ابن لهن، وكل رجل منهم خرج من أجسامهن. غالباً ما أفكر بهذا وأنا أتفحص إحدى حشودنا الرومانية، فكل فرد من هذه الحشود ولد من أنثى. وإذا كان هناك من قدر أو مصير مشترك، فإنه الأنثى.

فالنساء الواقفات هنا بجانب "مارونا"، هن أمهات جميعاً، فكل ذكر هزت به الأنثى ودللته وأطعمته ونظفته وصفعته وقبلته وعلمته.... أدهشني مثل هذا التاريخ الثقيل والمقنع الذي قلما نتذكره.

" حسناً، يا "هورسا"، ماذا سنفعل؟ هل فكرتَ بهذا؟ "

لم يفكر. وكما قالت وقتها " "هورسا" لم يكترث ".

لكنه لم يعتقد بأنه لم يكترث. هو لم يفكر، وهذا كل شيء. لهذا، إذا ذهب ومعه كل الرجال البالغين، عندئذ، لن يكون هناك صغار، ولن يكون هناك أناس، أجل، كانت على حق.

لقد تشوش من هذه، القوة المطلقة له – الالتزام. الالتزام الذي يفرض عليه التفكير والقبول بأنه لم يكن مكترثاً وكان عديم المسؤولية تماماً كما قالت عنه. غير أن هذه الاتهامات من جانبها جعلته دائماً عنيداً ومقاوماً، لكنه لا يستطيع أن يخبرها اليوم بأنه لم يكن يستمع إليها، وبأنها كانت محقة في نقها وشكواها دائماً، وهذا ما كان يفكر به خفية.

لدينا مشهد تم وصفه تصويرياً. فقد وقفت النساء هناك في مكان شبه مظلم وربما بارد، وقد ارتدين ملابس متألقة ولامعة صنعت من جلد السمك، لكنها لم تدفئهن جيداً. لم يكن هناك أحد بجانبهن سوى الذكور الذين أطلقوا لحاهم في الغالب، ولبسوا فراء الحيوانات الذي اعتادوا عليه. وحينما رفع نسيم البحر طبقة من الفراء عن أكتافهم أو رؤوسهم، لا تصدق بأنه كان فراء أو لحية أو ذيل حيوان مفترس في الغابة.

وقد دوّن بأن "مارونا" و"هورسا" قد " تسامحا " في تلك الليلة. وأتساءل ماذا كانت الكلمة الأصلية؟ وكيف لهما أن " يتسامحا " إذا كانت القضية التي جعلت كل واحد يصيح بالآخر لا تزال قائمة؟

علمنا بأنهم جميعاً أكلوا وشربوا الخمرة التي أعدها الرجال، وأكلوا فاكهة الغابة. ومن الصعب أن يبقيا غاضبين أثناء الوليمة. فهل تسامحهما شمل الجنس أيضاً؟ نحن نعرف بأن "هورسا" معجب ب"مارونا"، لكن لم يذكر شيء عن حب "مارونا" "ل"هورسا"، إذا كان هذا الحب موجوداً.

* * *

نحن الرومان يجب أن نفترض بأن الجنس قد حدث بينهما، هل يمكن أن يأتي اليوم الذي ينتقد فيه الروماني لممارسته الكثير من الجنس؟ هذا ما اعتقده، لكن وقتها سيكون كلام رجل عجوز.

***

نحن متأكدون من شيء واحد أياً كان شكل هذه المناقشات : يجب أن يحذر الطرفان من الأطفال والمشاكل التي يصنعونها، لأن تاريخ الذكور والإناث على حد سواء يدّون، بأن الليلة كانت صاخبة، ويتطلب من الصبيان الصغار الانتباه، سواء في اليقظة أو في النوم. وكان الصبيان الذين أبلغوا بالذهاب مع "هورسا" متحمسين ومتباهين جداً، لعل هذا مرده إلى الصبيان الذين كانوا مع "مارونا" وتعرضوا لكوابيس وتخيلوا بأنهم يرون الخنازير المفترسة في كل مكان، تركتهم هذه الكوابيس في حالة من اليقظة. فالصبيان الذين عاشوا في الفرجة الموجودة بين الأشجار سخروا منهم وقالوا لهم بأنهم خُيّل إليهم الخنازير، لكن الحقيقة هي مقتل طفلين صغيرين، وقد عرف ذلك الأطفال جميعهم. فالكوابيس والبكاء كان في سهادهم، وكذلك الدموع والشجار ونوبات الغضب....والبنات اللواتي أردن مرافقة الرجال، وبخاصة، حينما فهمن من وقت قريب، بأن الحملة قد تأخذ الرجال لبعض الوقت، كان عليهن أن يمضين الليلة في تهدئة الأطفال.

مع انبلاج الصبح، كان هناك مجتمع كسول ومرهق، وكان الأطفال – يتصرفون كما لو أنهم أطفال صغار. من المفترض أن يحاول "هورسا" إقناع "مارونا" بأفكاره، لكنها هي التي أقنعته بأن يريها " الأسطول " الذي يستعد فيه للانطلاق.

كانت صدمتها كبيرة بما شاهدته، فقد هاجمت "هورسا"، وضربته بيدها وبكت لأنه أصيب بالجنون. " فالأسطول " الذي استغرق جمعه شهوراً عديدة يتألف من طوافات ربطت مع بعضها بحبل من الغابة،

ومن جذوع جُوّف بعضها، وقوارب مستديرة صنعت من جلود شُدت لتطويق إطارات الخشب المزركشة، ومن أكوام القصب، وعرى صنعت من لحاء الشجر. كل هذه القوارب المؤقتة استخدمت للصيد في الشواطئ، وبرهن بعضها على سلامتها – على الأقل لهذه الأغراض المحددة. وما شاهدته "مارونا" يمكن أن نتخيله فقط، لكن ما صرحت به هو " أنت تريد قتلهم، أنت تريد قتل أطفالنا "

أي أطفال؟ الآن، تلك هي فكرة ترتبط بأسلوب اتهامها غير المريح، " ألا تهتمون بنا؟ من هم؟ النساء؟ هل هم الشبان الذين لن تجد بدونهم أي مستقبل للناس؟

قالت "مارونا" : "لا يمكن أن تأخذ معك الأطفال الصغار". تاريخ الرجال حدثنا بأنه عمل " هستيري "، وفسرت النساء هذا بأنه عمل " انتقامي ". والممتع أن "هورسا" وافق عليه نزولاً عند رغبتها.

والحقيقة هي أنه لا يعلم بأن الأطفال الصغار يحتاجون إلى مزيد من الانتباه – ولأن الظروف في الغاية صعبة جداً.

وصل الصبيان الصغار بعد " هروبهم " من شاطئ النساء، يملؤهم الحماس، ومعهم بعض البنات عادة، صعدوا الأشجار على الفور. وهناك في الفسحة جدول جميل مياهه ضحلة يناسب الأطفال. كان الجدول آمناً، وكذلك الأشجار أيضاً، لكن لم تنقطع مراقبة الحيوانات الماكرة الكبيرة التي كانت تطوف وتتسلّل وتنزلق بين الأشجار على أمل أن تجد صبياً صغيراً خارج الحراسة. هل وقعت كوارث؟ هذا ما لم يدوّن. ويمكن أن يُشاهد من هذه الحملة القصيرة، بأن الاعتناء بالصبيان الصغار في الغابة لم يكن عملاً شاقاً. وقد تولى بعض الشبان الصغار هذه المهمة. فهناك قاعدة واحدة يجب الإبقاء عليها. بانحسار الضوء من قبة السماء، واختفاء الأشجار في العتمة، يتوجب على كل طفل الخروج من الأشجار والدخول في حلقات ضوء النار، ثم يُغلق عليه في أحد الأكواخ ليقضي ليلته. قلما شاهد "هورسا" معظم الصبيان، فإذا مرض أحدهم أو انكسرت إحدى أطرافه، أُعيد به إلى النساء.

في تلك الليلة، وتحت رقابة القمر الكبير، وبينما كان الأطفال يصرخون ويطلبون، ويصدرون صخباً شديداً، وقع "هورسا" في بوح سيء.

حينما شاهدت "مارونا" تجميعه " للسفن "، احتقرته واحتقرت سفنه، وقال وقتها بأنه لن يأخذ الصبيان الصغار وسيكتفي بالكبار فقط.

لماذا لم يقل بأنه لن يأخذ أياً من الصبيان على الإطلاق؟ أعتقد أنها الكبرياء. أن يستسلموا كاملاً – كلا، وكما هم دائماً، فالرجال لا بد أن يتعرضوا لقهقهات من الضحك الساخر. ويمكن أن يكون هذا الضحك منصفاً لهم. من منا نحن الذكور لم يتعرض له؟

الصبيان الصغار الذين أُبلغوا بأنهم لن يكونوا مع الرجال، انتفضوا وقالوا بأنهم سيرجعون إلى فرجة الغابة، إلى الأشجار وينتظرون هناك حتى يعود الرجال.

لم ينتبه الرجال بأنهم قُيدوا بموعد العودة. لكن قبل الانطلاق لا بد من فعل شيء يحذرون به الأطفال من الغابة. فكل الصبيان الصغار الذين رجعوا مع "مارونا" إلى شاطئ النساء، وكل هؤلاء الذين ذهبوا مع "هورسا"، انطلقوا يصطحبهم الصيادون بأسلحتهم. كانت هناك مسافة حقيقية عن مكان الغابة في ذلك اليوم، فقد تعب الجميع، وكان معهم الكثير من الصبيان الصغار(الكثير : تلك هي الكلمة التي استخدموها). لكي يصلوا إلى الشاطئ، ومكان الرجال بحلول الظلام يتطلب منهم الجد في السير، والصبيان الذين عرفوا الأشجار أطلقوا صيحات الفرح بمشاهدتها، لكن توقفت بعد ذلك هذه الصيحات وهذا الابتهاج. فقد كان هناك قطيع من الوحوش الغادرة الكبيرة تمددت وسط فرجة الغابة، تمددت هناك كأنما المكان لها. فهذه الوحوش الماكرة التي جاء بها الأطفال لمشاهدتها والنظر إليها هي التي جعلت أجسادهم تتجمد من الخوف. فأين هم الخنازير الذين أخذوا صبيين ولم يمض عليهما سوى يومين فقط؟ استلقت خنزيرة كبيرة سوداء بأنياب وأسنان لامعة في الجدول بل كانت تسده أيضاً : فالماء يسكب من حولها ليشكل بحيرات ضحلة. وضخامة حجمها كان السبب في درء خطر الوحوش

الغادرة عنها وعن الخنازير الصغيرة. فأي حيوان يمكن أن يواجه قطيعاً من الخنازير الضامرة السريعة؟ لعله قطيع الكلاب.

وقف الأطفال ينظرون يائسين إلى جنتهم، وبدأ بعضهم بالصراخ. فالمكان خطير على الرغم من وجود الصيادين الشباب. انطلقت "مارونا" إلى شاطئ النساء ومعها الصبيان الصغار – وقد اختارتهم بشكل عشوائي بحسب حجمهم وطولهم. الصغار الأكبر حجماً – كأنهم أبناء عشر أو حول هذا – رافقهم الشبان انطلقوا عائدين يبحثون عن الرجال. كان الوقت مساء، ويصعب الوصول إلى الرجال قبل حلول الظلام. هذه الصحبة من الأطفال وصلت شاطئاً. (كم عددهم؟ " قلة قليلة "). استقروا عند شاطئ عريض، أمضوا ليلتهم أيقاظاً ودون طعام، وكانت أمواج غير مألوفة تتحطم غير بعيدة عنهم، ثم ابتعدت عنهم مع انحسار المد.

هكذا انتهى اليوم الذي " تصافت " فيه "مارونا" و"هورسا" ، وقد استأنفت هي ومن معها من النساء حياتهن الاعتيادية. وقد دوّن بأنهن قلقن منذ البداية على "هورسا" وخطته الغامضة وعلى الأطفال الذين أخذهم معه.

الصبيان الذين يتوجب عليهم الذهاب مع "هورسا"، زُودوا بقواعد ينبغي أن يتعلموها ويحفظوها ، وكانت هناك عقوبات. فقد تعلموا الطاعة أو محاولتها. وإذا كان "هورسا" قد ندم على موافقته بأخذ الصبيان معه، وحتى الكبار منهم، إلا أنه لم يعترف بهذا مطلقاً.

فقد أظهر اليوم الأول بأن "هورسا" ليس لديه أية فكرة عما كان يواجهه.

تخيلْ حماس الصبيان، كل في طوافته أو بحزمة من قصبه أو حتى بجذع شجرته، انطلقوا مع الرجال في المرحلة الأولى من الرحلة. كانوا همجيين، يجدفون بالعصيّ أو بحزمة منها ، أو حتى بأيديهم، يتقدمون الرجال بسفنهم الكبيرة. كانوا يتساقطون ولا بد من إنقاذهم. يستطيع جميعهم السباحة، وبطبيعة الحال، لا توجد مشكلة في غرقهم، فهم صغار مائيون، لكن " الأسطول " الذي صممه "هورسا" وأعوانه ينبغي أن

يتقدم بتؤدة، وقد أخذ الصبيان الصغار الكثير من انتباههم. في نهاية اليوم الأول كان واضحاً : إذا أُريد لهذه الحملة أن تتقدم، يجب إبعاد الصبيان عنها. أصدر "هورسا" أمراً يقضي بمنع أي صبي من الالتحاق بالرجال، أو يكون جزءاً من " الأسطول "، إذا لم يكتمل جسمه ويصبح كالرجال. هل هذا يعني سن البلوغ؟ هل هذا يعني أن يصبح أكبر؟ وماذا يعني أن يقف حشد من الصبيان عابسين غاضبين قائلين إن هذا ليس من العدل.

لكن كان "هورسا" قاسياً. سيضع الصبيان الأصغر سناً على الشاطئ، وسيوضعون تحت مراقبة الشبان والصيادين ومقتفي الأثر، وسينطلق هذا الفريق من مجموعة "هورسا" على امتداد الشاطئ بالتوازي مع الرجال في قواربهم. وفي المساء سيلتقي جميعهم عند النار لتناول طعامهم....أجل، كان هناك الكثير من الأشياء النظرية، حتى بالنسبة "ل"هورسا" الذي برز في هذا " الأمر " أحد القادة الذين يتوقعون المصاعب ويذللونها بكل بساطة.

للشاطئ فتحات وهي مصبات الأنهار، بعضها كبير، مستنقعات وجروف، وإذا كان الأطفال قد وُضعوا تحت مراقبة الصبيان الكبار، فقدرهم أن يواجهوا عملاً صعباً على امتداد ذلك الشاطئ. كانت هناك حيوانات برية أيضاً. وكل الصبيان يمتلكون الأسلحة. أية أسلحة؟ ذُكر منها سكاكين صنعت من شظايا صدف البحر، ومن العظام الحادة، ونوع من المصائد، القاتلة للحيوانات الكبيرة، والسهام والأقواس. فهؤلاء الصبيان الصغار يعرفون كيف يدافعون عن أنفسهم، لكنهم سرعان ما يتعبون ويشتكون ويتصرفون كما الأطفال، يصرخون ويتعرضون لانفعالات ونوبات الغضب. اشتكى منهم الصبيان الكبار. لهذا خفف النظام عليهم. البقاء مقابل أسطول السفن الصغيرة كان يعني الجري على امتداد الشواطئ، وليس التوغل بعيداً في اليابسة، لهذا كان على الحملة أن تنتظر أحياناً أياماً عديدة، في حين كان الأطفال يتناقشون عن مستنقع

المانغروف• أو عن جرف كبير. وتدخل الأسطول أكثر من مرة لانتشال الصبيان الصغار من عائق أحاط بهم، وحينما حدث هذا صرخوا لكي يسمح لهم بالانضمام إلى الفريق الرئيسي بقواربهم المرتجلة. الشكاوى والدموع والمشاكل، وتوجد أغاني من ذلك الوقت، أغاني ساخرة تتحدث عن المحاربين الشجعان الذين تركوا مغامراتهم أحياناً ليهتموا بالأطفال.

كيف يمكن "ل"هورسا" أن يلعن قراره بالسماح للأطفال، وهو لم يفصح عما شعر به.

قبل أن تمضي الحملة بعيداً، رجعت بعض البنات إلى شاطئ النساء، وقد أخذن بعض الصبيان معهن. كان هذا من أجل سلامتهم بسبب وجود الحيوانات البرية، لكن يفترض أن يكون "هورسا" سعيداً بتخلصه من صبي أو اثنين أو أكثر، حينما يستطيع ذلك. في هذه الأثناء أصبح شاطئ النساء أكثر ازدحاماً وصخباً وغير مناسب.

قالت البنات العائدات بأن السفر مع "هورسا" صعب جداً، ناهيك عن وجود عدد غير كاف من البنات يكافئ عدد الرجال. هناك إشارة – لأول مرة في تاريخنا – بأن هناك ثنائيات، وأزواجاً معترفاً بها. لم يكن "هورسا" يحب هذا، فقد أوقع هذا خلافاً وصل لدرجة المشاجرة والقتال على البنات.

قالت البنات اللواتي رجعن بأن "هورسا" استبدادي جداً.

من هو "هورسا"؟ أولاً هو الذي أنهى القتال بين مختلف المجموعات في الغابة، يصدر الأوامر، ويوحد الجميع بعد تشرذمهم." الغابة أصبحت آمنة " هذا ما يقوله تاريخ النساء " ويمكن أن نذهب إلى أي مكان هناك، دون أن نصاب بأذى، شريطة أن نذهب على شكل مجموعات. "

تلك هي الذات الفاضلة لدى "هورسا"، القائد المتألق الذي كانت طاعته مبعث سعادة للجميع. ثم إنه نظم حياة الغابة، حفظ حياة الصبيان الصغار في غابتهم، اختار الصيادين ومقتفي الأثر، اعتنى بالفرجة

• المانغروف : شجر استوائي – المترجم

والأكواخ والملاجئ والنيران. وأبعد المفترسين الذين كانوا يطوفون ويرقبون المجموعة. كما أنه القائد الذي أدخل الحملة في كارثة. أهما شخصان مختلفان؟ الأسماء في تلك الأيام الخوالي ارتبطت بصفاتها : فقد ارتبط اسم "مارونا" دائماً بزعيمة النساء. "هورسا" صاحب الدبلوماسية والكياسة الضرورية لقيادة الكثير من الرجال (كم عددهم؟)، لكنه لم يعرف كيف يدير حملته التي تسميها النساء الحملة المتهورة والخطيرة والغبية وسيئة التخطيط. فقد تحولت مغامرة "هورسا" لتوصف بكل هذه الأشياء.

ظل البحر الذي يمخر فيه الأسطول هادئاً ودافئاً ولطيفاً لوقت طويل، وعلى الأقل أثناء فترة الحمل، فالمجوفات والجذوع، وحزم القصب والقراقل • كانت تسير سعيدة على امتداد الشواطئ، وكان الصبيان الصغار على مرأى البصر، ويسهل الدخول إلى الرمال الدافئة لتناول الطعام، أو لقضاء الليل. لا شيء كان صعباً، منذ البداية.

حدث ما لم يستطع "هورسا" تجنبه، وكان عليه أن يحتسبه قدر المستطاع : كانت هناك عاصفة هوجاء، حطمت كل هذه المراكب المريحة والمبهجة، التي حملت هؤلاء الشبان وجنحت على امتداد الشواطئ، بجانب نفايات أخرى من العاصفة.إعادة تجميع المراكب الصغير لم يكن تحدياً كبيراً، حيث وضعت بعض السفن الصغيرة سوية، لكن لم يأذن "هورسا" بانطلاق الرحلة فوراً. فقد عسكروا جميعاً على الشواطئ، أشعلوا نيرانهم، واصطادوا من الغابات، وطهوا لحومهم، وأرسلت مجموعات إلى اليابسة لجلب الفاكهة والخضار – وبدا كأنهم ينتظرون. ماذا ينتظرون؟ الحقيقة هي أن الحملة أخفقت، والمراكب المحطمة خير دليل على ذلك.

المشكلة كانت الصبيان الصغار– الذين يجب أن نتذكر بأنهم، لا يمكن مقارنتهم بأطفالنا من حيث أعمارهم. كانوا في سن العاشرة

• القراقل : زوارق صغيرة تكسى بالجلد لمنع تسرب المياه – المترجم

والحادية عشرة والثانية عشرة ولم تكتمل أجسامهم كما الرجال "، لكنهم يستطيعون استخدام كل أنواع الأسلحة، ويمكنهم الاصطياد مع الصيادين والاقتفاء مع مقتفي الأثر، لكنهم كانوا متمردين ومتذمرين، لا يرضيهم أي شيء. تسلقوا يوماً بعد يوم هذه الشواطئ لكن بصعوبة، كانت أحياناً سهلة لكن كانت غالباً غير ذلك، وراقبوا مجيء الرجال من البحر، وهذا ما لم يعدهم به حماسهم الأول للقيام " بالمغامرة ". تعبوا أيضاً. كان بعضهم أطفالاً في السابعة أو الثامنة، فإن كبرت أجسامهم بما يتناسب وأعمارهم حينما تنطلق فيهم "مارونا" إلى بيتها، فإنها ستأخذ الأصغر سناً. أحياناً يطلبون أمهاتهم، أو يطلبون على الأقل النساء اللواتي أحبوهن، وأُسندت إليهن رعاية الأطفال، كعمل كُلِّفن به من قبل "مارونا". عرف "هورسا" من البداية تقريباً بأن جلب الأطفال كان خطأً، لكنهم أصبحوا بعيدين عن البيت – إذا كان بيتهم هو الغابة – وبعيدين أكثر عن شاطئ النساء.

قرر "هورسا" أن يرجع الأطفال جميعاً إلى البيت، يحرسهم بعض الشبان، لكن حينما سمع الشبان بالخطة رفضوا مرافقة هؤلاء الأطفال العصاة المشاكسين في هذا السفر الطويل والصعب – قالوا لا. لا توجد لدينا مدونة أخرى عن شباب يرفضون طلباً لـ"هورسا". وهل يعني هذا بأن الحملة بكاملها ستعترف بالفشل وترجع إلى البيت؟

ليس هذا بالأمر السهل، أليس كذلك؟ ونقول ل"مارونا" الموبِّخة دائماً بأنها على حق – شيء في منتهى السوء. لكن هناك أسوأ منه. قال "هورسا" بأنه سيكتشف إن كان بمقدوره تتبع الشاطئ والرجوع في يوم ما إلى المكان الذي انطلقوا منه – ويشاهد النساء فجأة على صخورهن ويعرفن بأنهم قاموا بدورة كاملة حول أرضهن. والأكثر من هذا، هل أراد "هورسا" أن يبحث عن أرض أخرى وشواطئ أخرى وأناس آخرين؟ هذا ما لم يشر إليه مطلقاً. لكن بكل تأكيد يتساءل هؤلاء الناس إن كان من أحد مثلهم في مكان آخر يعيش كما يعيشون، ويتساءلون أيضاً، هل هم الوحيدون في هذه البحار والغابات؟

أن يذهب "هورسا" إلى البيت ويتحدث إلى "مارونا" والنساء..... يصعب علي تخيل الكلمات التي سيستخدمها.

لكن إذا كانت حاجة الشبان منذ نعومة أظفارهم تتطلب النأي بأنفسهم عن النساء، فإنهم لن ينسوا سهولة زيارة النساء للرجال، والرجال للنساء. وهل ينسون أيضاً الملامة والنصيحة؟

" غباء، غباء بعينه – هل كنت تعتقد بأنك تستطيع أن تجعل الأطفال الصغار بالغين بمجرد معاملتهم معاملة البالغين؟ وهل كنت تتخيل بأن الصبيان الصغار سيتصرفون مثل الصيادين الشبان المطيعين لك، لأن هذا يناسبك لو أنهم فعلوه؟ "

أخذ "هورسا" بعض رجاله يجوب بهم الشواطئ ليشاهد ما يمكن أن يجده، أخذهم برحلات برية إلى نقاط مرتفعة مثل الأشجار أو التلال العالية، أو إلى أي مرتفع يمكن أن يشاهدوا منه شيئاً يحقق آماله.

مضى الوقت، والآن هذا الحدث يؤرِّخ لأحداث تهمهم وتهمنا على حد سواء.

كان هناك العديد من الفتيات الحوامل وقد سببت أحجامهن وظروفهن الكثير من المصاعب "ل"هورسا".

ولدتْ الحوامل وسُمع بكاء الأطفال على الشواطئ الطويلة المنعشة التي أقاموا فيها وأعدوا الولائم، فهي شواطئ الذكور التي غالبيتها من الرجال. رُوِّع "هورسا" ورُوِّع معه الشبان الآخرون، وهذا ما كانوا يهربون منه – أليس كذلك؟

" حسناً، ماذا كنتم تتوقعون؟ تلد البنات ويبكي الصغار، وعليك أن تطعم الرضَّع وتغسلهم وتدفئهم – ألا تفكرون بهذا؟ أنتم بلهاء وحمقى، عجباً ستجعلوننا نفقد صبرنا معكن... "هورسا" هل تريد القول بأنك لا تعرف بأن هذا سيحدث؟ ألا تتذكر بأننا قلنا لك لو أخذت البنات معك فإنهن سيحملن؟ "

تخيل الملامات والكلمات، ...." وماذا ستفعل الآن؟ "

مات طفل صغير، وسكنت هذا الشاطئ بعوضة معينة، فالبعوض الصفراوي يسكن المستنقعات وأي مكان يجد فيه الطعام، كالنفايات المندفعة من البحر، والسمك المتعفن أو الحيوانات البحرية الميتة والطيور البحرية والطحالب، وما إن تغيب الشمس، حتى تتذكر الأجسام شبه العارية من أولاد ورجال بضرورة ارتداء المآزر المصنوعة من الريش والأوراق.

أُشعلت النيران حتى تعالت واحمرت وتجمعوا حولها بقدر ما يستطيعون الاقتراب من اللهب، والصغير الذي توفي تورم من لدغ البعوض وحاولت البنات حفظ أطفالهن بتغسيلهن في الأمواج باستمرار – وهذا ما جعل جلودهم تتجعد وتلتهب.

أمر "هورسا" بالرحيل، لكن بالانتقال فقط إلى شواطئ خالية من البعوض، فكل الشواطئ تتشابه في عوامل الراحة.

لكن بكى الأطفال وأصبحوا مشاكسين، واشتكت البنات من هذا. فقد جئن إلى هذه الرحلة حباً منهن بالتزاوج وصحبة الرجال، لكن الآن كرهن الجنس، ولم يقدمن الراحة للرجال والصبيان.

تذمر الصبيان " إذاً ما الفائدة منهن؟ ". ردت البنات " ما الفائدة؟ ألسنا من ننجب أجيالاً جديدة من الناس؟ "

قال الصبيان لكنهم مصدر إزعاج شديد.

جاؤوا بهذه الطريق الطويلة، التي استغرقت تسعة شهور إذا قيست بالزمن، وإن حدثت توقفات وتباطؤات على الطريق. إذا قيست بالمسافة – لكنهم لم يعرفوا كيف يقومون بهذا.

كم تستغرق عودتهم؟ العودة إلى أين؟ إلى الفسحة التي في الغابة؟ أم إلى أشجارهم التي طالما حلموا بها - فقد أمضوا وقتاً رائعاً بين الأشجار الكبيرة التي وفرت لهم الأمن. وقال الكثير من الشبان والصبيان بأنهم أصيبوا بالجنون حينما غادروها. فكل ما كانوا يحتاجونه، هو حرّاس مسلحون جيداً حول أطراف الفسحة، لإبعاد الخنازير الغازية، والحيوانات الغادرة الزاحفة.

لكن لسبب ما لم يرد أحد أن يقوم بهذا : الرحلات ستصل إلى مكان ما، وستجد شيئاً ما، وستكتشف، وتتملك...والتذمر لا يساعدهم على ذلك. إذاً، ما العمل؟

توفي صغير آخر، وأضيف صوت النساء النائحات إلى بكاء الصغار. فلا يتذكر هؤلاء الصبيان بأن الصغار يموتون من المرض. فهل يتسبب المرض في موت الأطفال؟

البنات اللواتي افتقدن أطفالهن أصابهن الكسل، وبكين، أو وضعن أذرعهن على وجوههن، صامتات معذبات....يقطر الحليب من أثدائهن. عجباً، شيء فظيع وغير معقول، أظهر الصبيان الكراهية لهم، ومع أن البنات هن اللواتي شاركنهم في مغامراتهم، ورافقنهم كما الصبيان – لكن وقتها أفسدن كل شيء بحملهن، وكرهن كذلك كل ما تبقى من مشاهد وأصوات غير سارة. أما الصبيان الصغار جداً، فقد أصبحوا مصدر اشمئزاز.

كم كانت الحياة رائعة في الغابة التي لا تبعد كثيراً عن شاطئ النساء. كان بمقدور البنات زيارتها، وحصلن على كل ما جئن من أجله – وهو تنشيط أرحامهن – ثم يرجعن إلى بيتهن ثانية، وكان هناك بنات جديدات، نافعات، مفيدات، قريبات من الفسحة، ينعمن بأوصال محطمة وأمراض قليلة. انظر إليهن الآن، وهن منشغلات بأطفالهن المشاغبين، أو مستلقيات وهن صامتات وبائسات. وغير ودودات مع الصبيان.

والآن يوجد توقف كبير في التاريخ. فالحملة التي قام بها "هورسا" وما دُمر من صدوع يشير إلى النهاية. وهي بداية القرى في الغابات. لكن وقتها لم يعرفوا أنه ستكون هناك قرى. فالسجلات لم تذكرها. وعبارة " "هورسا" لا يعرف المكان الذي كان فيه " أنهت حقبة طويلة من التاريخ.

" أن تعرف شيئاً واحداً قد يأخذ منك حقبة بكاملها "، أقولها حينما ينظر المؤرخ إلى زمن بعيد عن زمانه / أو زمانها، ويشعر اليوم بعدم الارتياح لأن الأزمان قد تغيرت.

***

ماذا قصد المؤرخون الجدد، في قولهم : " "هورسا" لا يعرف المكان الذي كان فيه ". أين كانت هذه الأصوات الجديدة؟ في القرى التي في الغابات. ولا نعرف كم كان عددها هناك، ولا نعرف عدد الناس الذين عاشوا فيها، وما شعر به المؤرخون يجب التركيز عليه وهو أن كل قرية أحيطت بجدار مزدوج لمنع اقتراب الحيوانات. فهم يعرفون أين هم. من ناحية، هم ليسوا بعيدين عن مستوطنات النساء على الشواطئ. وقد مضى وقت طويل جداً ـ عصور، حتى وافقت النساء على مغادرة البحر، والتنقل مع الرجال إذا كان هذا التنقل ضمن الشاطئ – عصور؟. وحينما قال مؤرخو القرية " إن "هورسا" لا يعرف المكان الذي كان فيه "، علينا أن نفترض بأنهم كانوا يعرفون المكان الذي كانوا فيه ". فالمآثر التي قام بها "هورسا" في رحلاته المجنونة عبر الأمواج، أصبحت وقتها تردد في الأغاني والحكايات التي تروى أثناء الجلوس حول النيران.

لا أعتقد أننا نحن الرومان يمكن أن نتصور بسهولة ما كانت تعنيه - "هورسا" لا يعرف المكان الذي كان فيه. فقد تعلمنا نحن الرومان " أين نكون " بألف طريقة. حينما رجعت جحافلنا من أراضي الغال، ومن الأراضي الألمانية، ومن داسيا، قالوا لنا أين كانوا. وحينما يهدد الغزاة روما، نعرف أيضاً من أين يجيئون. تجوب سفننا البحار، تذهب إلى الشمال حتى تصل إلى بريطانيا، وإلى مصر، ويعرف عبيدنا أراض قلما سمعنا بها. فنحن الرومان نعرف أين نحن، ونعلم أطفالنا الصغار القول بأن " روما هذه، لا تحتوي على كل ما هو معروف ". وسيعرف الطفل أيضاً، أنه إذا وقف على الشاطئ وشاهد من بعيد الشاطئ المتعرج، الذي هو الجانب الآخر من الخليج، ولكي يصل هناك لا يحتاج سوى بضعة أيام " مسافراً من المكان الذي يقف عليه ليصل إلى ذلك الشاطئ.

***

لكن فكّر "ب"هورسا" وما كان يعرفه. فقد عرف شاطئ النساء وأمواجه الصخرية المتلاطمة،وعرف النهر الكبير، وغابات وادي النسور.

عرف فسحة الغابة وأشجارها الكبيرة، والطريق الذي يصلها بالنساء. لهذا حينما وقف "هورسا" على شاطئه – لكنه لا يعرف أين يقع هذا الشاطئ – ينظر إلى الأمواج التي أمامه، لم تكن لديه أية فكرة بأنه قد يكون على خليج، وبأنه يحدق في الطرف الآخر منه. أجل، لقد عرف الخلجان من أسطوله الذي كان يجوب الشواطئ، ومن المكان الذي كانوا يحدقون فيه وقالوا وداعاً ل"مارونا". هي خلجان صغيرة ورعنات• صغيرة. هل عنده كلمات تعبر عنها؟ عرف المؤرخون اللاحقون في القرى، ما هو الخليج، هو الرَّعن، تعلموه من اندفاع "هورسا" الجنوني عبر الأمواج : المكان الذي ضاع فيه "هورسا" ورجاله، ولم يعرفوا ماذا يفعلون، لم يكن خليجاً سواء كان صغيراً أم كبيراً. أكرر، " "هورسا" لا يعرف المكان الذي كان فيه " هذه العبارة تمثل حدود المعرفة التي لا يمكن لأي روماني أن يتخيلها.

ضياع "هورسا" لم يكن لوحده، بل كان معه شبانه الأكبر سناً، حينما لم يكن هناك صيد في الغابات. ونعرف أنها ليست المجموعة القانعة من الرجال.

" أصيب "هورسا" بمزيد من الاضطراب من النساء وأطفالهن الصغار والصبيان الصغار الذين لم يستطع السيطرة عليهم."

فالصبيان الصغار يفكرون بأنهم صبيان كبار، يقلدون الصيادين ويجمعون الطعام. كم كان عددهم؟ خذ بالحسبان بأن بعضهم غادر مع النساء اللواتي ذهبن إلى البيت، نظن (هو مجرد ظن) أنهم عشرون، وليس أكثر. كلمة " بعض " هي الكلمة المساعدة التي استخدمها المؤرخون. كانوا سعداء جداً بإنجازاتهم، سيرجعون إلى الشاطئ وهم يتبخترون ومعهم الحيوانات التي قتلوها، تماماً كالشبان الذين عملوا أجسامهم كأجسام الرجال. كانوا أشداء وجريئين، ولم يطيعوا "هورسا"، أو أي شخص آخر. يمكنهم الانطلاق بمجموعة بأنفسهم ليوم أو

• الرعن : المكان الذي يتداخل فيه الجبل مع البحر - المترجم

يومين. فأكثر من مرة قُتل أحدهم من قبل أو قطيع من الكلاب. ولا يعرف "هورسا" ما سيفعل بهم. أجريت محاولات لإلحاق بعضهم بفرق الصيد من الشبان الكبار لدمجهم بالمجتمع العام، لكن هؤلاء الصبيان الصغار – لا يشبهون أي صبي صغير نعرفه – كانوا يفخرون باستقلاليتهم. وانتخبوا قائداً لهم أيضاً، صبياً لم يكن أكبر منهم سنّاً، لكنه أكثر قوة وشجاعة. ويمكن أن يخصصوا لهؤلاء البنات اللواتي أبدين استعدادهن ليكن ودودات معهم، لمساعدتهم بجرح أو بطرف مكسور. وقد دوّن بأن البنات كن خائفات من هؤلاء الصبيان المتوحشين، الذين لا يمكن وصفهم بأي حال بأنهم " صغار ". فهم ليسوا أولاداً صغاراً. صادف الشبان الكبار فرقة من هؤلاء الصبيان أثناء الصيد، وحذروا منهم كأنهم أعداء لهم. وحدث شيء من القتال بين الشبان الناضجين و"الصبيان الصغار " الأقوياء والماكرين والماهرين في أساليب الغابة وإن كان حجمهم لا يتعدى نصف حجم الكبار.

ماذا يمكن لـ"هورسا" أن يفعل بهؤلاء الصبيان الذين حينما طلب منهم العودة إلى النساء ضحكوا وصرخوا بأعلى صوتهم " لا، لا، لن نرجع أبداً ".

صديق "هورسا" الذي رافقه في مغامرته، كان معه على شاطئهم المريح، وتناقشا بشكل مستفيض ما يمكن فعله مع هؤلاء. ومن الواضح أنهما لم يكونا في عجلة من اتخاذ أي قرار.

أرادوا أن يكتشفوا إن كانت أرضهم هذه جزيرة، لكن نحن الرومان لم نقبل بهذا المفهوم الذي يعبر فيه عن " الجزيرة ". فكروا هكذا : قد يشاهدون فجأة في صباح يوم ما بأنهم أبحروا بعيداً ووصلوا شاطئ النساء بجروفه وكهوف الصدع. وهكذا كانت بأذهانهم فكرة المحيط، فالنهاية هي نقطة البداية. فكلمة " الجزيرة " استخدمها مؤرخو القرية اللاحقون. فرحلة " الأسطول " الذي أبحر من مكان تداخل فيه البحر مع الشواطئ، بدت وكأنها رحلة اللانهاية. فإذا لم يعرفوا المكان الذي أبحروا منه، فهذا يعني أنهم ليس لديهم فكرة عن المكان الذي

تكون فيه " النهاية ". وكيف عرفوا هذه الرحلة بأنها بلا نهاية؟ وكيف عرفوا بأن هذه الأرض ليست لهم، وأنها ليست كبيرة ويمكنهم الإحاطة بها؟ فإعجابهم بهذه الأفكار سيوقعهم بمزيد من التيه.

أمضى "هورسا" ورفاقه من شبان وصيادين ومقتفي الأثر أوقاتهم حول المشاعل في الليل أثناء توقف رحلتهم إلى الغابة، حاولوا التفاهم مع " الصبيان الصغار "، استمعوا إلى الموجات الكبيرة التي تتدافع جيئة وذهاباً، حاملة معها رسائل الحركة اللانهائية، حدقوا في الأفق...وربما ظهرت في أذهانهم لأول مرة في تلك اللحظة فكرة الخليج، الخليج الكبير جداً. فهل استحدثوا كلمة تدل على " الخليج "، واستخدموها؟ يمكنهم القيام برحلة قصيرة ومشاهدة ما يمكن مشاهدته. فصنع القوارب من حزمات القصب، ومن منبسطات وأغصان صغيرة لم يكن صعباً. عدد قليل من الرجال الكبار الذين يتزعمهم "هورسا" – ربما اثنان أو ثلاثة – غادروا خلسة إلى مركب صغير من هذه " القوارب "، في وقت لم يكن " الصبيان الصغار " حولهم، أبحروا على امتداد الساحل. أتصور– يصعب التفكير بغير هذه الطريقة – أن "هورسا" ربما فكر بأن ينطلقوا جميعاً ويتركوا الصبيان. لكن هذا يعني ترك البنات وأطفالهن أيضاً وكذلك الحوامل. تذكر "هورسا" كلمات "مارونا" " ألا تهتمون بنا يا "هورسا"؟ " وهذا له دلالته الآن أكثر من أي وقت مضى. وقد عرف "هورسا"، إذا لم يصطحبهن معه، فلن ينجبن الأطفال الذين يحتاجهم الرجال. " ألا تهتمون بنا؟ " فكر "هورسا" بكل تأكيد بأن النساء تفصلهن عنه شهور من السفر (يمكن التفكير بهذا على أنه مرور زمن، وليس اجتياز مسافة)، وأصابهم الذعر وهم ينتظرون الرجال. من المعروف أنهم عرفوا جميعاً من نساء ورجال، بأن الفترة الفاصلة بين التزاوج والولادة قد انقضت، وإن كانت مع هؤلاء الناس الذين لم يستطيعوا السيطرة على الأرقام في أية عملية جمع أو أي معنى من معاني الحساب، " الفترة الفاصلة " ستكون غامضة. لكن مر الوقت وسمع "هورسا" الكثير، " ألا تهتمون بنا يا "هورسا"؟ "

فهل اهتم "هورسا" بما نسميه ديمومة جنسنا بالطريقة نفسها التي نقوم بها نحن؟ على سبيل المثال، ندفع للجواري الحوامل ثمناً أغلى من النساء العجائز أو النساء ذوي البطون المستوية.

في فسحة الغابة، هل تولى مشكلة الحراسة والاعتناء بالصبيان الصغار؟ ونرجع إلى هذا السؤال الذي يصعب الإجابة عنه : هل كان يفكر بالناس؟ حينما قالت "مارونا"، : ألا تهتمون بنا؟ " هل كانت تقصد جميعهم ذكوراً وإناثاً، صدوعاً ومن كانوا وحوشاً في قديم الزمان؟ من هم المقصودون بـ " بنا "؟

في غضون ذلك تابع "هورسا" رحلته ليوم واحد أو اثنين أو ثلاثة، يتوقف ليلاً حينما تصبح الأمواج عاتية، والشاطئ مستوٍ أمامه، وليس له نهاية. وإذا نظروا يمنة أو يسرة، يمكن أن يشاهدوا شريطاً أو خيطاً ملوناً في المكان الذي طال فيه تحديقهم الآن، وتساءلوا إن كان هذا الشاطئ المتعرج امتداداً للشاطئ الذي وقفوا عليه.

رجعوا : لم يكن سهلاً عليهم المتابعة وترك الآخرين.

بالعودة إلى مكانهم، قدمت البنات وأطفالهن التحية لهم بطريقة تقول بأن أفكارهم كأنها تريد تركهم. وحدق الشبان أمامهم، وشاهدوا، لكن دون أن يشاهدوا الحافة التي يلتقي فيها البحر مع السماء، الخط الملون البعيد، الذي لم يغيّر مكانه. كأنه شاطئ. أكد بعضهم بأنه شاطئ – لا بد أنه هو – لا يمكن لأحدهم أن يتصور بسهولة خليجاً كبيراً تقع حافتاه المتقابلتان خارج الرؤية. وليس سهلاً أن يقتنعوا بأن ما كانوا ينظرون إليه هو مكان يمكن الوصول إليه. أو يمكنهم القيام بهذا إذا توفرت لديهم القوارب الكبيرة. ماذا سيجدون؟ هل سيجدون بلداً لا يعامل فيه الصبي معاملة اليافع، وإن كان له جسم رجل؟ وهل سيجدون صياح النساء الشابات اللائي لم تتفخ بطونهن وأنجبن أطفالاً؟ وهل سيجدون بنات ودودات لم يحزنَّ ولم يعبسن أبداً، ورفضن اللعب؟

و"هورسا" الذي أصيب بالحمى بسبب هذا الشاطئ وبدا وكأنه في حلم، قال بأنهم تصرفوا بشكل جيد مع قِطَع قواربهم وأجزائها إلى أن جاءت العاصفة : وقتها تسللوا وجدفوا وأبحروا لأسابيع وشهور – وعصور – كانت الأمواج تلاطفهم وكانت رحلة في منتهى الروعة. أجل، أصر "هورسا" : يمكن أن يصنعوا مركباً بسهولة يناسب نقلهم إلى ذلك الشاطئ الذي بدا مغرياً له، وسيركبون الأمواج الجميلة الرقراقة ويجدون.....

الطوافة التي صنعت من حزم القصب شُدت جيداً، وكانت أكبر حجماً وأكثر قوة من أية طوافة صُنعت من قبل. ألح الصبيان الكبار والصغار على أخذهم في هذه المغامرة، لكنهم وعدوا برحلة أخرى إذا نجحت هذه الرحلة. انطلق "هورسا" وصديقه الذي لا نعرف اسمه عند الفجر إلى الشريط الذي بدا في هذا الضوء لؤلؤة وردية، يعلوه خط من الغيوم الزرقاء الداكنة.

توقعا أن يصلا إلى هناك سريعاً – تلك هي الكلمة التي استخدمها المؤرخون. وليس " عند المساء " أو " بعد وقت قصير "، وإنما سريعاً. استغرقا وقتاً أكثر مما كانا يتوقعان. تعبا من مجدافيهما واستمرا، وتابعا، لكن لم يقترب منهما ذلك الشاطئ الهلامي. مرت عليهما ظهيرة طويلة لم يتوقفا فيها، ومع حلول الغسق كانا على مقربة من أرض جديدة، إن كانت هي – لكن لم يكن لديهما أية فكرة عنها. شواطئ ثانية وأشجار من النوع الذي لم يشاهد من قبل. فالأشجار هي التي أغرتهما في التفكير بأن هذا المكان هو برمته أفضل وأغنى وأجمل من مكانهما. فالأشجار التي لم يُشاهد مثلها وصفت كأنها أشجار النخيل، وكانت هناك طيور بيضاء كبيرة بذيل طويل كأنه سعف النخيل. كل ما شاهداه كان جديداً ورائعاً، وكل ما أراداه هو أن يرسوا بمركبهما الضعيف، الذي أوشك على التفكك بعد تعرضهما لفترة طويلة من الأمواج الأكثر ارتفاعاً من تلك التي اعتادا عليها، ومن ثم تبدأ حياة جديدة، و.....

في وقت متأخر من الظهيرة، بدأ الضوء بالخفوت، وبدأت النجوم تملأ السماء، نظر "هورسا" إلى كواكب برجه وفكر بأنها تنظر إليه. كان عليهما أن ينزلا إلى اليابسة عاجلاً، لكن بدأ قاربهما الهش يتأرجح ويرتمي على الأمواج، وهبت عليهما الريح مباشرة من شاطئ الأحلام، الريح التي ذكرتهما بالعاصفة التي حطمت قواربهم. والغيمة السوداء التي استقرت فوق اليابسة ساقتها الريح باتجاههما لتشكل جدولاً أسود رقراقاً، وقد وجدا كأنما عُصف بهما إلى المكان الذي جاءا منه. عُصف بهما بسرعة وازدادت السرعة، وكانا يقفزان فوق الأمواج الطويلة الهادرة، ويتمسكان بحزمة القصب، وهي كل ما تبقى من الطوافة، التي تفككت وتحللت في البحر. كان "هورسا" وصديقه تتقاذفهما الأمواج كما الزبد، ثم سقطا وأُلقي بهما بقسوة وعنف على الشاطئ الذي انطلقا منه عند الفجر. كان الليل قد حل عليهما منذ وقت طويل، والنيران تضطرم على امتداد الشواطئ. هذا الشاب الذي اصطحبه "هورسا" استلقى بلا حراك، منحنياً ومهشماً، لم يستجب، ولم تُرد له الحياة. كما تهشمت ساق "هورسا" والتَوتْ، واستلقى على الرمل الدافئ يئن من خيبة أمله أكثر مما يئن من الألم.

* * *

والآن أنا لا استطيع أن أمنع نفسي من التدخل ثانية. لأنني أشعر بهذا الطفل كثيراً هناك، أما "هورسا" فقد كان ملقى على الرمال، مصاباً، يحلم بالمكان الآخر الذي لم يستطع الوصول إليه. حاول ذلك.... كنت أشعر بأنه يذكرني بطفولتي. وربما بابني أيضاً. ما الشيء الذي كان يتوق إليه حينما شاهد ذلك الشاطئ البعيد وأراد الوصول إليه؟ فأنا أعرف أن هناك من يفكر بأن الإغريق قالوا الكلمة الفصل في الطموحات. لكنني لست ممن يذعن للإغريق، وبخاصة في هذا المجال. أنا من الفئة التي تعتقد بأننا نحن الرومان تفوقنا على الإغريق. ولم يسع "هورسا" وراء الأبعاد الأكثر بهرجة في الحياة، أشاهده كجد لنا نحن الرومان. فما نشاهده

ينبغي أن نتغلب عليه، وما سنعرفه هناك يجب أن نعرفه أيضاً. كان "هورسا" بحد ذاته مستعمراً، لكن كان هذا قبل أن تولد هذه الكلمة أو الفكرة. أشاهد "هورسا" المسكين، مستلقياً هناك ومشلولاً يفكر كيف تؤذي روما نفسها ونحن في حاجة للتوسع. أفكر بولدي المسكينين المستلقيين بإحدى هذه الغابات الشمالية. روما يجب أن تقفز بنفسها عالياً، يجب أن تكبر وتمتد. إلى مكان بعيد وأكثر بعداً، إلى مكان واسع وأكثر اتساعاً. فقد وضعت الحدود للإمبراطورية الرومانية. لماذا يوضع لنا حد دائماً، ولروما ولحدودنا؟ فالشعوب الخاضعة لنا يمكن أن تقاتلنا لكنها لا تستطيع أبداً إيقافنا. أتخيل أحياناً كيف سيصبح العالم المعروف كله رومانياً، ويخضع لحكمنا الرشيد، وللسلام الروماني، وللعدالة والقوانين الرومانية، والكفاءة الرومانية. قمنا بتحويل الصحارى إلى بساتين، وأزهرت الأراضي التي فُتحت. فهناك قوة خارقة أكبر منا نحن البشر، تسيرنا، وترشدنا إلى النقطة اللاحقة التي ستذهب إليها جحافلنا وإن انتقدنا أحدهم، لدي إجابة واحدة. إذا كانت تعوزنا الصفات التي تحتاجها الأرض لكي تزدهر، لماذا إذاً يريد كل منا أن يصبح مواطناً رومانياً؟ فكل شخص من أي جزء من إمبراطوريتنا، وما وراءها يريد أن يكون رجلاً حراً داخل القانون الروماني والسلام الروماني. أجيبوا عن هذا أيها المنتقدون والمشككون. بالنسبة لي، أتخيل "هورسا" المسكين المستلقي هناك على بقعة من الرمل، مشلولاً نتيجة حاجته لمعرفة تلك الأرض الرائعة الأخرى – أفكر به، بيني وبين نفسي، كشخص روماني. بأنه واحد منا. وإنه لنا.

***

استلقى كالطفل ذراعه على وجهه، وحينما استطاع التحدث وأراد الآخرون الاستماع إليه، أخبرهم عن عجائب الشاطئ الآخر. فهذه الأرض كانت أرضهم فيما مضى، فيها أشجار وطيور وحيوانات مهيبة، كانت عيونهم تلمع في الليل في الأدغال، والشاطئ الذي أخفق في الوصول إليه،

وقذفت به الريح العاتية بكل وحشية هو شاطئهم، هذه الأرض الجديدة كانت مغرية ومرغوبة عندهم وكأن أرضهم لم تكن موجودة أبداً.

لكن لا يبدو أن الآخرين لديهم الرغبة في الاستماع. فهناك واجبات وصعوبات، تبدأ بالتخلص من جثة الشاب الميت، التي قذفت بها الأمواج وأعادتها ثانية مهشمة غير بعيدة عن "هورسا". وجاءت إحدى البنات التي فقدت صغيرها لتصر بأن البحر لا يقبل الميت، والأفضل أن يدفن هذا الجسد. وهكذا وُضِع رفيق "هورسا" تحت الرمل، وتمدد "هورسا" بجانبه وفكر بأنه قد يكون هو من يوارى في الرمل الخانق. وأحضرت له بنت أخرى الماء والطعام في مأدبة المساء، لكن ما كان يتحدث به الصبيان الكبار والشبان جميعهم هو عن الصبيان الأصغر سناً الذين جاؤوا بذبيحة من صيدهم، لكنهم طبخوها على موقد منفصل وغير بعيد عنهم، بدلاً من إضافتها إلى المؤونة المشتركة كما يُفعل دائماً. كان الأطفال يغنون ويرقصون ابتهاجاً باستقلاليتهم، وسخروا من الكبار الذين التفوا حول نيرانهم الخاصة بهم. صاح بهم "هورسا" للمجيء والانضمام إلى المأدبة الرئيسية، لكن الأطفال تجاهلوه وهو لم يفهم هذا، ولم يشاهد أيضاً بأن أجواء الجدل والفوضى التي سادت، لأنه لم يكن هناك تحدث، القائد لهم جميعاً، والمحور الرئيس لسلطتهم. كلا، فقد كان مستلقياً على الرمل، أو زاحفاً، يحاول الوقوف، وقد أنهكه الألم.

قذف البحر قطعة من الخشب، وأمسك بها "هورسا"، حاول النهوض متكئاً عليها. إلتفت إليه الناس يحدقون ويبتسمون، وينظر كل واحد نحو الآخر، فالعصا المعوجة بجانب الساق المعوجة كانت مبعث هزئهم، وما إن شاهد الصبيان الصغار على النار الأخرى "هورسا" بسيقانه الثلاث التي تدلت إحداها، حتى بدؤوا يهزؤون منه ويشيرون إليه. فعل الشبان الكبار الشيء ذاته. وقف "هورسا" مترنحاً، يتكئ على عصاه بقوة، لكنه سقط بعد ذلك، وارتفعت أصوات الضحك. حاول "هورسا" النهوض لكنه أخفق. جاءت البنت التي فقدت صغيرها للنهوض به، لكنها أخفقت. ابتعدت عنه. استلقى "هورسا" عاجزاً، كوحش يشعر بالذنب. شعر بأنه أصبح منبوذاً

بينهم، وحينما جاء الصبيان الصغار يقفون حوله، ويشيرون إليه ويهزؤون منه، ظل رابضاً على الرمل يحاول أن يتوارى عنهم. ابتعدوا عنه أيضاً، ورجعوا إلى الغابات قرب الشاطئ. كان الصبيان الكبار يخططون للصيد في يوم الغد. لا يبدو أن أحدهم شاهده. كان عليه أن يزحف مبتعداً عنهم جميعاً، لقضاء حاجة في أمعائه، وحينما رجع استلقى خلف صخرة عالية خبأت القسم الأكبر منه. لم يتحدث معه أحد. ولم يفهم ما أحس به. فقد كان دائماً قوياً ومتماسكاً ووسيماً، وتمنى لو أن الأرض قد ابتلعته.

استيقظ عند الصباح يحس بألم شديد، غاضباً من شدة العطش – وعليه أن يزحف بتؤدة إلى الوعاء الذي فيه الماء. لم يستطع رفع الصدفة البحرية الكبيرة. قليل من الآخرين كان مستيقظاً. ذهب الشبان الأكبر سناً للصيد، ولم يكن هناك أحد من الصبيان الصغار. شاهدته بعض البنات اللواتي كن مع صغارهن بعيداً عن تجمع الناس، ولم يظهرن أية نية لمساعدته. أخيراً حينما شاهدن بأن الصدفة ستنزلق منه ويضيع الماء، جاءت إحداهن وقدمت له الماء. هي لم تكن قاسية معه، لكنه كان معتاداً على الشيء الأعظم.....فما الشيء الذي كان ينقصه؟ وما الشيء الذي لم تقدمه له؟ إنه الاحترام الذي كان يُكن له دائماً ويحتاجه.

بعد أن ارتوى من الماء، رجع لينظر إلى البحر، وكان هناك في الأفق البعيد حيث تلتحم السماء مع البحر وميض ضوء، عرف أنه المكان الذي يتخيله، وأرضه التي سيجد فيها كل ما يريده - ومع ذلك لم تكن لديه أية فكرة عما يصبو إليه، حتى شاهد شواطئ اللؤلؤ الوردي بأشجارها المزدانة بالطيور البيضاء الكبيرة كأنها الأحلام. التجأ هناك من حرارة الشمس المرتفعة تحت ظلال الصخور، يحدق، ويحدق دائماً، بينما كان الشاطئ المغري يغيّر لونه مع حركة الشمس. لم يأت أحد ليقدم له المساعدة من ماء أو طعام أو التحدث معه. فقد أراد أن يحدثهم الكثير عن هذا المكان العجيب الذي شاهده وأوشك على الاقتراب منه، أين.....

لو امتلكت السلطة طوال حياتك، نظراً لطبيعتك، فإنك ستمتلك شيئاً لا تعرف بأنك تمتلكه، ثم عرفته، ثم افتقدته، عندها من الصعب أن تسأل حتى الأسئلة الصحيحة. فما الشيء الذي افتقده؟ وما الشيء الذي

يفتقده الآن ولا يستطيع تقديمه للآخرين؟ لم يقرر "هورسا" بأن يكون قائداً، وموحداً للكثير من المجموعات المتحاربة – فإذا كان هو شخصياً من فعل هذا الشيء، وليس الشخص الذي ورث عنه هذه السلطة - ولم يقاتل الآخرين من أجل السلطة، لكنه عرفها دائماً. ولماذا بدا على رفاقه الصمم حينما تحدث إليهم؟ فالبنت ذاتها التي طلب منها الماء ولم تجبه، جلست بجانبه حينما تحدث عن الأرض العجيبة التي شاهدها بأم عينيه، قبل أن تقذف به الريح في الأمواج وتعيده إلى شاطئه. ثم قالت بأنه يجب ألا يستلقي هناك ويدمدم عن رؤياه، وقال الآخرون بأنه أصيب بالجنون، وقد عكر صفوهم جميعاً. مشروعهم هذا مُني بالإخفاق وبطرق خطيرة. فالقرارات يجب أن تتخذ، لكن من الذي سيتخذها؟ اعتبرت البنت بأن الأمر مفروغ منه بألا يكون "هورسا" زاحفاً أو مشلولاً. "ف"هورسا" يجب أن يختار أحد الشبان الأكبر سناً للعمل معه والقيام بشيء من القيادة المركزية. وقد حدثت أشياء خطيرة حينما كان "هورسا" يتمتم هاذياً عن هذه الأرض الأخرى.

لم يكترث الشبان بـ"هورسا"، الذي كان يحاول أن يتهادى حولهم ممسكاً بعصاه المعوجة، ولم تكن البنات أحسن حالاً منهم. كان لديهن القليل من الأطفال وتوفي بعضهم، ولم يكن هناك فتيات يظهر على بطونهن الحمل. ابتعدن عن الرجال كلما استطعن ذلك، وقد شكلن مجموعة لأنفسهن، وإن تقاسمن الطعام معهم. كان الصبيان الصغار يجتمعون أحياناً على الولائم المسائية العامة، لكنهم كانوا يخرجون إلى مكان ما في معظم الأحيان : أحياناً يمكن سماع صدى أصواتهم في الغابة. فالمشكلة الآن ليست في السيطرة عليهم. قد يكون الأطفال هكذا، لكن المشكلة إذا لم تكتمل أجسامهم كما الرجال، وأصبحوا من الشجاعة والمهارة كالرجال الذين يخافون الإمساك بهم.

بدا كأن البنات أردن المطالبة بنوع من القيادة أو السلطة المركزية، وحينما حاولن استعادة السيطرة على الصبيان اليافعين، قيل لهن بأنهن مجرد صدوع ويجب أن يلذن بالصمت.

وُلد طفل آخر، وأَبلغ الشبان البنات بالبقاء مع أطفالهن المشاغبين، لهذا كانت النساء دائماً على مقربة من التجمع العام.

لم يستطع "هورسا" الإمساك بأي من الصبيان الكبار لكي يصطحبه أو يقبله رفيقاً له. فلا أحد يريد الاستماع إلى حديثه عن الأرض الأخرى، التي لمعت عند الغروب بألوان اللؤلؤ الوردي، والذهبي تحت الغيمة الزرقاء الماطرة.

لم يكن أحد يريد "هورسا" مطلقاً.

ومع إصابة "هورسا" بنوع من العجز، فإن روح الجماعة قد اختفت. كيف أصبح هذا ممكناً؟ استعجبَ، وهو مستلق جريح في ظل صخرته التي وقف عليها مؤخراً بين هؤلاء الناس كشخص أقوى وأفضل منهم، وكل ما قاله حظي باهتمامهم؟

طبعاً باستثناء الصبيان الصغار : لديهم بعض الوقت حتى يستمعوا للآخرين.

"ميف"، البنت التي كانت عطوفة وحذرت "هورسا" جاءت لتخبره بأن الصبيان الصغار وجدوا كهفاً، أو منظومة من الكهوف أمضوا وقتهم فيها. ألم يلاحظ بأن الصبيان الصغار لم يكونوا في المكان مع الآخرين في الآونة الأخيرة؟ شكّل هذا صدمة لـ"هورسا". فهو لم يلاحظ هذا. فلم يلاحظ شيئاً سوى ألمه، وساقه التي يجرها بصعوبة. جاهد للوقوف مستخدماً العصا، وجرب المشي، أو بالأحرى حاول سحب نفسه على الرمال.

وقف مرة على قدميه، مع أنه لا يستطع الاستغناء عن العصا التي يتكئ عليها، بدا وكأن الناس شاهدوه ثانية. لم يريدوا الاستماع إلى حكاياته عن الأرض الجديدة، لكن حينما تحدث استمعوا إليه جيداً.

سألت "ميف" عن الأطفال وكان الشبان غير مرتاحين وضجرين. ماذا يمكن لهم أن يفعلوا؟ شاهد "هورسا" بأن غياب الأطفال أزعج الصبيان الأكبر سناً، ودارت بينهم نقاشات وقرارات لم ينتبه إليها.

قال "هورسا" وقد وقف على قدميه، بأنه يجب أن يؤخذ إلى هذا الكهف أو الكهوف، ويبدو أنه استعاد شيئاً من سلطته، لأنه بمساعدة عصاه، والشاب الذي يسنده على الجانب الآخر استطاع جر نفسه إلى أعلى الجرف خلف شاطئهم وشاهد مدخل الكهف الذي يرتبط بممر، قائلاً لهم جميعاً بأن الصبيان الصغار استخدموه بشكل جيد، وفي كثير من الأحيان.

والآن، نجد تلميحاً لعدد الأطفال هناك. فشق ممر " جيد " قد يستغرق أربعة أو خمسة أو حتى عشرة أيام، ولعلنا نشاهد هنا قياساً للزمن. فهؤلاء الناس يعيشون على هذا الشاطئ الجديد الخاص بهم منذ زمن أطول مما يعتقدون. وتوجد فسحة أمام مدخل الكهف صُنعت من اجتثاث بعض شجيرات وأعشاب الغابة. من هناك يمكن للأولاد أن يطلوا على الشاطئ حيث أضرم كبارهم النيران هناك، ويمكنهم أيضاً مشاركتهم صيدهم لإعداد وجبات الطعام. ومن السهل تخيّل قرقرات الأطفال وسخرياتهم الصبيانية وهم خارج دائرة المراقبة.

الكهف بحد ذاته كان عالياً وكبيراً، وفي كل جانب من جوانبه تجد حوافاً مظلمة، يفهم منها بسهولة بأنه لا أحد يريد الذهاب إليها سواء كان كبيراً أم صغيراً. الكهف الرئيسي كان ناعماً تستخدمه الحيوانات – وربما تستخدمه الآن. وكانت على بعض صخوره المنخفضة ممتلكات الصبيان الصغار : شيء من جلود الحيوانات، ومآزر قصيرة من جلود السمك، صدفة كبيرة مملوءة بالماء، وبعض اللحم من عشاء سابق. وكانت الرائحة كريهة. أين كان الأطفال؟ لا توجد أية إشارة منهم. ناداهم الكبار وصرخوا بأعلى صوتهم وهددوهم وأصدروا أوامرهم، لكن لم يجبهم سوى الصمت. فإما أنهم ذهبوا للصيد أو دخلوا في عمق الكهف، ينتظرون لكي يُتركوا لوحدهم ثانية. أشار "هورسا" على الصبيان الكبار بأن يدخلوا قليلاً إلى مؤخرة الكهف فأظهروا له موافقتهم، لكن على مضض : النفق الكبير في مؤخرة الكهف يتشعب حالاً. ويبدو أن بعض الشبان دخلوا في وقت لاحق مؤخرة الكهف ووجدوا

فيه متاهة الكهوف. شاهد "هورسا" الشبان وقد بدا عليهم الارتباك والخجل. أجل، كان عليهم أن يرقبوا الصبيان الصغار، إن اقتضى الأمر، في وقت كان "هورسا" ضعيفاً وليس هو نفسه.

أشار عليهم "هورسا" بأن يتسلق بعضهم المكان عند المساء، ليشاهدوا إن كان قد رجع الأطفال، أجل، لكن صاح أحدهم بأنه لا يريد أن يتوغل بعيداً في هذا الكهف أو أي منهم : هناك حيوانات يمكن أن تسمع أصواتهم. ثم قال آخر بأنه لا يريد أن يلتقي الأطفال في الظلمة لوحده. وقف "هورسا" يتكئ على عصاه، يرتعش من الضعف واستمع إلى حديثهم. كانت هناك أنظمة للكهوف والأنفاق التي توصل بينهم، وهناك أنهار عميقة تحت الأرض، وبحيرات أيضاً. فأية محاولة تجرى لاستعادة الأطفال لا بد أن تكون في النهار، وعلى الأقل بفريقي بحث، وبأقوى الحبال التي يمكن صنعها من الغابة، وبالمشاعل. فإن تاهت المجموعة الأولى يمكن للثانية إنقاذها. قال "هورسا" " لا يمكن أن نترك الأطفال إن فقدناهم في مكان ما." ثم، قال كلاماً عرف أنه غير مقنع كثيراً، " نسينا أنهم مجرد أطفال " – وشاهد عيون أصحابه تنظر إليه وفيها شيء من التأمل والدهشة والتمرد. أتسمي هؤلاء الصبيان الخطيرين بـ " الأطفال ؟"

وقف "هورسا" ينتظر حتى يخرج الشبان جميعهم من الكهف قبل أن يمسك بعصاه ويتبختر خلفهم. جاءت الآن "ميف" لمساعدته. على المنصة في الخارج توجد بقايا النيران المسائية. أمسك "هورسا" بجذع شجرة صغيرة وأغمض عينيه ليستعيد أنفاسه. حينما فتح عينيه كانت "ميف" لا تزال تمسك به، وكان يحدق بالبحر مباشرة ليشاهد حد الضوء الساطع الذي تعلوه الغيمة السوداء التي تقول له بأنه كان ينظر إلى أرضه الأخرى. هنا من فوق، ومن مستوى عال من الجرف امتدت طريق جميلة على طول الأفق. وهل كانت عميقة أيضاً؟ توتر "هورسا" ولم يعد قادراً على المشاهدة. كم يبعد عنا؟ فهل سأل نفسه يوماً، أو هل قاس المسافة برحلة بحرية بطيئة قام بها هو وصديقه ورجعا مسرعين يقفزا فوق الأمواج؟

وكاد يقفز في هواء اليوم الصيفي الحار ويخطو خطوتين إلى مكانه الذي كان ينتظره. شاهدت "ميف" كيف يحدق "هورسا" وينظر أيضاً، قالت له " "هورسا" لا يحب الآخرون أن تحدق إلى هناك. ما الشيء الذي تشاهده؟ فهناك غيوم متكدسة دائماً، ويمكن أن نشاهد هذا جميعاً. " وقد بدا وقتها ل"هورسا" بأن ضوءاً لمع من " الغيمة ". أهو البرق؟ ما الذي أحدث هذا اللمعان الذي كان بمثابة الإشارة له : " لا تنس أنني هنا. "

نزل "هورسا" من التل إلى الشاطئ، وهو يضغط بلطف على ذراع "ميف" القوي. تعثر، لكنه نهض، وتمنى ألا يشاهد أحد سقوطه. أمسكت به "ميف" إلى أن وصل مستوى الشاطئ وجلس هناك على صخرة وانتظر حتى يستعيد قواه.

الآن حينما أشعلوا نيران عشائهم على الشاطئ، نظروا إلى طريق الجرف ليلقوا نظرة على الأطفال إن كانوا هناك. ونظروا ليشاهدوا إن كانت هناك نار تشتعل خارج الكهف. انتظروا ليلة تلو الأخرى، وأثقلهم هذا الانتظار جميعاً. كانت هناك دمدمات افتقدها الأطفال. ثم انطلقت مجموعات بحبالها ومشاعلها في منتصف النهار عندما كان الضوء في أشده ويمكن أن يخترق الطريق الصغيرة إلى الكهوف، وصعدوا ليبلغوا عن وجود متاهات خطيرة جداً، وليس صعباً أن نتخيل وجود أطفال جرفهم النهر بعيداً أو سقطوا في المنحدرات. صاحوا، وصرخوا في كهف تلو الآخر، وعلى الرغم من صعوبة هذا عليهم، في نظام رجع الصدى لهذه الكهوف الصغيرة والكبيرة التي يتضاعف فيها أي صوت، فقد كانوا يعتقدون أن بإمكانهم سماع صراخ الصبيان الضائعين وهم يطلبون المساعدة، ولو أنهم لم يسمعوا سوى أصوات الطيور البحرية على الجروف، أو أصوات الحيوانات التي تعيش في الكهوف. وكانت هناك محاولة أخرى للتوغل أكثر، لكن المشكلة هي أنه لم يكن هناك كهف واحد أو نظام واحد بل الكثير منه، والآن، يتوجب علينا الاعتقاد بفقد الأطفال. قال لهم "هورسا" بأن عليهم الانتظار حتى وإن رجع الأطفال، لكن الكلام الذي وُجّه لهم هو التحرك وترك هذا الشاطئ الذي يُحس بأنه شاطئ نحس.

" ألا تهتمون بنا يا "هورسا" " سمع "هورسا" صوت "مارونا" في أحلامه، وفي صوت الأمواج، وبصوت الريح. " ألا تهتمون بنا يا "هورسا"؟ "

ثم وجد بعض الصبيان في المتاهة، " بعض ". وكانوا كما الهياكل العظمية. إذا هذه فكرة. فالصبيان الصغار الأصحاء لا يصبحون جميعهم عظاماً في يوم أو بعض يوم. خافوا و " تجمدت " عيونهم. أخافهم شيء بمنتهى السوء. كانوا في فتحة بأعماق الهاوية.لم يبتعد الصبيان الكبار كثيراً، لكن التهكم الذي تعرضوا له من رفاقهم، " جبناء ! وخائفون "، دفعهم للذهاب إلى حد أبعد مما ينبغي لهم الذهاب. فإذا انحرفت المياه تحت الأرض، كما يرغبون، ستظهر هناك كل الهياكل العظمية الحقيقية. لم يستطع الصبيان في البداية الأكل، ثم أكلوا الكثير، ولم يستطع أحد التحرك حتى استعدوا للسفر. رفضوا النزول إلى الكهوف ثانية. وقد أقسموا وهم في طريقهم إلى الأطفال بأن الموت أسهل عليهم من دخول أي كهف. فهم لا يعرفون ما حدث للأطفال الآخرين، أو أنهم كانوا خائفين إلى درجة أنهم لم يكونوا قادرين على الكلام، أما محدثوهم فقد سمعوا أسماء: " بريان " سقط في النهر، " الدب الكبير " سقط في الهاوية، والعدّاء أمسكت به أفعى كبيرة. وهكذا كان عندهم على الأقل هذه الأسماء ليرجعوا بها إلى النساء المنتظرات – اللواتي أصررن أكثر من أي وقت مضى على رأيهن.

مر زمن طويل ولم يذكر أو يفكر أحد بالنساء، لكن الآن وبسبب ضياع الأطفال، بدؤوا يتحدثون عن "مارونا" وما ستقول لو أنها عرفت ذلك. وكان الرجال يكررون السؤال أكثر فأكثر كم مضى من الوقت على عودتنا. هذا يعني أنهم لا يعرفون فقط بأنهم هم الذين وضعوا الصغار داخل الأرحام، وإنما يعرفون أهمية الوقت أيضاً – بسبب مرور فترات من الزمن. فهؤلاء، أسلافنا، وأجدادنا الأوائل، لم يتحدثوا في مدوناتهم، كيف كانوا يقيسون الزمن، لكنهم ربطوا على الأقل إنجاب الصغار بالزمن. والرجال الذين التفوا حول نيرانهم الكبرى، التي أرسلت أضواءها الذهبية والقرمزية الطويلة عبر الأمواج التي كانت قريبة من المد وغير بعيدة عنه، تحدثوا عن النساء وانتظارهن، عدا النكات التي نستدل بأنها

من اختلاقهم (أنا أتخيل مجموعة من المحاربين القدماء يجلسون حول نيرانهم، يفكرون بانتظار النساء)، وقالوا بأن "مارونا" ستقلق، وستغضب منهم، حينما يرجعون. متى توقعوا مثل هذا الرجوع؟

الخطة يجب أن تستمر حول الجزيرة بقدر ما يستطيعون، أو حتى الوصول إلى شاطئ النساء. فهل عرفوا وقتها بأنها قد تكون جزيرة؟ نحن نعرف، وهذا يعطينا شكلاً وحدوداً لتخيلاتنا عن رحلتهم. فقد كانت هناك جزر في النهر الكبير في الوادي، ولا بد أن يصادفوا جزراً تشكل أرضاً بحد ذاتها تغتسل بمياه الأمواج من حولها، عند قياسهم البطيء للشواطئ بمركبهم. فهل شاهد "هورسا" شاطئه الجذاب المغري على أنه حدود الجزيرة؟ هو لم يستخدم هذه الكلمة أبداً. ولعل فكرته عن المكان المشرق كشيء محيطي ألقت بظلالها على تفكيره بها.

حينما كان الصبيان الصغار يتماثلون للشفاء – وأوضح التأريخ بأن هذا الشفاء هو شفاء عقلي بقدر ما هو شفاء جسدي - حدث شيء آخر. أمضى الصبيان الكبار بعضاً من الوقت مع الأطفال الذين تعاطفوا معهم لإصابتهم بصدمة كبيرة، تحدثوا معهم واستمعوا إليهم، وقامت البنات بالشيء ذاته أيضاً، لكن وقتها ولدت إحدى البنات وتوفي الوليد على الفور، وهذا ما شكّل صدمةً لهم جميعاً. لماذا يموت هذا الوليد الجديد بدون أي سبب وبدون سابق إنذار؟ ليس هناك ذباب، بلسعاته السامة على هذا الشاطئ. وقرأنا بأن هذا الوليد كان موضع تقدير للمرة الأولى، في وقت اختفى منهم الكثير. ذُهلت الأم الثكلى، وبرغم الغضب الذي كان ينتابهم من النواح والحداد، لكنهم لم يضجروا منها كما ضجروا من الأمهات النائحات الأوائل. وتذكروا حديث "مارونا" ثانية : لماذا يموت الصغار هنا، في حين، حسبما يتذكرون، لم يحدث هذا مع النساء؟

المجموعة التي انطلقت " عائدة إلى البيت " – وقد استخدمت هذه العبارة حقيقة، لتبين كيف تغيرت المشاعر – لم تكن من السعادة كما كانت من قبل. حينما هُيِّئ الأطفال جيداً للسفر، وهُيِّئت معهم الفتاة الثكلى أيضاً، كان عليهم أن يناقشوا المكان الذي سينطلقون إليه.

وجد الصيادون الشبان وهم يطاردون أرنباً برياً ضعيفاً، ما يُعتقد بأنه الكهف الرئيسي، العريض والمرتفع، الذي لا تتفرع أعماقه إلى مئة نفق صغير، وإنما يرجع مباشرة وبشكل مستوٍ بعيداً عن الجرف. وكان على ما يبدو طريقاً للحيوانات. فقد عاشت هناك حيوانات كبيرة وصغيرة، أو أنها كانت هناك حتى أبعدها صخب الصيادين واضطرابهم. فالبصمات كانت في كل مكان من غبار الكهف. وهنا ثانية : أية حيوانات؟ دبب عملاقة؟ خنازير؟ قطط عملاقة؟ فما أغرب عقولنا، التي عرفت عدم الحاجة إلى أن نسأل، ماذا؟ وكم؟ وكيف؟

هربت الحيوانات، لكن على ما يبدو لم يربط الشبان اختفاءَها بالضجيج الذي صدر عنهم، وبالأقدام السريعة، والصياح والصراخ، والأحجار المدوية التي قذفت على جدران الكهف. لكن قبل أن يعيّنوا الكهف الرئيسي الذي سيكون منطلقاً لعودتهم، دخلت بعض البنات أول كهف ونادين بأسماء الصبيان المفقودين، وتوغلوا فيه بقدر ما لديهن من جسارة. هنا تلميح إلى وجود أشقاء أو حتى أبناء مفقودين لديهن. نادين بأسمائهم ثم أصغين، وصِحْن وأصَغْين، ولم يَسْمعن سوى صدى صياحهن بأسمائهم يرتد إليهن.

وعن النيران قيل أيضاً، بأن "مارونا" أصرت على عودة بعض الصبيان الصغار معها. " وإلا لن تجد عندنا صبياناً يكبرون ويصبحون مثلنا." كرر هذا كل الشبان بعقلانية، قال أحدهم هذا ذات مرة. " فكروا ! لنفترض بأنه لا يوجد أطفال يولدون – ماذا سيكون وقتها؟

قال لهم "هورسا" حتى وإن أصبحت الأشياء هكذا، فإن جيل الشباب الذي اصطاد ودافع عنهم جميعاً، سيأخذ بعض الوقت لكي يصبح قليلاً " سيكون وقتاً مخيفاً، علينا أن نكبر في الوقت الذي ننتظر فيه الصبيان. "

هذا الفكر أعطاهم مزيداً من الاهتمام والانتباه لمراقبة الصبيان الذين تركوهم، وأصبحوا عصبيين ويصعب التعامل معهم بعد محنتهم هذه. فهم ما زالوا يقولون بأنهم لا يستطيعون النزول إلى هذا الكهف الجديد، الذي لا يقل خطورة عن الكهوف التي سبقت. لم يكن مظلماً

بالكامل، بل فيه مخارج متعددة إلى الغابات التي سافر إليها "هورسا". وكانت هناك بصائص في هذا الكهف من ضوء الشمس، وشذا الأشجار والماء العذب أقوى وأشد من رائحة الحيوانات. تحت الكهف الكبير كانت هناك أنظمة متعددة للأنفاق والثقوب، ولا يستطع أحد المغامرة بالنزول إليها. لكنها أصبحت لعبة لمشاهدة كم يمكنهم التوغل في الكهف الكبير قبل أن يجدوا فيه العوائق. فهناك أحياناً تلال من الأطلال الناتجة عن السقوط من سطح أو السقوط من هاوية. فلا بد لهم أن يمشوا حولها بحذر لأنها كبيرة جداً. مشوا فيه بسهولة، وبقليل من الخطر، وهذا ما جعله مُرضياً، ويسهل استدعاء "هورسا"، والمشي فيه مع الصبيان الصغار. لكن الأذية في ساقه جعلت السير عليه صعباً بسرعة الصبيان الذين تعافوا جيداً، لكن غالباً ما كانت تتوقف المجموعة التي في أرض الغابة، والأخرى التي في الكهف في الوقت ذاته لتناول الطعام سوية، للتأكد من وجود الجميع هناك.

والآن أصبح واضحاً لديهم جميعاً بأن هذه الأرض كانت مثقبة كما يثقب نقار الخشب قطعة قديمة من الخشب. كهوف وأنفاق وآبار وعوالم كبيرة من البحيرات والأنهار السفلية. فمن يتوقع هذا لو لم يجعل الصبيان الصغار بيتاً لهم هناك على الجرف فوق الشاطئ؟

***

من غير المريح لي أن أفكر بالأنفاق والكهوف التي تقوض سطح الجزيرة - فالمتاهة والسرداب تشبهان الحقيقة الباطنة لعالمنا المعروف. حينما كنت شاباً لم أفكر أبداً بسراديب الموتى. لماذا أفكر؟ بالنسبة لي تأجل الموت والميت لسنوات عديدة. لكن الآن أنا والرومان جميعاً عليهم أن يتذكروا سراديب الموت. فالمجرمون والعبيد الهاربون والسجناء يختبئون جميعهم هناك، والآن أيضاً المسيحيون، والمتعصبون الآثمون الأشرار الذين قيل عنهم بأنهم أشعلوا النار في روما التي نحبها. ولأن الريح انحرفت فقط

في وقت ما، خرج بيتي من ألسنة اللهب. فالنار والجريمة ومهزلة قوانيننا وآلهتنا ترافقني دائماً.

* * *

لم تعد هناك مجموعتان بل مجموعات عديدة. طالما أن الكهف الكبير الذي استمر هكذا منذ الأزل، يقدم لهم الكثير من الإثارات والحماسيات في كل يوم، تعبوا منه بكل تأكيد، وصعد بعض الشبان للسفر مع "هورسا" والصبيان الصغار حتى أصبح السير عندهم بطيئاً جداً، وانطلقوا ووجدوا الشواطئ، التي كان عليهم أن يفترضوا بأنها تختلف عن شاطئهم السابق. غابت الشمس وغرقت في ماء البحر بطريقة ذكرتهم بشاطئ النساء. هل هذا يخبرهم بشيء؟ وهل يعرفون بأنهم ذاهبون الآن مباشرة إلى النساء؟ إذا كانت كلمة مباشرةً هي الكلمة التي تُستخدم، مع كل المجموعات التي تستكشف هنا وهناك وتنطلق ثم تعود. فالمكان الوحيد الذي لا يرغب أحد بزيارته هو الشواطئ، التي على جانبهم الأيمن ولا تبتعد كثيراً عنهم – إذا قرر أسلافنا بأن هناك يمين ويسار وبأنهما القياس الذي يمكن استخدامه. لكن الشواطئ فقدت جاذبيتها. فقد أصبحوا على الشواطئ، وبجوارها منذ زمن طويل. فلا يوجد شيء لا يعرفونه عن الشواطئ والبحار التي لو نظرت إليها أيضاً لوجدتها قد تغيرت.

صعد "هورسا" لأن إحدى البنات أخبرته إنك تستطيع أن تشاهد من التل الصغير وعبر قمم الأشجار امتداد البحر الذي تلمع شواطئه من هناك. بدت قريبة جداً، كانت الشرائط اللؤلؤية الوردية تشبه جوف الصدفة التي تحمل معها دائماً علامة الغيمة الزرقاء الداكنة. وقف هناك وحلم، لكن الآخرين لم يرتاحوا لهذا، ونزل التل والتحق بالصبيان الصغار، الذين تماثلوا للشفاء بسرعة، بحيث كان بعضهم مستعداً للمغامرة والنزول إلى الكهوف مرة أخرى.

ثم رجع بعض الصيادين ليُعلموا عن وجود بئر أو حفرة عميقة مليئة بالعظام.....أجل، فكروا بالعظام التي ملأت الصدع. وقد استغرق هذا منهم بعض الوقت للاعتراف بأنهم هم الذين قذفوا الحجارة على الحفرة، وكان هناك الانفجار: خلخلت الحجارة مخزناً أو جيباً من الهواء الفاسد الذي كان ينتظر الانفجار. كان فيهم شيء من الخجل وليس كثيراً، ولو كان "هورسا" غاضباً وقال لهم بعدم وجوب المزيد من الاستفزازات من هذا النوع. صوت الانفجار لا بد أنه أزعج الحيوانات والطيور. كان يخبرهم دائماً بأنهم مصدر الصخب والعرقلة لطرق الغابة.

كان بعض الصيادين يذهبون لأكثر من يوم قبل أن يجدوا لهم لعبة. وهذا جزء من صعوبة أخرى. فقد اعتمد جميعهم على الصيادين من أجل طعامهم، لجلب الحيوانات وطهيها على النيران. لكن لم يصطد الشبان ما فيه الكفاية: فضلوا استكشاف الكهوف والتلال التي وجدوا فيها دائماً أنظمة جديدة للكهوف. أحضرت البنات الفاكهة من الغابة، وهي المهمة التي ألفها الصبيان كثيراً، لهذا تجد الفاكهة دائماً، لكن لم يكن هناك عدد كافٍ من البنات لإطعامهم جميعاً، بالرغم من عدم وجود حوامل بينهن وعدم وجود صغار يعيقونهن.

طلب "هورسا" طريدة كبيرة وكان دهن الذبائح يقطر على النيران، وألسنة اللهب تلفح الأغصان التي علقت فيها الأوراق الهشة والشاحبة في الصباح.

لاحظ المؤرخون بأن النساء إذا ما أردن الإمساك بالرجال، يمكن اللحاق بهم بسهولة من خلال رماد النيران والعظام والأشجار التي وُسمت أغصانها المتدلية باللهب.

كانوا يتحدثون عن وصولهم إلى شاطئ النساء عاجلاً، لكن هذا لأنهم يأملون جميعاً بالوصول العاجل. هم جياع، ليس للجنس وحده، وإنما للنساء اللواتي جعلوهم قلقين وضجرين ومليئين بالتفاؤل. فهل افتقدوا التوبيخ والنق؟ "مارونا" ستقول هذا وذاك، "و"هورسا" قد يلاحظ ذلك.

وهي لن توافق بكل تأكيد على حدوث الانفجار في الحفرة التي تشبه الصدع الحقيقي.

قرروا الانفصال مرة أخرى إلى مجموعتين، إحداهما تسافر في الغابة، والأخرى إلى الكهوف في الأسفل، إن كان هناك كهوف. وهكذا انطلقوا، يقودهم "هورسا" ثانية، مع أنه كان بطيئاً ويتكئ على عكازه.

لم يدون عن هذا الجزء من رحلتهم الكبرى إلا اليسير. فما أشبه اليوم بالأمس. فالثقة السابقة التي جعلتهم ينطلقون من الشاطئ الذي يُشاهد منه الأرض التي أغرت "هورسا" لم تعد لديهم. بدأ "هورسا" ينتابه شعور بأنه كل يوم من المرحلة الأخيرة لرحلتهم يأخذهم بعيداً عن الوميض اللؤلؤي للأفق الذي طالما تاق إليه. فالتل الذي يمكن أن يشاهد منه المكان لم يعد يجده، مع أنه شاهد من إحدى الروابي تألق الشلال ولمعانه، لهذا تساءل إن كانت هذه الومضات التي شاهدها هي البرق، وفي الحقيقة أنها كانت ضياء الشمس الذي ينبعث من الماء.

في غضون ذلك، ماذا عن شاطئ الإناث، وعن النساء اللواتي فكر فيهن الرجال كثيراً وتحدثوا عنهن الكثير؟ انتظرت النساء....وانتظرن. انتظرن عودة الأطفال....حسناً، لسبب واحد هو أنهم كانوا أطفالهن. فكل غائب من الذكور هو أولاً وأخيراً شقيق أو ابن....لكنني لا أتجرأ على استخدام كلمة حبيب. ومن المفترض بأن عبارة " أحبك "، لم ينطق بها أو يسمع بها أحد – أما عبارة " أودك أكثر من الآخرين " – أجل، أعتقد أنها كانت دارجة عندهم. كذلك يمكن أن نسمع أحد أطفالنا، بعيداً عن شكل رجالهم أو نسائهم، يقولها باستحياء للآخر، وربما بقبلة حمقاء أو حتى خرقاء من الخد. أنا لا أقول بأن هؤلاء الناس القدامى الذين مر عليهم زمن طويل بأنهم كانوا حمقى. فأنا لا يمكنني أن " أسمع " كلمة " أحبك " وأنا أنبش التاريخ.

" افتقدك "....." نفتقدهم "....أجل. أسمع مثل هذا بسهولة.

منذ أن تركتْ "مارونا" "هورسا" في بداية طيشه....أجل، قد أسمع هذه الكلمة بسهولة – فهل " أسمع "، " الرجال ما هم إلا أطفال كبار "، العبارة التي أجزم بأنها تشكل صفعة لكل قارئ ذكوري لهذا العمل في لحظات الخلاف مع زوجته – أو حبيبته؟ كم يسهل علي كتابة " حبيب " هنا....فمنذ أن شاهدت "مارونا" "هورسا" مؤخراً، بصرف النظر عن البنات العرضيات اللواتي رجعن إلى البيت لأنهن وجدن أساليب الرجال خشنة جداً، لم تُسمع كلمة واحدة من المسافرين. فربما تجاوزوا في مسيرهم حدود العالم....لكن انتظر، ليس هناك حد أو حافة لعالمهم، ومن الصعب علينا تخيل هذا، نحن الذين اعتدنا على التفكير بحدود إمبراطوريتنا العظمى، التي نعرف بأنها تغطي الجزء الأكبر من هذا العالم. لا توجد كلمة. هل استطاعت الحملة أن تنقذ أحداً ليغامر في عودته ويطمئن النساء؟ لم تعرف أي من النساء المكان الذي ذهب إليه الرجال، وليس لديهن أدنى فكرة عن تسكعهم على ذلك الشاطئ البعيد الذي حلم به "هورسا" بأنه الشاطئ الذهبي اللؤلؤي – وأصبح فيه عاجزاً – الساعي سيبلغ عن الساق المكسورة ل"هورسا"، وعن كوارث الصبيان الذين فقدوا في المستنقعات والأنهار، وقيل بعدها بأنه لم يُفقد من الصبيان الصغار إلا القليل منهم. ولعل الأفضل للنساء ألا يعرفن هذا.

في غضون ذلك أُبعد الصبيان الصغار عن المغامرة لأنهم صغار جداً، وهم يكبرون، وإذا لم يكونوا في أشكالهم الناضجة، إلا أنهم ليسوا أطفالاً صغاراً الآن. فقد كانوا أقوياء، علمتهم الأمواج وساحة لعبهم. اشتكوا بما فيه الكفاية، وحُرموا من ساحة لعبهم في غابتهم، ومن حقهم في الهروب من النساء، ووجدوا رجالاً في الأشجار للعيش معهم. هم يعرفون بأنهم لا يستطيعون القيام بهذا : عرفوا بأن " مكانهم " ليس لهم، ولا يمكنهم البقاء فيه حتى يرجع الرجال ويقاتلوا الخنازير والقطط الكبيرة الخطيرة، ويستردوا بيتهم الشرعي، مكان الرجال. لا يمكن أن يحدث شيء بدون الصيادين، الصبيان الكبار، وهكذا فالصبيان الصغار الذين لم يعودوا صغاراً، انتظروا الرجال، تماماً كما انتظرت النساء، لكي تكتمل حياتهم.

لم يكن هناك ارتياح في شواطئ النساء، فذهاب الصبيان بأنفسهم إلى الرجال في الغابة كان شيئاً محتملاً. فقد كانوا بعيدين في ذلك المكان، وظلوا هناك لفترة طويلة. شيء واحد كان يقودهم بتؤدة إلى حافة الجنون – لم يكن هناك صغار، ولا توجد فرصة مستقبلية، لعدم وجود نساء حوامل. فالطفل الصغير كان يمشي. ليس هناك بكاء للصغار، مع أن الصبيان الصغار يصدرون ما فيه الكفاية من الضجيج. كان الناس يتذكرون الأساطير القديمة : هل ستكون الأشياء أفضل حينما يستغنى عن الرجال في إنجاب الأطفال؟ فالقمر والمحيط، أو حتى السمك الكبير لقح الإناث، أو حتى الصدع نفسه. الآن جلست النساء المستعدات للتزاوج على الصخور بلا فائدة وتحدثن عن الرجال. انتظرن، وهذا كل شيء.

حينما تحدثن عن الرجال، والصبيان المفقودين، كان هناك نذير شؤم. فهن يعرفن درجة الإهمال لدى الرجال. " إذا توجب عليهن حمل الصغار المنتفخين في أرحامهن، ومن ثم ينجبنهم بألم شديد، فلن يكن مهملات، حياة مخاطرة....." ألا تهتمون بنا يا "هورسا"، ألا تهتمون بنا؟ "

تحدثن أحياناً عن صبيان بعينهم، ضعاف بطرق مختلفة. أحدهم يعاني من سعال حاد، وآخر لم يكن بقوة الآخرين، وآخر لم ير النوم الهنيء وغرق في الكوابيس. كانت أذهان هؤلاء الإناث تحمل صوراً أو خرائط ذهنية لهؤلاء الصبيان، أولادهن، طيف الأيدي الحنونة تتزلق لتلمس طيف أوصالهم، تختبر وتقيس، وإن كبرت هذه الأجسام إلى الحد الذي يتجاوز السماح للآخرين بالإمساك بهم بخشونة، المسني، ولا تلمس الأوصال – كبروا أكثر من أمهاتهم، وتجاوزوا حدّ الطفولة بكثير. هل توفي بعضهم؟ الهواجس أوقعت الكآبة في أفكار النساء اللواتي بكين بدون سبب أو استيقظن فجأة من أحلام سيئة. من بريان، والدب الكبير، والعدّاء، والغراب الأبيض.

الصبيان الأصغر الذين لم يعودوا صغاراً وضجرين ومتمردين، أُخذوا للسباحة على نحو خطير، تسلقوا الجروف ليختبروا أنفسهم، وبعد ذلك

تسلل بعضهم بطريقة قديمة باحثاً عن مغامرة له في الأشجار. يجب إسناد عمليات المراقبة، للبنات شبه البالغات اللواتي يستطعن الجري بسرعة تضاهي أي صبي، ولا يتخلفن عن الصبيان.عليهن أن يعترضن الصبيان ويمسكنهم، وأصبحت هذه لعبة لها شروطها. لاقت هذه اللعبة ارتياحاً لدى الجميع لأنها استهلكت الكثير من طاقتهم، التي يمكن أن توظف بألعاب خطيرة. ثم تربعت هؤلاء البنات الشابات على أماكن مرتفعة، بحيث يستطعن مشاهدة كل شيء وليس فقط بعض الصبيان الصغار المغامرين وهم يحاولون الاندفاع وراء هذه التلال، ليبلغوا عن حوادث غريبة. الجبل الذي لم يكن بعيداً عنهن، بدا وكأنه سينفجر بطريقة تنفلق فيها قمته. قالت إحدى البنات بأنها شاهدت في مكان بعيد يصعب تحديده أشكالاً على الأشجار ليست حيوانات وربما أحد الرجال.

أحدث هذا اهتياجاً وشيئاً من الضجر.

الضجر تحول إلى طبع سيء. فكل بنت اتهمت الأخرى بأنها تسللت من تلقاء نفسها لمهمة

محددة مع أحد الصيادين، وأصبحت بعدها الاتهامات عادية. على الرغم من ذلك، لم يكن أحد متأكداً من مشاهدة أحد الرجال. فالأشكال التي شوهدت على الأشجار يمكن أن تكون دببة أو كلاباً أو أي حيوان كبير يصعد الأشجار. كانت "مارونا" في منأى عن سجالات النساء، لكن الآن لها موقف منه. فما جرى ببساطة شيء مضحك. هكذا قالت. وكان خطير أيضاً. فالشجار الذي وصل إلى حد الضرب يقوم به الرجال بكل تأكيد، الذين استمتعوا بالسجالات وحتى بالقتال. لماذا، أوجدوا القتال فيما بينهم للتسلية. فقد أصرت بكل تأكيد – لكن كان صوتها عالياً وشاكياً – هن يعرفن بأن الشيء الذي جعلهن جميعاً منفعلات ويشعرن بالإهانة كان ببساطة أن أرحامهن لم تملأ.

وقفتْ على صخرة أعطتها ارتفاعاً زائداً عن النساء والأطفال وقالت، " انظروا إلينا. لا يوجد بيننا من امتلأ رحمها، انظرن إلى معداتنا الخاوية وأثدائنا الفارغة. فهلا فهمنا ما نتحدث عنه حينما نرفع أصواتنا ونتهم الآخرين؟ هذا لم يحدث من قبل : أو لا توجد مدونة له. نريد عودة رجالنا

لكي يملؤوا أرحامنا. هذا كل ما نريده. نستطيع الانتظار بكل تأكيد دون أن نتصرف كما الأطفال...." وبكت. الصبيان لم يفهموا هذا. كان للنساء مَعِدات تتسع ويتضخم حجمها، وكان هناك صغير باكٍ، ومعدة فارغة....عرفن هذا كله، وسلمن به، لكنهن لم يفكرن فيه أبداً.

واستخلص الرجال بأن " البنات لا يمكن أن ينجبن أطفالاً من دوننا، " ثم اكتشفوا بأن جزءاً من أجسامهم الذي انفردوا به في وقت ما، منذ زمن طويل، هو الذي جعلهم وحوشاً.

"مارونا" بطبعها السيئ وهدفها الفارغ كأي واحدة منهن، سبحت بعيداً في الأمواج، وفكرت بأن الموجة تستطيع فيما مضى أن تودع صغيراً في رحمها – أوعلى الأقل هكذا تقول الحكايات، وسبحت في المكان وبين الصخور وفكرت : قد يحدث هذا ثانية.

جلست الإناث جميعاً تحت القمر البدر، وأخبرن بعضهن البعض عن القصص القديمة التي تحدثت عن وجود صغار بسبب ضوء القمر الساطع. فلو جلسن هناك مدة كافية وحدقن في القمر مدة كافية، يمكن عندها.....

لكي تضع حداً لاتهاماتهن بمهام سرية مع الرجال، أخبرتهن "مارونا" بأنه من غير المحتمل أن تكون الأشكال التي شاهدنها هي رجالهن. فلو كانوا على مقربة منهن عندها سيأتون إليهن راكضين. وطبعاً سيفتقدهم الرجال بقدر ما يشتقن للرجال. وقد عرفت النساء بأن الاشتهاء إليهن يهيمن على حياة الرجال. لكنهم ينسون النساء بعد أن يحققوا رغبتهم في التزاوج – حتى المرة القادمة.

وظهرت هناك نكات كثيرة. أهي النكات الأولى التي ظهرت في هذا الموضوع؟ أعتقد بأننا نحن الذين نعيش بعدهم بزمن طويل يمكن أن نرجع نكاتنا إلى ذلك العهد. مع ذلك، كما الآن، لا يمكن للذكر أن يخفي ما يشتهيه عضو من جسمه.

ثوبنا الروماني الفضفاض وعباءاتنا تساعدنا بشكل كبير، لكن هؤلاء الناس لا يمكنهم إخفاء الكثير تحت جلودهم وجلود السمك

لديهم، وتحت مآزرهم الريشية أو الورقية. فألعابنا الفاجرة في كل حانة أو خمارة تعتمد بشكل كبير على ذلك الجزء من جسمنا الذكوري. ثم كيف اختلفت الأشياء؟ أعتقد بأن مصدر ذلك الضحك الذي يقرع آذاننا منذ عهود طويلة، هو ببساطة : إن النساء تنق وتوبخ وتنتقد باستمرار، لكن يعتمدن في هذا على شيء جعل الذكور في وقت سابق يطلق عليهم اسم الوحوش. لكن..... استطرد هنا. إنني ببساطة لا أعتقد بأن نكتة ما، سواء ارتبطت بالرجال أو بالنساء، لم تكن موجودة أو يمكن أن تنقرض إلى الأبد.

الصبيان، الذين كانوا ينتظرون الرجال، علموا بأهميتهم، تفحصوا أنفسهم، وتوصلوا إلى نتائج، وبدؤوا يتباهون – ويمزحون – وهذا ما زاد من نزق النساء.

ليس بعيداً، وعند منتصف المسافة تقريباً بين "مارونا" و"هورسا" التي تستغرق مسير نصف يوم، انطلق الشبان بمجموعات في كل الاتجاهات، يرجعون على مراحل لأن "هورسا" أصر على هذا. تعرف بعض الصيادين على شكل معين للأشجار وهرعوا يتفحصونه. ربما لم يتعرفوا على الصدع الذي كان قريباً منهم أو على الشاطئ القريب الذي هو امتداد لشاطئ النساء ويشبهه، لكن ما إن وقفوا سوية في الفسحة التي تذكرها جميعهم، زال الخطر عن خطتهم. تذكروا الوحوش الكاسرة وكيف كانت أسلحتهم بأيديهم. وقفوا صامتين تحت الأشجار التي غفرت لهم طفولتهم ولم يكن ما يفسد ذكرياتهم سوى النساء الثلاث اللواتي جئن معهم، واحتججن على إصرار الرجال على المجيء معهم. أراد الرجال ممارسة الجنس، وإلى أن حان الوقت، ودفعتهم طبائعهم إلى القيام بالتزاوج، كانت النساء كارهات، باستخدام مصطلحنا (وربما أفكارنا) ومتدللات أيضاً. مع ذلك، لم يعرف أحد بأن الحملة أشرفت على نهايتها، وربما كانوا يعتقدون بأن الحملة ستتواصل وربما تتواصل حتى الآن. وهذا يعني أن الصغار سيولدون، طالما هم على سفر، وقد يموتون. هل فكروا بهذا؟ كل المؤرخين يقولون بأن " النساء أنكرن على الرجال راحتهم ".

في كل المدونات التي بين أيدينا لا توجد أي شكوى عن المطالب الجنسية للصبيان، ولا حينما كانت هناك أعداد من الذكور تزيد عن أعداد النساء، ولا حتى حينما حدث ما نسميه اغتصاب العصابة. يمكن أن نفسر هذا كما يحلو لنا، ويبدو أنهم قاموا بالمحاولة. فكل التفاسير تعكس التحيز. على سبيل المثال، بعض القيّمات من نسائنا المتشددات يفكرن برفض الجنس في حين تكون الحبلى سليمة ومعافاة. وبعض الطوائف الدينية عندها أسباب خيالية لا نريد الخوض فيها هنا.

أسف الصيادون في ذلك اليوم لأنهم سحبوا البنات معهم إلى الغابة، فقد تذمرن كثيراً لأنه مكان خطير، وكما العادة لم يحظ الصبيان بالاهتمام الكافي. وقد حُذِّر الصبيان من الخنازير. وتحولت الأكواخ والملاجئ التي كانت هنا، إلى حطام، والمنصة التي يفترض أنها شيّدت على شجرة من قبل أحد الأطفال انهارت تحت وطأة قطّ كبير. وفي المكان الذي تمرغت فيه الخنزيرة جرى الماء صافياً مرة أخرى، لكن كانت هناك طبقة من الطين المخضوض، وفوقها طبقة من الماء العكر، ومن ثم الماء الصافي. ولم يكن هذا من تمرغ الخنزيرة الذي يستنتج منه أنها تركت المكان لتوها، ولكن المخلفات الحديثة جعلت البنات ينظرن بعدم الارتياح إلى القاع.

كان الصبيان يدمدمون وينظرون من حولهم ويمسكون أسلحتهم على أهبة الاستعداد " لماذا هم ليسوا هنا؟ ردت البنات باحتقار: " عجباً، أنتم حمقى، كانوا هنا، لأننا كنا هنا، والآن سيأتون ثانية حالما يعرفون أننا رجعنا. "

دمدم الصبيان، بأنه في بداية إشغالنا للفسحة لم تكن هناك حيوانات، أو لم يكن الكثير منها، وقالت البنات، " طبعاً الحيوانات لا تأتي حالاً. فهي لم تشاهد أي شبيه لنا. وهي لا تعرف طيب مأكلنا. وبكل الأحوال لا نريد أن نكون هنا حينما يأتون. " بدأن بالبكاء.

قال الصبيان " لماذا لا ترجعن إلى "هورسا"، فأنتن تفسدن كل شيء. "

" لماذا لا ترجعوننا إلى مكاننا على الشاطئ؟ "

لم يخطر هذا على بال الصبيان. فهم لا يتذكرون الآن، كيف يسهل عليهم التحرك إلى الشاطئ إلى الأمام أو إلى الخلف. فالأوقات الجميلة التي أمضوها هنا بدت لهم الآن وكأنها مرت منذ زمن بعيد، وفكرة رجوعهم أو تقدمهم كانت ضعيفة في أذهانهم. لكنهم لم يعترفوا بهذا للبنات. لماذا نحن؟ أنتن تعرفن الطريق – ويمكن أن ترجعن بأنفسكن. "

" لكن نخاف أن نرجع بأنفسنا، ماذا عن الحيوانات؟

كان الصبيان غير راغبين بأن يُظهروا للبنات بأنهم لا يعرفون أين هم من مكان النساء. وبرغم أن البنات حزرن هذا. كيف قمن بهذا؟ الأساليب التي تبديها الإناث في قراءة ما يجول في ذهنك كانت شيئاً غريباً.

وتلك المقدرة بكل تأكيد لم يفتقدنها ! هذا ما يقوله مؤرخك الحالي.

أرادت البنات أن يعرفن " ما المشكلة لديكم؟ "

" لماذا لا يبدو أنكم تعرفون أين أنتم؟ "

كانوا يتذكرون كيف كانت مجموعة من الصبيان بمن فيها، اثنان من المجموعة الحالية يطوفان في دائرة معينة من النفق، وهما لا يميزان المعالم، حتى قالت لهما إحدى البنات، " ألا تشاهدان؟ ألم نكن بهذا الجزء من النفق أكثر من مرة؟ "

ولم يبد على الصبيين أنهما عرفا أين هما الآن.

أشارت البنت " ألا تشاهدون الصدع؟ " وكان الجرف الكبير للصدع قد انتصب فوق الأشجار وليس بعيداً عنهم.

حدق الرجال. أجل، إنه الصدع. وهذا يعني.....هل شاهده "هورسا"؟

قال الذكور بأنهم جائعون وسوف يصطادون. قالت البنات " أعتقد بأنكم ذاهبون لإضرام النار، " " يا لها من فكرة ذكية، ستجلب كل الحيوانات إلينا عاجلاً. "

هـذا مـا أراده الـصبيان، ولم تـرده البـنات علـى الإطـلاق. في غـضون ذلك، وجدت البنات بعض الفاكهة قرب الفرجة، وأكلن منها حتى شبعن جميعاً. حل الظلام، وتسلقت البنات الشجرة، في حين قرفص الصبيان تحت جذع شجرة وأسلحتهم جاهزة.

قالت إحدى البنات بأن عليهن ألا يغفلن عن الصبيان، لأنهم قد يتسللون ويتركوهن لوحدهن. وما إن ظهرت أول خيوط الفجر حتى ذهب الصبيان.

قالت البنات بمزيد من الحزن " ألا يهتمون بنا؟ ". ثم تابعن حديثهن المفضل، كان الصبيان تنقصهم الرقة في علاقاتهم، وتنقصهم اللباقة في أغلب الأحيان، ينقصهم الإحساس، أو الأحاسيس.

ثم شقت البنات طريقهن إلى شاطئهن، خائفات لعدم امتلاكهن أي سلاح. كانت الممرات والمسالك معشوشبة، وقد سقطت الأشجار هنا وهناك. ولم تكن رحلة سعيدة.

البنات أبلغن "مارونا" بأن الرجال لا يزال يقودهم "هورسا"، وهم ليسوا بعيدين من هنا، لكن يجب على البنات ألا يعلقن آمالهن على هذا، فلا يبدو بأن الرجال عارفون قربهم من البيت.

في غضون ذلك، شق الصيادون الثلاثة طريقهم إلى "هورسا"، وقد أمضوا وقتهم في التوقف عند ما يشبه مدخل الكهف، أو الصعود إلى شجرة صعبة أو مطاردة خنزير مفترس.

من استجوابه المتلهف، ومن ملاماته، لم يفهموا بأنهم بعيدون جداً عن المكان. فقد أرسل "هورسا" شباناً آخرين وراءهم إلى الأنفاق : أليس هو المكان الذي قالوا بأنهم ذاهبون إليه؟ أجل، قالوا هذا، لكن حينما شاهدوا هذه الأشجار مرة أخرى، أشجارهم، لم يستطيعوا المقاومة.

قالوا بأن " البنات غاضبات منا أيضاً "، فهن عابسات، وهن كما الأطفال. حسناً، ليسوا أكثر من هذا. كم عمرهن؟ خمسة عشر؟ ستة عشر؟ أقل؟ كن في عمر يفكر فيه شبابنا بالانضمام إلى الجيش أو البحث عن مناصر لهم.

كان "هورسا" يكبر الآخرين بقليل، لكن ربما لا يزال في بداية عشرينياته.

تذمروا، " البنات غاضبات جداً منا، وهن مزاجيات جداً "

قال "هورسا" وهو يبتسم ابتسامة عريضة لقد مر الزمن الذي يتوجب عليهم فيه زيارة النساء.

" سيشتكون ويتذمرون فقط "

" ومن الذي كان يقول إذا لم تكن لديه بنت في القريب العاجل سيصاب بالجنون؟ "

الابتسامات العريضة ملأت المكان. هذه الابتسامات الخجولة هي أول ابتسامات لها تدوين عندنا. كم مضى من الزمن حتى ظهرت؟ علينا أن نتساءل. فهي مرتكز كل الكوميديا التي عندهم ؛ فنحن نعرف مثلاً الشيء المضحك الذي أوجده الإغريق. لكن هل كان هذا منذ زمن بعيد، وبعيد جداً؟

قال "هورسا" " لا أريدكم أن تذهبوا ثانية، فأنتم ستذهبون، ومن ثم سيرجع الآخرون ويذهبون. أريد أن نكون مجتمعين ونذهب إلى البنات سوية. وإذا شاهدتم مكاننا القديم في الغابة، عندها لن تكون النساء بعيدات عنا. "

" أجل، وسيكون هناك الصدع "

وجد "هورسا" أنه من الصعب تمييز هذا المَعلم القديم المعروف جيداً من هذه الزاوية. أخيراً شاهده، وكانت هناك لحظة شك.

لم يتطلع "هورسا" لأن يخبر "مارونا" عن الصبيان المفقودين. أما الآخرون فقد تعرضوا لكلام لاذع من البنات، وقد ذُكروا بالقسوة التي وجدت عليها البنات.

سأل الصبيان " أمن الصواب إذا ذهبنا واصطدنا؟ ووعدوا بأن يرجعوا مع حلول الظلام.

أحب أن أتخيل القلق في هذه الأصوات الشابة. بعد ذلك كله، تركوا "هورسا" وحيداً لأيام عديدة، وقد وعدوه بألا يفعلوا ذلك. هل بقي وحيداً؟ - ربما تساءلوا.

" أجل اذهبوا لكن ارجعوا مع مغيب الشمس. "

هل كان وحيداً، وتُرك لوحده في أغلب الأحيان بجزئه المعطل نظراً لساقه المشلولة؟ هل لنا أن نستخدم هذه الكلمة وكلمات أخرى من معاجم مشاعرنا؟ ونحن نفترض، طالما هؤلاء الناس لهم أشكال كأشكالنا، فهم يشبهوننا كثيراً، ويحسون بإحساسنا ذاته. هل يمكن أنهم لم يتعلموا الانعزالية من أحد؟ وهل هذا سؤال مضحك؟ أم محزن؟ مثال، ليس هناك في المدونات الشيء الكثير عن الحب بالطريقة التي نستخدم فيها الكلمة، أو شيء عن الغيرة – لا شيء عن الغيرة، مع ذلك هي عاطفة شائعة جداً، يمكن أن نراقب الطيور وهي تتشاجر على التزاوج. منطقة التأمل بكاملها صعبة علي. فهي تثيرني وتتحداني وتتركني أتساءل. فنحن نعرف كيف يشعر قدوتنا الإغريق – مسرحياتهم تخبرنا بذلك.

لو كتب هؤلاء القدماء مسرحيات، سنعرف حينها كيف كانوا يشعرون. فليس هناك تدوين كثير عنهم كوضع علامات على اللحاء أو على الحجر. فقد أبلغوا تواريخهم إلى آذان الرواة، وربما لم يفكروا أبداً حينما قالوا، مثلاً، بأن " "هورسا" كان يشتاق لأرضه " الأخرى "، وأن الناس الذين جاؤوا بعد عصور كثيرة لن يعرفوا ما كانوا يقصدون بـ " يشتاق "، " ويريد " و " يحلم ".

أكنت حزيناً يا "هورسا"؟ "

" حزين؟ "

" حسناً دعونا نجرب هذا. حينما تفكر بشاطئك السحري هذا، ما هو شعورك تجاهه؟ هل تعتقد، " بوجود أناس من أبناء جلدتي في النهاية، وأنهم سيقولون، " ها قد عدت يا "هورسا"، لماذا كل هذا الغياب؟ كنا بانتظارك. "؟ " هل تشعر بأنك مستثنى من السعادة العامة؟

" سعادة؟ "

حينما نرسل مثل هذه الصيحات إلى الماضي، فإنها ستصبح تساؤلات، لكنها لا تحتاج لأجوبة.

فإذا جلستُ إلى جانب شخص من أبناء جيلي وقلت له " هل تتذكر؟ " – فإن الكلمات التي استخدمها ستتناغم مع الأحداث في ذاكرة هذا الشخص، وستكون الأجواء بيننا مليئة بالحيوية والإصغاء، كما كانت من قبل. قل الكلمات ذاتها إلى شخص آخر من جيل أصغر، ستكون كمن يقذف الحجارة في البحر.

جواب "هورسا"، لا شيء يعود.

لو أنه سمعني، ربما يقول، " لا، أنت لا تفهم. فكما ترى، أنا أعرف كل ما يجب معرفته عن أرضنا، من شجرة، ونبتة، وطير، وحيوان. لكن هذا الشاطئ الآخر الذي شاهدته هناك، يلمع كما الفجر. فأنا لا أعرف شيئاً عن ذلك المكان. وعلي أن أعرف - " ألا تفهم ذلك؟ "

ربما يقول هذا، أجل، سأفهم ذلك، لكن لم يفهم الكثير عنه. لكن أسئلتي هي من روماني عجوز وصل إلى نهاية عمره - وليس لدينا فكرة عما يفكرون به أو يشعرون.

الأسماء يمكن أن تساعدنا. فنحن نعرف بأن "ميري" و"آستر" – اللذين كانا من البعد عن "هورسا" بقدر ما يبعد هو وجنسه عنا – جاؤوا بالسماوات إلى حياتهم باستخدامهم أسماء النجوم. ف"هورسا" كان اسم النجم قبل أن يكتسب هذا النجم الأسماء المصرية، والأسماء الإغريقية، وأسماءنا الرومانية.

فلو عرفنا وقتها ما يعنيه ذلك النجم، لسمعنا ربما "هورسا" متحدثاً في النهاية. أو تخيلنا ذلك.

انتظر "هورسا" رجوع رجاله، وكانت أفكاره ثقيلة ويصعب تبنيها. هكذا تقول القصص. هي هكذا نظراً لما يتوجب عليه أن يخبر "مارونا". كانت هذه حادثة واحدة، حينما لم يستطع الهروب للبحث عن واد آخر،

وعن فسحة جديدة في الغابة. وليس صحيحاً أنه لم يتأس لفقد الصبيان الصغار الذين اختفوا في الكهوف. لكنه لم يتخيل بأن الأرحام ستمتلئ بهذه السرعة، وتلد الصغار و - انظر، مجموعة جديدة من الصغار. وهكذا كلما وصل الرجال إلى النساء بصورة أسرع، كان هذا هو الأفضل.

في غضون ذلك، نظر إلى أعالي الأشجار – كان على تل صغير - وحدق بالصدع، وقد بدا مختلفاً جداً من هذه الزاوية، وشاهد غيوماً بيضاء تندفع منه وسمع انهيارات ناجمة عن أصوات انفجارات عديدة. عرف على الفور ما حدث. فهؤلاء الرجال المجانين، شبانه الشجعان، أبوا إلا أن يقذفوا بصخرة أو صخرتين في الحفرة.

الآن مجموعات من الصيادين الذين لم يستطيعوا الابتعاد عن الكهوف، جاؤوا يركضون إلى "هورسا"، وجاء كذلك الصبيان الذين أُنقذوا من البئر في الكهف. وقفوا حول "هورسا" ينظرون إليه، ينتظرون غضبه، واتهاماته، لكن كل ما قاله كان " حان وقت الذهاب إلى النساء "

في البداية انطلقوا جميعاً بتؤدة، لكن لم يستطع "هورسا" اللحاق بهم، وابتعد عنهم ومعه الأطفال المنقذون.

سألوا " هل ستكون "مارونا" غاضبة منا؟ " قال لهم، " حسناً، ما رأيكم؟ "

كلما ذهبوا أبعد استطاعوا مشاهدة الضرر الذي أحدثته الانفجارات، فالطبقة البيضاء التي تكاثفت فوق الأشجار لم تعُهد من قبل، وحينما وصلوا إليه، كان الشاطئ الصخري الذي تنتظر فيه النساء. وقد شكلت العظام المطحونة منذ أجيال عديدة طبقة سميكة في المكان، فقد تناثرت الأكوام البيضاء في الهواء مع هبوب النسيم. وكانت هناك النساء على مسافة منهم، وارتفع صراخ الصبيان لخوفهم من هذه الأشباح البيضاء التي تبكي وتنوح.

احتشد الذكور الشبان أمام "هورسا"، لكنهم يترددون الآن، لخوفهم من النساء. تجمعوا لحماية أنفسهم. هب نسيم البحر رافعاً المسحوق الأبيض من النساء الذي جعلهن وكأنهن يدخنّ.

الصدع الذي سيطر على ذلك المشهد بكامله كان بنصف حجمه وتناثرت منه حمم قليلة فيها حتى الآن المزيد من الغبار الأبيض. تكونت فوق البحر طبقة بيضاء وقد علت بها الأمواج حتى تجعدت على الشاطئ. بدا هذا البياض صلباً بما فيه الكفاية يصعب تحركه. حاولت بعض النساء التخلص من المسحوق الأبيض عند حافة البحر ووجدن أنفسهن محاطات بقشرة سميكة وكن يحاولن فرك المادة للتخلص منها، وكن يصرخن بفزع وغضب. وعلى الرغم من ذلك، كان البحر صافياً على مسافة ليست بعيدةً.

حينما شاهدت "مارونا" "هورسا"، لم تستطع في البداية تمييز هذا الرجل الأعرج، ومن ثم ذهبت إليه وهي تصيح، " لماذا فعلتها؟ الصدع ! لقد قتلت الصدع. لماذا؟ وقد عرفتْ بأن الرجال كانوا مسؤولين عن ذلك. وهذا يعني بأن "هورسا" هو المسؤول. فاتهاماتها كانت هستيرية، وصراخها القبيح شوه وجهها الأبيض القلق.

" هذا مكاننا، وأنت من قمت بتدميره ".

" لكن يا "مارونا" هناك أماكن أفضل منه. أقول لكِ هذا دائماً. فهناك مكان أفضل منه، وغير بعيد من هنا. لقد مررنا فيه لتونا.

" كنا هنا على الدوام، ولِدنا هنا، وأنتَ ولدتَ هنا. ولدتَ في الكهف الذي هناك ". وبدأتْ تتنهد مشفقة، وهدأ روعها، وأمسك بها برفق، وفكرتْ بأنه لن يستطيع فهم النساء أبداً. لماذا لم تتحرك "مارونا"، أو شيء من "مارونا" السابقة، من هذا المكان منذ زمن بعيد؟ هذا الشاطئ كان دائماً ضيقاً ومزدحماً، وإن تحركن قليلاً..فانفجار الصدع سيكون شيئاً محموداً إذا كان المقصود أن يكون للنساء شاطئ محترم.

" تعالي يا "مارونا"، لا يمكنك البقاء هنا، " واستدعى شبانه بالإشارة إلى الشاطئ الذي خلفه. فهموه، لأنهم تناقشوا مرات كثيرة عن النساء وحماقتهن، لأنهن لا يتحركن إلى شاطئ أكثر فضاء.

تقدم "هورسا" المجموعة، وهو يلف بذراعه "مارونا"، ولا بد أن نستنتج بأنها مجموعة كبيرة، من نساء لديهن المقدرة على التزاوج، ويكن أمهات ثانية، وقد لحق بهم الصبيان الصغار الذين أُنقذوا من الكهف، وكانوا قريبين جداً من "مارونا" : وقد نسوا في هذه الشهور التي كانوا فيها مع الرجال، بأن النساء كانت تعني لهم الراحة والدفء واللطف. وجاءت خلفهم البنات الثلاث اللواتي هربن من الغابة : لم يخبرن "مارونا" عن الأشياء السيئة التي واجهنها في رحلتهن. نظرت النساء جميعاً إلى الخلف وبكين على شاطئهن المدنس، لكن بعد ذلك لم ينظرن إليه : فالبحر لم يعد أبيض، وإنما أزرق تعلوه طبقة بيضاء رقيقة، ثم أصبح له اللون الخاص به. وضعن عالم مسحوق العظام خلف ظهورهن، وعلى الفور نزلت كل النساء إلى البحر، الذي هو أمهن وبيئتهن الملائمة – كما يفكر بعضهن على الأقل – وخرجن يلمعن كما الفقمات السليمات. وهنا لدينا فكرة صغيرة أخرى وهي كيف بَدَيْن." وقفن يعصرن شعرهن الطويل. " وقف الذكور يرقبون، وفجأة بدأ التزاوج الذي طال انتظاره. تقدم "هورسا" و"مارونا" ينزلان إلى الشاطئ. كم استغرق هذا؟ وكم كانت المسافة؟ عندنا " كانت مسافة حقيقية ". و " كان مشياً مريحاً للنساء السليمات. "

سحب "هورسا" "مارونا" لكي تقف معه على الصخور تماماً وقفة الذين تُركوا خلفهم – إلى الأبد. كانت هناك الصخور، والأحواض الصخرية، والموجات المتناثرة النشيطة، وخلفهم شاطئ مشرق طويل برمله الأبيض النظيف : لم يكن هناك ساحل على الشاطئ القديم للنساء.

قال "هورسا"، " انظري "، وهو يشير إلى الجروف التي تلقي بظلالها على الشاطئ ". " الكهوف جيدة كالتي كنت تستخدمينها. "

"مارونا" التي تمتلك كل المقومات التي تخولها حكم النساء، وقفت صامتة، تنظر إلى الشاطئ : وقد فهمت جيداً الفوائد التي تجنى منه.

ما إن اغتسل الصبيان الصغار الذين تم إنقاذهم حتى جاؤوا مسرعين إلى "مارونا" و"هورسا".

لكن كما نعرف كان منهم القليل.

رجعت "مارونا" خطوة إلى الوراء للتخلص من ذراعيه وقالت، " أين الصبيان الآخرون؟ متى سيأتون؟

وهنا جاءت اللحظة المخيفة. وقف "هورسا" أمام خصمه، مطأطئ الرأس، وارتخت ذراعاه على جنبيه، وراحتا يديه أمامها – هذا الموقف أخبرها بما يمكن أن تسمعه. ارتعد "هورسا" وهو واقف واهتز معه عكازه أيضاً.

كانت "مارونا" تجفف شعرها المبلل بكلتا يديها. تذكر بأن لها شعراً " يتكوّم عادة في أعلى رأسها ". الآن تدلى شعرها، عدا المكان الذي أعاقه المسحوق الأبيض. كانت تشده وتسحبه بقوة محاولة إيقاف حدة الألم لتخمد الكرب الذي تشعر به.

" أين هم يا "هورسا"، أين هم؟ "

هز "هورسا" رأسه، وصرخت "مارونا" " أهم ميتون؟ قتلتَ صبياننا الصغار. عجباً، ربما عرفت هذا. في الواقع ما الذي توقعتُه؟ أنت مهمل جداً، أنت لا تكترث...." وهكذا وقفا وجهاً لوجه على حافة الشاطئ الجميل الذي سيأوي إليه كل النساء والأطفال والرجال الزائرين أيضاً. كان الغضب يجتاحها بكاملها بينما وقف "هورسا" هناك منهكاً ومذنباً ومسيئاً. صرخت "مارونا" وتابعت صراخها وأصبح صوتها في النهاية أجشاً، وقفت صامتة تنظر لكنها تنظر إليه. كان مرتجفاً من الحزن الحقيقي الذي أحس به الآن، لأن عذاب حزنها يخبره فداحة ما اقترفه. وقد شاهدت هذا وفهمته. شاهدته، وفهمت تلك الساق البائسة، الساق الذابلة المعوجة.

الرِقة صفة لا يمكن أن ترتبط بالشبان بسهولة. بل الحياة يجب أن تدفع بها إلينا، وتجعلنا من المرونة والطواعية أكثر مما تسمح به عزتنا الأولى. "هورسا" شاهد "مارونا" كأنه لم يشاهدها من قبل. ربما أحس بها أكثر مما شاهدها، على أنها ذات حضور انتقادي محرج دائماً. فقد شاهد هذه البنت المرتجفة التي لا يزال عليها مسحة من المسحوق الأبيض، وإن غسلت الدموع وجهها. كانت هكذا من الضيق والتعاسة: لقد كَبُر في تلك اللحظة، ووقف أمامها ليأخذها بذراعيه، وهي تفتح ذراعيها له.

همست تقول " أيها الطفل المسكين، دندنت بصوت خفيض، " أيها الصبي المسكين "، انهار "هورسا" العظيم وبكى وأصبح صبياً صغيراً مرة أخرى. شيئاً حلواً، أجل، أقول هذا وأنا مطمئنة. أن تصبح طفلاً صغيراً في حضن أمك، تُدللك وتصفح عنك....فكل ما نعرفه نحن، أو يعرفونه، بأن "مارونا" كانت أماً ل"هورسا".

كلما كان الاتفاق كبيراً مع النساء، يكون الارتداد كبيراً : يجب أن أكتب هذا أيضاً. من الذي لم يشاهد هذا، أو يعرفه، أو يفهمه؟

فهناك في ذراعي "مارونا" الحب والتسامح، وبدأ التفكير يعصف بعقل "هورسا" القلِق : أأخبرها عن المكان الرائع الذي وجدته، أجل سأخبرها. وسترغب في مشاهدته أيضاً، أنا متأكد من هذا. ستفهم، أجل، ستأتي معي، وسنذهب سوياً، سأصنع سفينة أفضل من كل السفن التي صنعت، وسوف نحط سوية على ذلك الشاطئ و.....

* * *

لم أتوقع أن أضيف أي شيء على ما قلته في هذا الموضوع، لسبب وحيد هو أنني عجوز الآن، والحياة التعليمية ليست سهلة عليّ. لكن الاندفاع الفيزوفي• جعلني أفكر ثانية بهذا الصدع، وانفجاره المتواضع نسبياً. الاندفاع الفيزوفي قتل أناساً على مسافة بعيدة منه، بقدر ما تبعد بومبي•، ويبدو أن السبب هو المسحوق الضار. فلا شيء ينجو من لمسه. لكن للصدع أبخرة سامة أيضاً، كما أن اندفاع المسحوق المائل للبياض لم يقتل أحداً، على الرغم من قرب الصدع من الشاطئ الذي كانت فيه النساء والأطفال. هل هذا بحد ذاته يثير أسئلة؟ فهناك أشياء كثيرة يبدو أننا لا نعرفها، مع أننا نحن الرومان نحب أن نتصرف وكأننا نعرف كل

• فيزوفي : نسبة إلى بركان فيزوف الشهير - المترجم

• بومبي : مدينة رومانية قديمة تقع اليوم في إيطاليا وهي المدينة التي غطتها الحمم المنبعثة من بركان فيزوف - المترجم

شيء. صديقي القديم بليني سعى وراء المعرفة – ومات نتيجة جهوده. خلال أيام قليلة البحر القريب من شاطئ النساء غسل الأمواج التي غطتها طبقة من غبار العظام على الصخور التي اكتسبت زنجاراً صلباً لا يختفي، هكذا تقول المدونات. وهناك على مسافة ليست بعيدة عن الساحل، كان البحر أزرق صافياً. قضية بسيطة جداً، تدمير الصدع – ولو أنه يترك أسئلة صعبة بأسلوبها، كتلك التي نطرحها عن البركان الكبير الذي نفترض أنه سيثور ثانية في يوم ما.

الصخور البيضاء بجانب الصدع بدت وكأنها غُطيت بذرق الطائر، ويحضرني الآن تساؤل، إن كان هذا البحث المتأني في كل سواحل الجزر لبحرنا سيظهر لنا الصخور التي ابيضت ذات مرة، واتفقنا بأنها مكان تلك القصة القديمة، من صدوع ووحوش. لكن الانفجار الفيزوفي يخبرنا بعدم افتراض ديمومة الشريط الساحلي للجزر أو حتى الجزر نفسها. افترض لو أننا سلمنا بأن هذه المجموعة من الصخور المُقصّرة كنا وراءها – سيأخذ هذا منا اهتماماً عاطفياً فقط. فهؤلاء المؤرخون – هذا ما أطلقوه على أنفسهم ، ينظرون إلى أنفسهم بأنهم مدونون للزمن الغابر – كتبوا من قراهم في الغابات سجلات لأحداث وضعت نهاية لهم حينما انفجر الصدع. (القرى – كم عددها؟ وأين هي؟ وكم تعداد أفرادها؟) كتب مؤرخو القرى على لحاء الأشجار بعيدان الفحم. توقفوا عن نقل قصصهم شفاهة. ولم يبق أي شيء من مدونات اللحاء القديمة، لكن تم التدوين لاحقاً على لفائف القصب ولا تزال موجودة – قليل منها. انفجار الصدع هو نهاية حكاية وبداية أخرى. اتفق على ذلك المؤرخون الذين كتبوا قبلي بعصور عديدة - وهذا ما جرى.